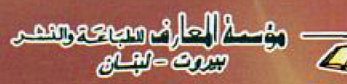
سلسلة شروح عقيدة الرسالة

النكت المفيدة في شرح الخطبة والعقيدة

(للشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني)
(٣١٠هـ/٩٢٢م - ٣٨٦هـ/٩٩٦م)

تأليف
محمد بن سلامة الأنصاري التونسي
(٧٤٦هـ / ١٣٥٦م)

دراسة وتحقيق
د. الميلودي بن جمعة
الأستاذ الحبيب بن طاهر

مؤسسة المعارف للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

سلسلة
شروح عقيدة الرسالة

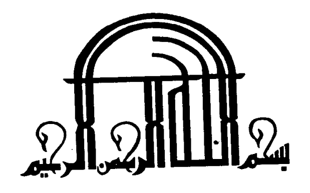
النكت المفيدة
في
شرح الخطبة والعقيدة

(للشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني)
(٣١٠ هـ / ٩٢٢ م - ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م)

تأليف
محمد بن سلامة الأنصاري التونسي
(٧٤٦ هـ / ١٣٥٦ م)

دراسة وتحقيق
د. الميلودي بن جمعة — الأستاذ الحبيب بن طاهر

مؤسسة المعارف للطباعة والنشر
بيروت - لبنان



يطلب من مكتبة المعارف ص. ب 11/ 1761 بيروت ـ لبنان



وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم

تقديم

وبعد، فتمثّل العقيدة في الدين الإسلامي القاعدة الإيمانية الأساس التي تنبثق عنها المفاهيم الصحيحة حول وجود الكون ـ بكلّ مكوّناته ـ وحقيقته ومصيره، ومهمّة الإنسان فيه؛ وتنبثق عنها الأحكام والتكاليف لهذا الإنسان ذي المهمّة الفريدة المميّز بها، مهمّة الاستخلاف في الأرض.

لذلك اعتنى القرآن الكريم بتفصيل الحديث عن العقيدة الحقّة التي دعا النّاس إلى اعتناقها والاستهداء بهديها، وأفاض في الحديث عن أركانها وما يتعلّق بها، من الإيمان بالله تعالى وصفاته، وبالأنبياء ومكانتهم ونعوتهم ومهامّهم، وباليوم الآخر وأحواله، وسائر الأمور الغيبية.

ففصّل القرآن الكريم الحديث عن كلّ ذلك تفصيلاً؛ تأسيساً وبياناً في السور المكّية، وتذكيراً وإجمالاً في السور المدنية.

وقد قدر علماء الإسلام هذه العناية الربّانية بأمور العقيدة حقّ قدرها، وفهموا ـ من خلال ذلك ـ الواجب المناط بعهدتهم المتمثّل في بيانها للنّاس وتفسيرها، بتحويل آيات الكتاب الحكيم العقدية إلى قواعد ومقرّرات واستدلالات، على النحو الذي يبسّطها لهم وتفهمها عقولهم. وجعلوا في اعتبارهم وهم يقومون بهذا العمل جميع أصناف النّاس؛ من المؤمنين بحسب مستواياتهم وأعمارهم، ومن الكافرين بحسب مللهم ونحلهم.

ولأجل ذلك تنوّعت دراساتهم لعلم العقيدة وتنوّعت مؤلفاتهم فيه.

وساروا بالتأليف فيه، على المنهج الذي ابتكروه في سائر العلوم الدينية، واللغوية، والطبيعية، والعقلية، وانفردوا به عن سائر الأمم؛ الذي يقوم على تنويع التأليف بحسب أغراضهم منه، وبحسب الفئات الموجّه إليها. ويظهر هذا التنويع في اختلاف المادّة قلّة وكثرة، واختصاراً وتطويلاً؛ وفي اختلافها بين العمق في التقرير والتحليل والاستدلال، وبين الاقتصاد في ذلك.

ومن أهمّ ما قصده العلماء المسلمون، هو التوجّه لفئة عريضة من الناس، هي الناشئة وعامّة المسلمين، بالتآليف التي تناسبهم؛ لتعليمهم ما هو مطلوب منهم تعلّمه من أمور الدين الضرورية، ومن ذلك علم العقائد. فليس طبيعة العلم الشرعي ـ وخاصة الضروري منه ـ أن يظلّ حكراً على العلماء وحبيس مجالس النخبة من الناس، بل هو في نظر الإسلام ثقافة العموم والحدّ الأدنى من المعرفة المضمونة لكلّ مسلم، للخروج به من دائرة الأميّة الشرعية.

وما قام به العلماء من العناية بالناشئة وعامّة المسلمين وتخصيصهم بالتأليف يدلّ على مدى وعيهم بأمانتهم ودورهم في حماية عقيدة الأمة من محاولات التحريف والتشكيك التي ما فتئ أعداؤها يحاربونها فيها؛ ويدلّ كذلك على مدى وعيهم بطبيعة هذا الدين، وأنّ المحافظة عليه تقتضي توريثه للأجيال المتلاحقة بالتعليم والمداومة على التعليم، وبالاعتناء بأهمّ وسيلة في التعليم وهي التأليف؛ لأنّ التأليف يربط آخر هذه الأمّة بأوّلها، ويقرّب العلم للبعيد عن مجالس العلماء. وقد أفنى علماء المسلمين أعمارهم في تأليف ما يحقّقون به هذه المهمّة، حفاظاً على انتساب أجيال المسلمين لهذا الدين، وقياماً بواجب العهد الذي أخذه الله تعالى على العلماء، بأن يبيّنوا للناس دينهم ولا يكتموه، وأن يأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر.

وعقيدة الشيخ الإمام أبي محمّد عبد الله بن أبي زيد القيرواني ـ رحمه الله تعالى ـ تتنزّل في هذا الإطار، أي في تقديم تأليف يتضمّن مقرّرات العقيدة الإسلامية، بأسلوب مختصر يساعد الناشئة، كما يساعد عامة الناس، على الإحاطة بما يجب عليهم معرفته من قواعد العقيدة الإسلامية التي تحدّد انتماءهم للإسلام، وتسلّحهم بما يحفظون عقائدهم من التزلزل

والتشكيك؛ ومن ثمّ تصحّح عباداتهم والتزاماتهم لأحكام الشريعة.

وكذلك ما كتب على هذه العقيدة المباركة من شروح، فإنّه يساعد الدارس لعقيدة الشيخ ابن أبي زيد ـ في مرحلة ثانية ـ على التوسّع فيها واستيضاح ما طوي فيها من معان، فتطمئن فؤاده لصحّة عقيدته، وترسّخ لديه براهين الانتصار لعقيدته في مواجهة التشكيك الطارئ.

ولذلك يعتبر ما تضمّنته هذه العقيدة مع شروحها مما هو ضروري معرفته من علم العقيدة على المسلم، إذا كانت به أهلية القراءة والكتابة وفهم مقاصد المتحدّثين.

وفي هذا العصر، يتأكّد على علماء المسلمين ووعّاظهم وخطباء منابرهم ودعاتهم، السير على مناهج سلفهم الصالح والاقتداء بهداهم؛ بأن لا يغفلوا موضوع العقيدة، وتوجيه الناس إليه، وتعليمهم قواعده وحججه وبراهينه؛ أمام الدعوات التي تنشط في ديارهم لنشر الإلحاد والتنصير والتشكيك في عقيدة الإسلام باسم النسبية في العقائد والأفكار؛ وأمام الإهمال ـ المقصود أو غير المقصود ـ الذي يجده هذا الركن الأعظم في الإسلام؛ لذلك فإنّ عليهم أن يتحمّلوا مسؤولية صيانة العقيدة وحماية الأمة في دينها، في زمن انفتحت فيه المجتمعات على بعضها، ولم يعد بالإمكان حماية المسلمين في عقائدهم إلّا بما يقدّم إليهم من عقائد مبرهنة، تحتل في نفوسهم درجة اليقين والقطع بها.

هذا من حيث الاهتمام بالموضوع جملة، وأمّا من حيث منهج العرض، ومنهج الاستدلال، وتنزيل قواعد الاعتقاد الإسلامي على ما طرأ في العصر الحاضر من مفاهيم تتعلّق بالعقائد، ومناقشة هذه المفاهيم على ضوء تلك القواعد، فلا شكّ أنّ الواجب يدعو علماء الإسلام أيضاً لأن يتناولوا موضوع العقيدة الإسلامية من هذه الجوانب، وأن يواصلوا الحوار الذي أرسى قواعده القرآن الكريم مع غير المسلمين، للحفاظ على عالمية العقيدة الإسلامية وإثبات ثقتها بمبادئها، وقدرتها على التحدّي؛ في مسيرة هداية البشرية إلى الدين الحق التي انطلقت على يدي رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام.

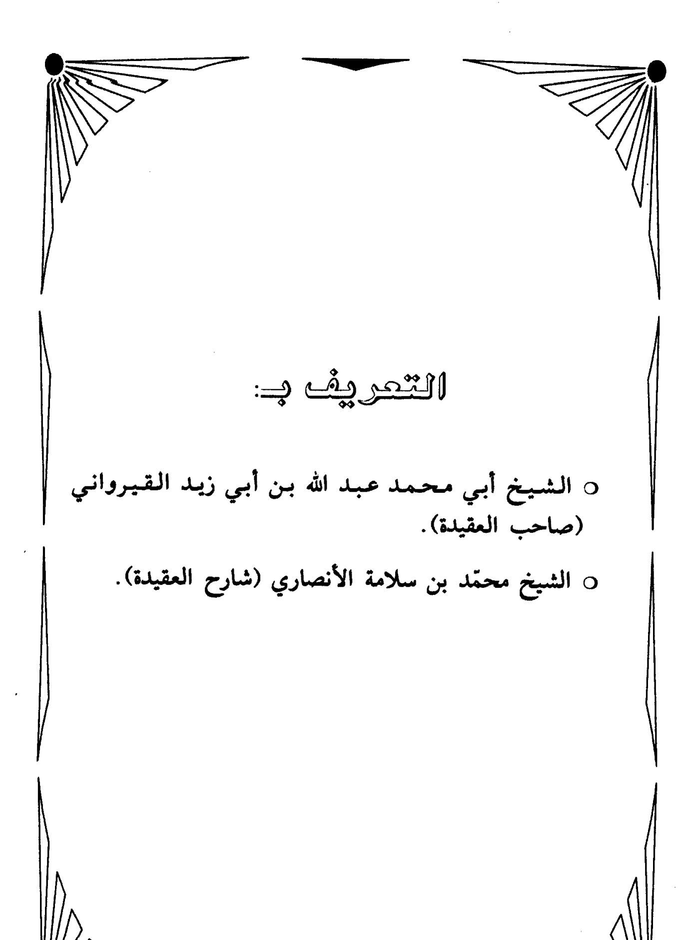
وإذا كان الواجب هكذا مع غير المسلمين، فالأولى على العلماء تثبيت قيم التحاور والجدال بالحسنى، في الإطار المذهبي الإسلامي، دون إقصاء بالتفسيق والتبديع. وأن يكون التمسّك بالقناعات المذهبية قائماً على الحجج والبراهين، التي يشترك في إدراكها جميع العقلاء.

ولنا في علماء العقيدة الإسلامية خير مثال على تطبيق دعوة القرآن الكريم المسلمين لمحاورة بعضهم البعض، ولمحاورة غير المسلمين من شتّى الملل والنحل. فقد فتحوا صدورهم وكتبهم لتتبّع جميع الآراء والمعتقدات، تدويناً ومناقشة وإبطالاً، وتأسيساً للمعتقد الصحيح؛ تماماً كما فعل القرآن الكريم مع العقائد المنتشرة في عصر نزوله؛ فقد سجّلها، وناقش أصحابها، وبيّن بطلانها، وأقام المعتقد الصحيح، محتجاً على كلّ ذلك بالحجج والبراهين التي لا يجد العقل عنها انفكاكاً.

وإنّما اهتمّ القرآن بالمعتقدات المخالفة له لأنّه يعترف بوجودها، وإن كان يعتبرها باطلة؛ لأنّ بطلانها لا يلغيها ولا يمنع تأثيرها في حياة الناس؛ وقد اقتضت واقعية الإسلام أن يتعامل مع الواقع، ويسعى إلى تصحيحه وتغييره. وعلى هديه سار علماء العقيدة الإسلامية.

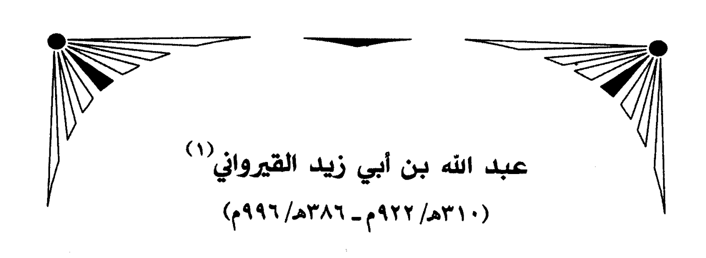
ولأجل كلّ ما تقدّم يأتي تحقيقنا لشرح الإمام محمّد بن سلامة الأنصاري التونسي لعقيدة الشيخ أبي محمّد عبد الله بن أبي زيد القيرواني؛ لاعتقادنا أنّ ما ذكرناه من دور العلماء في العصر الحاضر لا يمكن أن يبنى على فراغ، بل لا بدّ أن يتأسس على ما خلّفه علماؤنا الأبرار، ولاعتقادنا أنّ إحياء تراثهم وتفعيله ركون إلى مرجعية أثبتت القرون صلابتها. وإنّ أيّ نهضة للمسلمين في هذا العصر لا ترتكز على هذه المرجعية، سيصيبها الإعياء والتيه في مفارق الطرق، وستمنى في النهاية بالفشل.

والله الهادي إلى سواء السبيل.



التعريف بـ:

- الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني (صاحب العقيدة).
- الشيخ محمّد بن سلامة الأنصاري (شارح العقيدة).



عبد الله بن أبي زيد القيرواني(1)

(٣١٠هـ/ ٩٢٢م ـ ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م)

نسبه وولادته:

عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمٰن النفزاوي(2) أو النفزي(3)، القيرواني؛ أبو محمد. و«النفزي» نسبة إلى «نفزة» قرية في الشمال الغربي من القطر التونسي(4)، و«النفزاوي» نسبة إلى «نفزاوة» من بلاد الجريد في الجنوب الغربي. فهو من صميم الشعب الإفريقي البربري(5). وأجمع مؤرخوه أن مكان ولادته مدينة القيروان. وكانت ولادته على الأرجح سنة ٣١٠هـ ـ ٩٢٢م.

---

(١) ترجمته في: الأعلام: ٤/ ٢٣٠ ـ ٢٣١، أعلام الفكر الإسلامي: ٤٤ ـ ٤٩، تاريخ الأدب العربي: ٣/ ٢٨٦، تاريخ التراث العربي: ١/ ٣/ ١٦٦، تذكرة الحفاظ: ٣/ ٢١٢، تراجم المؤلفين التونسيين: ١/ ٤٤٣، ترتيب المدارك: ٦/ ٢١٥ ـ ٢٢٢، دائرة المعارف الإسلامية: ١/ ٨٠، الديباج: ١/ ٤٢٧ ـ ٤٣٠، شجرة النور: ٩٦، شذرات الذهب: ٣/ ١٣١، طبقات الفقهاء: ١٥٠، عنوان الأريب: ١/ ١٢٨، فهرست ابن خير: ٢٤٤، كشف الظنون: ٨٤١ ـ ٨٨٠، مرآة الجنان: ٢/ ٤٤١، معالم الإيمان: ٣/ ١٠٩ ـ ١٢١، معجم المؤلفين: ٦/ ٧٣، النجوم الزاهرة: ٤/ ٢٠٠، هدية العارفين: ١/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨، الوفيات: ٢٢١.

(٢) «النفزاوي» هو ما ذكره الدباغ (معالم الإيمان: ٣/ ١٠٩)، والشيخ محمد الفاضل بن عاشور (أعلام الفكر الإسلامي: ص٤٦)، والزركلي (الأعلام: ٤/ ٢٣٠)، وبروكلمان (تاريخ الأدب العربي: ٣/ ٢٨٦).

(٣) «النفزي» هو ما ذكره عياض (ترتيب المدارك: ٦/ ٢١٥)، وابن فرحون (الديباج: ص١٣٦)، ومخلوف (شجرة النور: ص٩٦)، والقلشاني في شرحه.

(٤) ذهب محمد بن شنب إلى أنه من «نفزة» من أعمال الأندلس (دائرة المعارف الإسلامية: ١/ ٨٠)، وهو بعيد.

(٥) أعلام الفكر الإسلامي، لمحمد الفاضل بن عاشور: ص٤٦.

الإطار السياسي والديني:

ولد ابن أبي زيد بعد أربعة عشر سنة من قيام الدولة العبيدية الشيعية سنة ٢٩٧هـ-٩٠٩م، التي أطاحت بالدولة الأغلبية السنية، وحلت محلها في الهيمنة على بلدان الشمال الإفريقي. وما بين ولادة ابن أبي زيد سنة ٣١٠هـ-٩٢٢م ووفاته سنة ٣٨٦هـ-٩٩٦م، يكون قد عاصر خلفاء الدولة العبيديّة حتى سنة تغيير عاصمتهم ومركز حكمهم من المهدية إلى القاهرة سنة ٣٦٢هـ-٩٧٢م؛ ثم عاصر الأمراء الصنهاجيين من بني زيري الذين خلّفهم العبيديون على ملك إفريقية نيابة عنهم.

ولا شكّ أنّ الاختلاف الجوهري القائم - في مجال العقائد - بين الشيعة الإسماعيلية من جهة، وأهل السنة الذين يتزعمهم فقهاء المالكية والخوارج من جهة أخرى، كان سبباً كافياً لأن تتحول منطقة الشمال الأفريقي مسرحاً للصرّاعات الدامية. فكان الشيعة العبيدية في هذا الصراع يمثلون الطرف المهاجم الذي يسعى إلى بسط سيطرته ونشر معتقده وحمل الطرف المقابل على التحول عن مبادئه وعقائده، تارة بالقوة والإرهاب والقتل، وتارة بالمال والمناصب؛ وكان أهل السنة وكذلك الخوارج يمثلون الطرف المقاوم، وإن اختلفت مظاهر المقاومة بين هذين الفريقين.

مذاهب ومعتقدات أخرى في عهد ابن أبي زيد القيرواني:

لم يكن المذهب العبيدي هو وحده الذي عاصره ابن أبي زيد، واطلع على معتقداته وآرائه، وشهد صراع أهل السنّة العلمي والقتالي معه؛ بل كانت الساحة الإفريقية في المجال العقائدي والفكري تتنازعها تيارات مختلفة، منذ عهد الأمراء الموالين للدولة الأموية إلى نهاية عهد الأغالبة الموالين للدولة العباسية. فقد كان للمذهبين الإرجائي والاعتزالي حضور بالقيروان، توفّر لهما بتشجيع الأمويين للمرجئة، والعباسيين من بعدهم ممثّلين في الأغالبة للمعتزلة. لكن وإن تمّ القضاء على الإرجاء كمذهب قائم في عهد الأغالبة[1]، وتمّ

---

(١) انظر أسباب القضاء على مذهب المرجئة من قبل العباسيين وممثليهم الأغالبة: الصراع المذهبي بإفريقية: ١٥٩.

انحسار الاعتزال بعد سقوط الدولة الأغلبية بسبب تحوّلهم وانتمائهم إلى المذهب العبيدي[1]؛ إلّا أنّ آراء المذهبين ظلّت حاضرة ومتناقلة، إمّا عن طريق بقاياهم، أو عن طريق علماء أهل السنة الممثلين بعلماء المذهب المالكي الذين كانوا يعرضون لآراء مخالفيهم في سياق الردّ عليهم ونقض معتقداتهم، بحيث تمكّن ابن أبي زيد من الاطلاع عليها.

ومع المذاهب العبيدي الشيعي، والإرجائي، والاعتزالي، فقد كان المذهب الخارجي، الصفري والأباضي، حاضراً أيضاً في إفريقية، وقد تمكّن أصحابه من إقامة دولة وبسط نفوذهم على مناطق شاسعة فيها بما في ذلك مدينة القيروان في بعض الفترات، مما جعل لآرائهم رواجاً وانتشاراً[2]، وقد قام بين الخوارج وأهل السنة تحالف عسكري لمحاربة العبيديين.

وإنّ اطلاع ابن أبي زيد القيرواني على مختلف عقائد هذه الفرق المخالفة لأهل السنة، سنجد له صداه في المقدّمة العقائدية للرسالة الفقهية التي ألّفها، على ما سنبيّنه عند دراستنا لهذه العقيدة.

نشأة ابن أبي زيد وطلبه العلم:

في هذا الإطار السياسي المتمخض عن الصراع المذهبي بين الفرق الدينية وخاصة بين أهل السنة الذين يمثلهم المالكية الذين يمثلون غالبية مسلمي الشمال الإفريقي، وبين التيارات المتعددة التي واجهوها وعارضوا مبادئها ومعتقداتها، كالمعتزلة في عهد الدولة الأغلبية، والخوارج الصفرية والإباضية، والشيعة وخاصة الإسماعيلية؛ نشأ ابن أبي زيد القيرواني وتلقى تعليمه الديني على خوف من اضطهاد الدولة العبيدية المتربّصين بكل من ينشر من المالكية علوم أهل السنة، وبكلّ من يتلقّى هذه الدروس. وقد استطاع هذا الطالب أن يشقّ طريقه في طلب العلم، وأن يصل إلى الأخذ عن أبرز من

---

(١) انظر أسباب انتماء المعتزلة في القيروان للمذهب العبيدي: الصراع المذهبي بإفريقية: ١٠٦ ـ ١٠٩.

(٢) انظر: المدارس الكلامية بإفريقية: ٨١ ـ ٨٣؛ الصراع المذهبي بإفريقية: ١١٠ ـ ١١٧.

يمثل المذهب المالكي بالقيروان، رغم الحصار المضروب عليهم.

وأما العلماء الذين أخذ عنهم ابن أبي زيد القيرواني بالقيروان، فمنهم:

- أبو بكر محمد بن محمد بن وشاح، المعروف بابن اللبّاد القيرواني. توفي سنة ٣٣٣هـ[١].

- أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني. توفي سنة ٣٣٣هـ[٢].

- أبو الفضل العباس بن عيسى الممسي. استشهد سنة ٣٣٣هـ بالمهدية في قتال العبيديين[٣].

- أبو سليمان ربيع بن عطاء الله بن نوفل القطان. استشهد سنة ٣٣٣هـ بالمهدية في جهاد العبيديين[٤].

- أبو عبد الله محمد بن مسرور العسال. توفي سنة ٣٤٦هـ[٥].

- أبو العباس عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن إسحاق الإبياني. توفي سنة ٣٥٢هـ[٦].

- أبو عثمان سعدون بن أحمد الخولاني. توفي بالمنستير سنة ٣٢٤هـ.

- أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد السبائي. توفي سنة ٣٥٦هـ[٧].

- أبو ميمونة درّاس بن إسماعيل الجروي المغربي الفاسي. توفي سنة ٣٥٧هـ[٨].

---

(١) ترتيب المدارك: ٥/ ٢٨٦ - ٢٩٥؛ شجرة النور الزكية: ٨٤؛ تراجم المؤلفين التونسيين: ٤/ ١٩٩.

(٢) ترتيب المدارك: ٥/ ٣٢٣ - ٣٢٦؛ شجرة النور: ٨٣ - ٨٤.

(٣) ترتيب المدارك: ٥/ ٢٩٧ - ٣١٠؛ شجرة النور: ٨٣؛ تراجم المؤلفين التونسيين: ٤/ ٣٨١.

(٤) ترتيب المدارك: ٥/ ٣١٠ - ٣٢١؛ شجرة النور: ٨٣؛ تراجم المؤلفين التونسيين: ٤/ ٩٢.

(٥) شجرة النور: ٨٤ - ٨٥.

(٦) ترتيب المدارك: ٦/ ١٠ - ١٢؛ شجرة النور: ٨٥؛ تراجم المؤلفين التونسيين: ١/ ٤٤.

(٧) ترتيب المدارك: ٦/ ٥٤ - ٧٦؛ شجرة النور: ٩٤.

(٨) ترتيب المدارك: ٤/ ٨١ - ٨٤؛ شجرة النور: ١٠٣.

ـ أبو محمد عبد الله الأصيلي الأندلسي. توفي سنة ٣٩٢هـ[١]. وغيرهم.

شيوخه في رحلته للحجّ:

خرج ابن أبي زيد حاجاً، وفي رحلته التقى جمعاً من العلماء، فسمع من أبي سعيد بن الأعرابي، وإبراهيم بن محمد بن المنذر، وأبي علي بن أبي هلال، وأحمد بن إبراهيم بن حماد القاضي، والحسن بن بدر، ومحمد بن الفتح، والحسن بن نصر السوسي، وعثمان بن سعيد الغرابلي، وحبيب بن أبي حبيب الجزري. وغيرهم[٢].

إجازاته وأسانيده:

لم يكتف ابن أبي زيد القيرواني بما تلقاه عن العلماء مباشرة؛ بل كان حريصاً على أن يحصل على الإجازات والأسانيد العلمية في الأحاديث والروايات والآثار وأقوال الفقهاء، وذلك من طرف مشاهير علماء عصره الذين يمثلون حلقات السند العلمي في وقته، في مراكز العلم الأخرى، ولم يمكنه السفر إليهم للأخذ عنهم؛ فكان أن وجّه إلى أئمة المذهب ببغداد ومصر يطلب إجازته بمروياتهم؛ فأجازه بكر بن العلاء القشيري البصري، وأبي بكر الأبهري البغدادي إمام المالكية ببغداد، وأبي بكر بن الجهم المعروف بابن الوراق المروزي البغدادي، وأبي إسحاق بن شعبان المعروف بابن القرطي المصري، ذكر ذلك هو في مقدمة كتابه «النوادر والزيادات»[٣].

وقد أفاده حرصه على الحصول على الأسانيد العلمية أن امتاز بعلوّ أسانيده، فهو يروي عن سحنون بواسطة، وعن ابن القاسم بواسطتين، وعن مالك بثلاث[٤].

منزلته العلمية:

تجدر الإشارة هنا إلى أن إسناد العلماء الإجازات لمن يطلبها تعتبر تزكية

---

(١) انظر: ترتيب المدارك: ٧/ ١٣٦.
(٢) انظر: ترتيب المدارك: ٦/ ٢١٧؛ شجرة النور: ٩٦.
(٣) مخطوط رقم ٥٧٢٨، ورقة ٢.
(٤) الفواكه الدواني: ١/ ٩.

له وثقة منهم بكفاءته العلمية وأهليته لما أجازوه فيه؛ وهذا بناء على سبق معرفتهم بمكانته العلمية، إمّا بمعرفتهم الشخصية له، أو باشتهاره ووصول خبره إليهم. وإنّ إسناد هؤلاء الأئمة المشهورين إجازاتهم لابن أبي زيد القيرواني لخير دليل على شهادتهم له بالنبوغ والعالمية، وعلى شهرته وبعد صيته في الآفاق.

وبالفعل فقد بلغ ابن أبي زيد القيرواني بعد تحصيله العلم منزلة رفيعة بين علماء عصره، وشهد له بذلك شيوخه قبل أن يشهد له تلاميذه والمؤرخون له.

فقد بلغ من ثقة علماء عصره بعلمه ومعرفتهم بمنزلته، أن مال بعض شيوخه إلى تقليده في آرائه، قال حافظ المغرب أبو الحسن علي بن عبد الله القطان: ما قلّدت أبا محمد بن أبي زيد، حتى رأيت السبائي يقلّده[1]، والسبائي هذا أحد شيوخه. وبعد أن كان هو الطالب لإجازة العلماء ببغداد، أصبح هو المطلوب من هؤلاء العلماء أن يجيزهم بكتبه، لما سمعوا عنها وعرفوا قيمتها، فقد أرسل أبو عبد الله محمد بن مجاهد رسالة إلى الشيخ ابن أبي زيد يشيد له فيها بكتابيه «المختصر» و«النوادر» ويشكره عليهما، ويطلب منه أن يتفضّل بإنفاذهما بعد عرضهما بحضرته، وإجازتهما له ولغيره من علماء بغداد، فجاوبه الشيخ بأنّه سوف يوجّه إليه وللشيخ الأبهري إمام المالكية ببغداد بالكتابين المذكورين[2].

كما أظهر علماء بغداد تقديرهم لمكانة الشيخ العلمية واهتمامهم بكتبه وبما بذله فيها من جهد لخدمة المذهب المالكي والعقيدة السنية، وذلك بما قام به الأبهري من تتبع ألفاظ «الرسالة» ومعانيها، فرفعها إلى النبي ﷺ أو إلى أصحابه ﷺ، وسمّى هذا العمل بـ«مسلك الجلالة في مسند الرسالة»[3]؛ وبما قام به القاضي عبد الوهاب البغدادي من وضع شرح عليها وعلى «مختصر

---

(١) ترتيب المدارك: ٦/٢١٦. (٢) ترتيب المدارك: ٦/١٩٧.
(٣) انظر: «الرسالة الفقهية مع غرر المقالة»، محمد أبو الجفان: ٤٣.

المدونة»، وسمّى شرح المختصر «الممهّد في شرح مختصر أبي محمّد»[1].

وقد أفاض نظراؤه المعاصرون له من العلماء، وكذلك طلبته، في ذكر قيمته العلمية؛ قال عنه أبو الحسن القابسي: «إمام مؤيد موثوق به في درايته وروايته»[2]، وذكره أبو بكر بن الطيب الباقلاني في كتابه، فعظّم قدره وأضفى عليه لقب «الشيخ»[3]. ولخص القاضي عياض شهادة العلماء فيه بقوله: «كان أبو محمد إمام المالكية في وقته، وقدوتهم، وجامع مذهب مالك، وشارح أقواله. وكان واسع العلم، كثير الحفظ والرواية، كتبه تشهد له بذلك، فصيح القلم،... وحازَ رئاسة الدين والدنيا، وإليه كانت الرحلة من الأقطار. وهو الذي لخّص المذهب وضمّ نشره وذبّ عنه»[4]. وللجهد الكبير الذي بذله في خدمة المذهب المالكي، والأثر الذي أحدثه فيه أطلق عليه أهل المذهب تسميتان: «مالك الصغير»[5] و«قطب المذهب»[6].

ويلخص هذه المنزلة وصف محمد مخلوف له بـ«الفقيه، النظار، المتكلّم، الحافظ، الحجّة، الأديب»[7].

الأديب والشاعر:

أضاف ابن أبي زيد القيرواني إلى نبوغ في العلوم الشرعية براعته في مجال الأدب، فقد كان فصيح اللسان له قدرة على البيان، في المجالين الشفهي والكتابي. كما كان ينظم الشعر، وقد وصفه مترجموه بأنّه شاعر مجيد متفنّن[8]، وأنّه ذا عذوبة ألفاظ، وملاحة إيراد، وجزالة معان[9]. ومن شعره في رثاء شيخه أبي الفضل العباس الممسي، وكان قد استشهد في معركة المهدية ضدّ العبيديين:

---

(١) ترتيب المدارك: ٧/ ٢٢٢.
(٢) ترتيب المدارك: ٦/ ٢١٦.
(٣) ترتيب المدارك: ٦/ ٢١٦.
(٤) ترتيب المدارك: ٦/ ٢١٦.
(٥) طبقات الفقهاء للشيرازي: ١٦٠.
(٦) معالم الإيمان: ٣/ ١١٠.
(٧) شجرة النور الزكية: ٩٦.
(٨) ترتيب المدارك: ٦/ ٢١٥؛ تراجم المؤلفين التونسيين: ٢/ ٤٤٣.
(٩) معالم الإيمان: ٣/ ١١٠.

يا ناصراً للدين قمت مسارعاً — وبذلت نفسك مخلصاً ومريدا
وذببت عن دين الإله مجاهداً — وابتعت بيعاً رابحاً محمودا
عهدي به بين الأسنة لم يكن — لله عند لقا العدوّ كمودا
كانت حياتك طاعة وعبادة — فسعدت في المحيا ومت سعيدا
يا قرّة للناظرين وعصمة — للمسلمين وعدّة وعديدا
يا فاتق الرتق الخفي بعلمه — ومبيناً للمشكلات مفيدا
جمعت كلّ فضيلة ونقيبة — وحويت علماً طارفاً وتليدا
وبرعت بين أصوله وفروعه — فقهرت ما قد كان منه عتيدا
يا أيّها المحسود في أخلاقه — وفعاله لا لمت فيك حسودا
أفديك من ورع عليم فاضل — لك في الورى ما إن رأيت عنيدا
يبكي إذا غسق الدجى بمدامع — قد خددت في خدّه أخدودا
إن فاتني نظر إليك فلم يفت — ذكر يحلّ من السلو عقودا
ومدامع تشفي وتطفي بالحشا — ناراً إذا طفيت تزيد وقودا[1]

وقال في رثاء شيخه أبي بكر بن اللباد، وكان قد امتحن بالسجن، ثم بالمنع من الخروج من بيته، ومن التدريس والاجتماع بأهل العلم والطلبة:

يا من لمستعذب في ليله حزناً — مستوطن من بقايا دائه وطنا
يا عين وابكي لمن في فقده فقدت — جوامع العلم والخيرات إذ دفنا
لهفي على ميت ماتت به سبل — الخيرات قد كان أحيى الدين والسننا
نفسي تقيك أبا بكر ولو قبلت — فدتك من كل مكروه إليك دنا
إنّا فقدناك فقد الأرض وابلها — فنحن بعدك نلقى الضيم والفتنا
ونحن بعد أيتام بغير أب — إذ غيب الترب عنا وجهك الحسنا

موقفه من العبيديين:

كانت مواقف علماء القيروان من الدعوة العبيدية قد اتخذت أشكالاً

---
(١) ترتيب المدارك: ٥/ ٣٠٨.

أربعة: المقاطعة وعدم المخالطة لرجال الدولة الجديدة ولكل من يتصل بهم؛ وتكفيرهم والمجاهرة بمعاداتهم؛ والمناظرة والمواجهة العلمية؛ وإعلان الجهاد ووجوب مقاتلتهم.

ولم يشذّ موقف ابن أبي زيد من الدعوة العبيدية الشيعية، عن موقف مشائخه وعلماء بلده، في المسارت التي اتخذوها لمواجهتها؛ والأخبار المنقولة عنه تدلّنا أنّه كان ضالعاً فيها؛ فقد جعل من داره مركزاً لاجتماع علماء المالكية لتدارس أمر العبيديين وطرق مجابهتهم، واختيار المناظرين لهم من بينهم ممّن يقدر على إفحامهم، من ذلك ما روي أنّ والي العبيديين على القيروان شدّد في طلب أهل العلم ليدخلهم في الدعوة، فطلب أبا سعيد بن أخي هشام، وأبا محمد بن التبان، وأبا القاسم بن شبلون، وأبا محمد بن أبي زيد، وأبا الحسن القابسي، فاجتمعوا بدار أبي محمد بن أبي زيد، واتفقوا على السير إليه، فقال لهم ابن التبان: أنا أمضي إليه وأكفيكم مؤونة الاجتماع به، ويكون كلّ واحد في داره، وأبيع روحي من الله دونكم؛ لأنكم إن أتى عليكم وقع على الإسلام وهن. ولمّا دخل على الوالي قال له: جئتك من قوم إيمانهم مثل الجبال، أقلّهم يقيناً أنا[1].

وقد شارك في جهاد العبيديين في الحملة التي قادها ضدّهم شيوخه فقهاء القيروان بالمهدية سنة ٣٣٣هـ؛ وكان عمره في هذه الواقعة ثلاثة وعشرين سنة. ولا شكّ فإنّ مثل نفس ابن أبي زيد الطامحة للعلى بخدمة دينها، يكون صاحبها قد وظّف ماله أيضاً في تجهيز الجيش؛ إذا احتملنا أنّه بدأ حياته موسراً. وكما قدّم نفسه وماله في الجهاد في سبيل الله تعالى، فقد وظّف كذلك لسانه وقلمه لرثاء شيوخه المستشهدين والإشادة بجهادهم في ميادين العلم والقتال[2].

---

(١) معالم الإيمان: ٣/ ٩١، ترتيب المدارك: ٦/ ٢٥٢.

(٢) انظر رثاءه لشيخه أبي الفضل الممسي: (ترتيب المدارك: ٥/ ٣٠٨)، وانظر رثاءه لشيخه ابن اللباد: (ترتيب المدارك: ٥/ ٢٩٤).

جهوده العلمية:

تظهر جهود ابن أبي زيد العلمية من خلال ما تخرّج على يديه من العلماء المبرزين، وما صدر عنه من التآليف.

وبنظرة تقويمية لجهوده العلمية، من خلال مؤلفاته الآتي ذكرها، وإشادات العلماء بها، يبرز ابن أبي زيد الشخصية العلمية المفصلية في تاريخ المذهب المالكي؛ سمحت لمن جاء بعد طبقته من علماء المذهب أن يرتكزوا عليها في دراساتهم الفقهية. فقد انصبّت جهوده على مسارات:

الأول: جمع واستقصاء ما روي عن الإمام مالك وعن تلاميذه وتلاميذه من آراء وأقوال. ولأجل ذلك سعى إلى أن يربط صلاته مع مراكز المذهب المالكي ـ الأندلس ومصر وبغداد ـ ليستفيد من علمائها ما ليس عند القيروانيين من المادة الفقهية المروية عن إمام المذهب، وتلاميذه، وتلاميذ تلاميذه. فكان أن تحقق له ذلك بما جاءته من إجازات أقطاب المذهب، وتجمعت لديه ما لم يتجمّع لغيره من علماء المالكية في عصره وقبل عصره، ممّا كان موزّعاً بين الأقطار التي انتشر فيها أصحاب الإمام مالك.

وقد مكّنه هذا التجميع من إقامة منهج هامّ يقوم على ما يلي:

* تمييز أقوال إمام المذهب وحصر الروايات عنه؛ وضبط مواطن الاتفاق والاختلاف بينه وبين أصحابه؛ وتحديد ما انفرد به أصحابه وتلاميذهم ممّا لم يكن له فيه قول.

* دراسة الخلاف فيما فيه خلاف بين الروايات والأقوال، وذلك بتحقيق مناط الخلاف حيث كانت الصورة واحدة واختلفت فيها الأنظار؛ أو بتحقيق الصور المناسبة لها لبيان أوجه الفرق بينها، حيث كان الخلاف في الصور.

* وضع كلّ حكم فقهي، برواياته المتعدّدة وأقواله المختلفة، ضمن معايير الأركان والشروط التي تتحقق بها ماهية كلّ موضوع من مواضيع الأحكام الفقهية[1].

---

(١) انظر: أعلام الفكر الإسلامي لمحمد الفاضل بن عاشور: ص٤٧.

ويظهر هذا الجهد الذي قام به ابن أبي زيد في كتابه الموسوعي «النوادر والزيادات» الذي سيأتي الحديث عنه.

وغني عن البيان ما وفّره هذا الكتاب ـ بالمنهج الذي أقامه عليه مؤلفه ـ لعلماء المذهب في جميع مراكزه، في عهد ابن أبي زيد وبعده، من المادة الفقهية التي أغنتهم عن السفر لتلقّي مدونات المذهب ومصنفاته المتفرّقة بين هذه المراكز، إذ كان كل مركز قبل ابن أبي زيد يختص بروايات وأقوال، قد تختلف أو تتفق مع المراكز الأخرى. كما وفّر لهم فرصة المقارنة بين الاتفاقات بإقامة القاعدة النظرية الصلبة التي ينبني عليها المذهب، لحفظ وحدته؛ والمقارنة بين الاختلافات بإقامة قواعد الترجيح بينها من الناحية النظرية العلمية أو الخصوصية العرفية.

ولعلّه من أجل هذا العمل الضخم الذي أنجزه ابن أبي زيد للمذهب المالكي، عدّ هو وطبقته آخر المتقدمين وأوّل المتأخرين[1]، فكان تاريخ هذه الطبقة فاصلاً بين التاريخين للفقه، كما كان جهد ابن أبي زيد وما قدّمه للمذهب فاصلاً بين مرحلتين، نقل الدراسات الفقهية داخل المذهب إلى مرحلة جديدة.

الثاني: تلخيص المذهب وتبسيطه، بتقديم مادّة فقهية مركّزة، مقتصراً على رؤوس المسائل وأوائلها، دون التعرّض للتفريعات، ولا للخلافات داخل المذهب، حيث سلك مسلك الترجيح والاختيار بينها، مع سهولة العبارة وسلاسة المعاني. ويتمثّل هذا في كتاب «الرسالة». وهدفه منها تمكين الأطفال والمبتدئين وعامّة الناس من كتاب ميسّر، يكون عمدتهم في معرفة أصول العقيدة الإسلامية، وأحكام الشريعة، وآدابها. ولكنّه أصبح فيما بعد عمدة العلماء والمتفقهين في مراجعة المسائل والدراسات الفقهية في المذهب المالكي، في جميع معاهد العلم بالبلاد الإسلامية بلا استثناء. فابتدأ رواجها من عهد مؤلفها، واستمرّ تعاقب الشروح عليها من عصره، حيث كان أوّل من

(١) الفكر السامي: ٢/ ١١٥.

اهتم بها الإمام الأبهري بإسنادها وإرجاع ألفاظها إلى السنّة النبوية وآثار الصحابة؛ ثم كان أوّل شارح لها القاضي عبد الوهاب البغدادي، واستمرّت العناية بها من قبل العلماء بالشرح والبيان والتعليق إلى عصرنا الحاضر.

والحق فإنّ إنجاز مثل هذا المختصر، الذي لاقى الإعجاب والعناية من أقطاب المذهب في عصر مؤلفه، شكلاً ومضموناً، لا يقدر عليه إلا من غاص في أعماق المذهب، وأحاط بجميع أصوله وفروعه، وعرف كلياته وجزئياته، وفهم مداركه واستدلالاته، وكان قادراً على التصرّف في مسائله وتنزيلها على صورها.

ومن هنا تظهر عبقرية ابن أبي زيد في الدراسات الفقهية، بظهور قدرته على الانتقال من الدراسات المطوّلة التي تدل على موسوعية صاحبها وحفظه؛ إلى الدراسات المختصرة التي تدل على قدرة صاحبها على التمييز بين الأصول والفروع، وترتيب المسائل بحسب قوّتها؛ وهو أمر لا يحصل لصاحبه إلّا بتوفيق من الله تعالى.

وقد شهد له علماء المذهب بدوره في حماية المذهب المالكي وحفظه من التبعثر وتشتت الأقوال، التي تؤول عادة بأي مذهب، هذه صورته في تعدد الأقوال والآراء، إلى الانقسام وتولد المذاهب عنه؛ لذلك عدّوه ضمن علماء ستة كان لهم فضل كبير على المذهب وتماسكه وقوة حجته، فقالوا: لولا الشيخان، والمحمدان، والقاضيان، لذهب المذهب؛ فالشيخان: أبو محمد بن أبي زيد وأبو بكر الأبهري، والمحمدان: محمد بن سحنون ومحمد بن المواز، والقاضيان: أبو الحسن بن القصار وأبو محمد عبد الوهاب البغدادي[1].

الثالث: الاحتجاج لآراء مذهبه العقدي السنّي، والفقهي المالكي. وقد اشتهر بردوده على أهل الأهواء والبدع، من منتسبي فرق المعتزلة والخوارج والشيعة والصوفية المنحرفين. كما اشتهر بعمق مناقشاته لهم، وإقامة الحجة

(١) معالم الإيمان: ٣/ ١١٠.

عليهم؛ وكتبه المعنونة بما يدلّ على ذلك شاهدة على ما وصفه به القاضي عياض بأنّه كان ذابّاً عن مذهب مالك، قائماً بالحجة عليه، بصيراً بالردّ على أهل الأهواء[1]. ولو عثر على كتبه العقدية ـ الآتي ذكرها ـ لأعطت صورة جلية على مدى مساهمته في تدعيم المدرسة السنّية في المجال العقدي، مثلما أعطت كتبه الفقهية التي وصلت إلينا «النوادر والزيادات» و«الرسالة» صورة واضحة على مساهمته في تدعيم المذهب المالكي. على أن المقدمة العقدية التي مهّد بها لـ«الرسالة» الفقهية تعتبر عملاً ذكياً، أوضح فيها أصول العقيدة السنّية وخصائصها بإيجاز محكم، وأسلوب رائع[2].

تلاميذه[3]:

لقد بلغ ابن أبي زيد من المنزلة العلمية حتى انتهت إليه رئاسة المذهب السنّي عامة والمذهب المالكي خاصة، وأصبح وجهة لطلبة العلم من كل الأقطار، فكثر بذلك الآخذون عنه. وقد نبغ تلاميذه، ما جعلهم يتبوّؤون سدّة العلم بعده. ومنهم:

ـ من القيروان: أبو بكر بن عبد الرحمٰن الخولاني (ت٤٣٢هـ)، وأبو سعيد خلف بن أبي القاسم الأزدي البرادعي (ت بعد ٤٣٠هـ)، وأبو القاسم عبد الرحمٰن بن محمد اللبيدي (ت٤٤٠هـ)، وأبو عبد الله الحسين بن أبي العباس الأجدابي (ت٤٣٢هـ)، وأبو عبد الله محمد بن العباس الخواص (ت٤٢٦هـ)، وأبو محمد مكّي بن أبي طالب القيسي المقرئ (ت٤٣٧هـ)، وأبو زكرياء يحيى بن علي الشقراطسي القرشي التوزري (ت حوالي ٤٢٩هـ)، وأبو بكر عتيق بن خلف التجيبي (ت حوالي ٤٢٢هـ)، وأبو عمر أحمد بن محمد الإشبيلي المهدوي (ت٤١٠هـ).

---

(١) ترتيب المدارك: ٦/ ٢١٦.

(٢) انظر: المدارس الكلامية بإفريقية، عبد المجيد بن حمده: ص٤٥.

(٣) انظر لمعرفة جميع تلاميذه المذكورين في كتب التراجم: معالم الإيمان ٣/ ١٤٦، ترتيب المدارك ٦/ ٢١٧، الديباج ١٣٧، شجرة النور ٩٦، تراجم المؤلفين التونسيين ١/ ٢٢٤.

ـ من المغرب: أبو عبد الرحمٰن عبد الرحيم بن أحمد بن العجوز الكتامي السبتي الفاسي (ت٤١٣هـ)، وأبو علي السجلماسي، وأبو محمد بن غالب (ت٤٣٤هـ)، وخلف بن ناصر، وغيرهم.

ـ من الجزائر: عبد الله بن يونس الوهراني الطبيب.

ـ من الأندلس: أبو الوليد عبد الله بن محمد الأزدي المعروف بابن الفرضي (ت٤٦٣هـ)، وأبو بكر محمد بن موهب المقبري التميمي القرطبي (ت٤٠٦هـ)، وأبو المطرف عبد الرحمٰن بن هارون الأنصاري المعروف بالقنازعي القرطبي (ت٤١٣هـ)، وأبو عبد الله محمد بن يحيى بن الحذاء التميمي (ت٤١٠هـ)، وغيرهم.

وتتلمذ عليه جماعة من الصقلّيين والليبيين.

مؤلفاته:

وصف مترجموه تآليفه بأنّها مفيدة، بديعة، عالية؛ وأنّها تشهد له بأنه كان واسع العلم، كثير الحفظ والرواية، وأنّه من الطبقة العالية في المؤلفين[1].

تتوزع مؤلفاته حسب المحاور التالية:

في العقيدة:

* المقدمة العقائدية التي افتتح بها كتاب «الرسالة» الفقهية.
* المقدمة العقائدية التي افتتح بها «كتاب الجامع»[2] من مختصر المدونة.
* كتاب الثقة بالله والتوكل على الله سبحانه.
* كتاب المعرفة واليقين.
* كتاب المضمون من الرزق.

---

(١) شجرة النور الزكية: ٩٦؛ الفكر السامي: ٢/١١٦.

(٢) مطبوع بدار الغرب الإسلامي ببيروت، سنة ١٩٩٠، تحقيق عبد المجيد تركي.

* كتاب البيان في إعجاز القرآن.

* كتاب الردّ على ابن مسرّة المارق. ذكره أبو علي عمر بن محمد السكوني قال: وقد صنّف أبو محمد بن أبي زيد ـ رحمه الله تعالى ـ كتاباً في الردّ عليه، منطوياً على التقاسيم الأصولية والقوانين الحقيقية البرهانية، يدلّ على تبحره رحمه الله في علم أصول الدين، وبهذا شهد له القاضي أبو بكر الباقلاني ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه المصنّف في كرامات الأولياء[1].

* رسالة في الردّ على القدرية ومناقضة رسالة علي بن أحمد البغدادي المعتزلي المالكي، نزيل مصر. ويبدو أنه انتسب إلى مالك لكي يروّج دعوته في الطبقات الشعبية، وكتب إلى فقهاء القيروان رسالة يدعوهم إلى الاعتزال والقول بالقدر وخلق القرآن، وغير ذلك من مذهب المعتزلة. وجاوبه ابن أبي زيد برسالته هذه، ظهر فيها علمه وقوّته في الكلام بالردّ على أهل الأهواء. ونفى عن مالك وأصحابه جميع ما نسب إليهم، وجعل يحتجّ على نقض قوله في القدر من كلام مالك البديع في رسالته في القدر إلى ابن وهب. والرسالة نقل منها الحافظ ابن عساكر في كتابه «تبيين كذب المفتري» فقرات في موضعين[2].

* كتاب الاستظهار في الرد على البكرية[3].

* كتاب كشف التلبيس في الردّ على البكرية. والبكرية نسبة إلى أبي القاسم عبد الرحمٰن بن محمد البكري الصقلّي، نزيل القيروان. وكتابه الذي ردّ عليه ابن أبي زيد القيرواني هو «كرامات الأولياء والمطيعين من الصحابة والتابعين». وقد ردّ عليه ابن أبي زيد في كتابيه كرامات الأولياء من قلب

---

(١) لحن العوام فيما يتعلق بعلم الكلام، لأبي علي عمر بن محمد السكوني: ص٢٠، تحقيق سعد غراب ونشر بمجلة حوليات الجامعة التونسية عدد ١٢ سنة ١٩٧٥، ص: ٢١٠.

(٢) تبيين كذب المفتري: ص١٠٠ وص٢٩٨.

(٣) ورد عنوان الكتاب في ترتيب المدارك وغيره (الفكرية) وهو تحريف لا معنى له. تراجم المؤلفين التونسيين: ٢/ ٤٤٤.

الأعيان ورؤية الله في اليقظة. وقد شنّع عليه الصوفية وكثير من أهل الحديث، وأشاعوا بأنه نفى الكرامات، وهو لم يقل بذلك. وردّ عليه بعض العلماء من الأندلس والمشرق، كأبي الحسن بن جهضم الهمداني، وأبي عبد الله بن شقّ الليل، وأبي عمر الطلمنكي، وأبي بكر الباقلاني، وغيرهم. قال القاضي عياض: «وكان أرشدهم في ذلك وأعرفهم بغرضه ومقداره، إمام وقته القاضي أبو بكر بن الطيب الباقلاني، فإنه بيّن مقصوده»[1]، فقد جاء في كلام الباقلاني قوله: «وشيخنا أبو محمد، مع اتساع علمه في الفروع واطلاعه على شيء من الأصول، لا ينكر كرامات الأولياء، ويذهب إلى ما تذهب إليه المعتزلة، وإنما أراد بقوله...» وأخذ يتأوّل قوله ويخرجه مخارج تليق به[2]. قال الطلمنكي مبيّناً سبب إنكار ابن أبي زيد الكرامات: «كانت من أبي محمد بادرة لها أسباب، أوجبها التنافر الذي يقع بين العلماء، صحّ رجوعه عنها، ولم يرد في ظاهر أمره إلّا تحصين النبوّة، فأدّى الأمر إلى أن جهل الكرامات باعتلاله لها، وإلّا فهو أجلّ من أن ينكرها إنكار إبطال. وإنّما أنكرها فيما بلغنا عن طبقات عندهم محتالين لأكل أموال الناس، مخادعين للجهال»[3]. قال الدباغ: وإنما كان يبلغه عن ابن الصقلّي أشياء، الله أعلم بها وبصحتها، كأنها عنده من جنس المحالات، فكان ينكر ذلك[4].

* إثبات كرامات الأولياء.
* رسالة في أصول التوحيد.
* كتاب الدعاء.

في الفقه وأصوله:

* الرسالة الفقهية[5]. بما في ذلك المقدمة العقدية التي سبق ذكرها.

---

(١) ترتيب المدارك: ٦/ ٢١٩، وانظر ما جاء من كلام الباقلاني في ذلك فيما نقله الونشريسي في المعيار المعرب: ٢/ ٣٩٢، ٤٤٢ ـ ١١/ ٢٤٩.
(٢) المعيار المعرب: ٢/ ٤٤٢.
(٣) ترتيب المدارك: ٦/ ٢١٩.
(٤) معالم الدباغ: ٣/ ١١٣.
(٥) مطبوع عدة طبعات.

وسبب تأليفها أنّ الشيخ الصالح الفقيه المؤدب أبا محفوظ مُحْرَز بن خلف الصدفي التونسي طلب منه أن يكتب له جملة مختصرة في العقيدة والفقه والآداب، ليعلّمها للأطفال كما يعلّمهم القرآن الكريم. فأجاب الشيخ ابن أبي زيد طلبه فألف «الرسالة» ووجهها إليه، وقد ذكر ذلك ابن أبي زيد في المقدمة[1]، دون أن يذكر اسم الطالب، وقد رجح أبو عبد الله محمد بن سلامة التونسي في شرحه لها، وأبو علي ناصر الدين البجائي، أنّ الطالب هو المؤدب محرز بن خلف، وليس السبائي على ما ذكره آخرون، وقد صحح ابن ناجي هذا الترجيح، معللاً إياه بأن قول ابن أبي زيد في أول «الرسالة»: «كما تعلمهم حروف القرآن» يدل على ذلك؛ لأنه لا يعلم أنّ أحداً ممن تعرض إلى مناقب أبي إسحاق السبائي ذكر أنه كان مؤدباً.

ومنذ ظهورها أخذت طريقها إلى الانتشار والشهرة، واستقطبت أقلام كثير من الشراح، وجلبت اهتمام كثير من العلماء عبر العصور[2]. قال الشيخ الدباغ: «انتشرت الرسالة في سائر بلاد المسلمين، حتى بلغت العراق واليمن والحجاز والشام ومصر وبلاد النوبة وصقلية وجميع بلاد إفريقية والأندلس والمغرب وبلاد السودان. وتنافس الناس في اقتنائها، حتى كتبت بالذهب، وأول نسخة نسخت منها بيعت ببغداد في حلقة أبي بكر الأبهري، بعشرين ديناراً ذهباً»[3].

وقد تعدّت شهرتها ـ في العصر الحديث ـ المجال الإسلامي، بتوجيه بعض المستشرقين جهودهم إلى دراستها وترجمتها، فقد ترجمها المستشرق «أدرسل» إلى الإنجليزية مع عبد الله المأمون السهروردي، ونشرت الترجمة مع النص العربي بلندن سنة ١٩٠٦م؛ وترجمها إلى الفرنسية كلّ من المستشرقين «فانيان» سنة ١٩٢٤م، و«ليون برثر» وطبعت ترجمته مرات بالجزائر[4].

---

(١) انظر: مقدمة الرسالة نفسها، وشرح الرسالة لابن ناجي: ١/ ١١.
(٢) انظر قائمة في أبرز شراحها: مقدمة تحقيق «الرسالة الفقهية» لمحمد أبي الأجفان، والهادي حمّو: ص٣٩.
(٣) معالم الإيمان: ٣/ ١١١.
(٤) مقدمة تحقيق «الرسالة الفقهية»: ص٤٨.

وكان ابن أبي زيد ـ بعد أن أتمّ تأليفها ـ وجّه نسخة منها إلى أبي بكر الأبهري ببغداد، وبثانية إلى أبي بكر بن زرب قاضي الجماعة بالأندلس. فأمّا الأبهري فقد أظهرها وأشاع خبرها بين أهل بغداد، وأثنى على مؤلفها، ثم أمر ببيعها بوزنها ذهباً، ليحسن بثمنها إلى حاملها إليه، فبيعت بثلاثمائة دينار ونيف. وأمّا ابن زرب فأخفاها وشرع في تأليف كتاب عوضها، وبعد فترة ظهر كتابه «الخصال» على مذهب مالك[1].

ومدحها القاضي عبد الوهاب البغدادي، بقوله:

رسالة علم صاغها العلم النهد	قد اجتمعت فيها الفرائض والزهد
أصول أضاءت بالهدى فكأنما	بدا لعيون الناظرين بها الرشد
وفي صدرها علم الديانة واضحاً	وآداب خير الخلق ليس لها ندّ
لقد أمّ بانيها السداد فذكره	بها خالد ما حجّ واعتمر الوفد[2]

وقد ذكر غير واحد من مترجميه أنّه ألفها وهو في السابعة عشرة من عمره. وهذا بعيد؛ لأنّه والحالة هذه يكون تأليفها حصل سنة ٣٢٧هـ، وإذا كان ابن زرب ولد سنة ٣١٧هـ، فإنّ عمره حين أرسل إليه ابن أبي زيد «الرسالة» يكون عشر سنوات، وهو سن لا يبلغ فيه صاحبه عادة مبلغ العلماء المشهورين وتقليد القضاء فضلاً عن قضاء الجماعة. وكذلك فإنّ الشيخ محرز بن خلف قد توفي سنة ٤١٣هـ وقد جاوز السبعين[3]، وعلى هذا يكون ميلاده حوالي سنة ٣٤٣هـ ويكون تأليف الرسالة قد تمّ قبل ميلاده. لذلك فالذي نرجّحه أنّ ابن أبي زيد ألف «الرسالة» بعد أن استوى عالماً متمكناً في علوم الشريعة، وقد ذاع صيته وانتشر في الآفاق خبره، بدليل أنّه حين أرسل «الرسالة» إلى الأبهري كان قد سبقتها إليه شهرته وعرف إمام المالكية بالعراق منزلته، لذلك قابلها بما ذكرنا من الإعجاب والثناء على مؤلفها. والتقدير أن يكون ابن أبي زيد ألفها بعد أن تولّى ابن زرب القضاء سنة ٣٦٧هـ، أي وعمره

---

(١) معالم الإيمان: ٣/ ١١٢.
(٢) معالم الإيمان: ٣/ ١١٢.
(٣) انظر: شجرة النور الزكية: ٢/ ٢٠٢.

في حدود الستين سنة، وعمر ابن زرب في حدود الخمسين سنة، وعمر محرز بن خلف في حدود السبعة والعشرين، والله أعلم.

* النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات[1].

وهو كتاب جمع فيه جميع ما دوّنه أصحاب الدواوين والأمهات ـ عدا المدونة السحنونية ـ من أوّل ما ألّف في أقوال مالك وأقوال أصحابه وتلاميذهم، إلى عهد مصنّفه، لكن بدون أن ينقلها بجملتها، وإنّما بتلخيصها وترتيبها فيما بينها بحسب وحدة الموضوعات والمسائل. قال ابن خلدون: «جمع ابن أبي زيد جميع ما في المذهب من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب «النوادر» فاشتمل على جميع أقوال المذهب وفروع الأمهات كلّها في هذا الكتاب»[2]. ومن المؤلفات التي تضمّنها كتاب «النوادر»: «الواضحة» لعبد الملك بن حبيب (ت٢٣٨هـ)، و«العتبية» لمحمد بن العتبي (ت٢٥٥هـ)، و«المجموعة» لمحمد بن عبدوس (ت٢٦٠هـ)، و«الموازية» لمحمد بن المواز (٢٦٩هـ)، والكتب الفقهية من تأليف محمد بن سحنون (٢٥٦هـ)، وأقوال معاصريه من أئمة المذهب العراقيين والمصريين، كأبي بكر الأبهري (ت٣٧٥هـ)، وبكر بن العلاء القشيري البصري (ت٣٤٤هـ)، وأبي بكر بن الجهم (ت٣٢٩هـ)، وأبي إسحاق بن شعبان المعروف بابن القرطي المصري (ت٣٥٥هـ)، كما إنه يذكر أقوالاً من مصادر أخرى، كمختصر ابن عبد الحكم المصري (ت٢١٤هـ)، وكتاب أبي الفرج عمر بن محمد الليثي البغدادي (ت٣٣١هـ).

وذكر القاضي عياض أنّ هذا الكتاب وكتاب «المختصر» الآتي ذكره مشهوران، وهما المعوّل عليهما في التفقه عند أهل المغرب[3].

* مختصر المدوّنة.

* تهذيب العتبية.

* كتاب الأمر والاقتداء، والنهي عن الشذوذ عن العلماء، وإيجاب

---

(١) مطبوع بدار الغرب الإسلامي ببيروت. (٢) مقدمة ابن خلدون: ص٤١٦.

(٣) ترتيب المدارك: ٦/٢١٧.

الائتمام بأهل المدينة. وقد بيّن مؤلفه ـ في كتاب النوادر ـ أنّه بحث فيه في مسائل الإجماع وإجماع أهل المدينة.

* كتاب الذبّ عن مذهب مالك[1].
* كتاب التنبيه على القول في أولاد المرتدين ومسألة الحبس على أولاد الأعيان.
* كتاب تفسير أوقات الصلوات.
* كتاب المناسك.
* كتاب ردّ المسائل.
* كتاب ردّ الخاطر من الوسواس.
* رسالة إعطاء القرابة من الزكاة.
* كتاب النكاح بغير بيّنة.
* كتاب فضل قيام رمضان.
* التبويب المستخرج.

في الأخلاق والسلوك والآداب:

* كتاب الجامع من مختصر المدونة، بما في ذلك المقدمة العقدية التي سبق ذكرها..
* رسالة فيمن تأخذه عند قراءة القرآن والذكر حركة.
* كتاب حماية عرض المؤمن.
* رسالة النهي عن الجدال.
* رسالة الموعظة والنصيحة. وهي موجهة للقائد محمد بن الطاهر.
* رسالة طالب العلم. وهي في أحكام المعلمين والمتعلمين. وقد أشار إليها ابن خلدون في مقدمته[2].

---

(١) مخطوط بمكتبة تشستربيتي رقم ٤٤٧٥.

(٢) المقدمة: ص٤٠٦.

* رسالة الموعظة الحسنة لأهل الصدق.
* رسالة إلى أهل سجلماسة في تلاوة القرآن.

في السيرة والتاريخ:

* الباب الذي تضمّنه كتاب الجامع من مختصر المدونة، وعنوانه: «باب في مبعث النبي ﷺ وأيامه وعمره ونسبه وصفته وذكر بنيه وبناته وزوجاته وذكر العشرة من أصحابه وأنسابهم وأعمارهم وشيء من التاريخ».
* حكايات عن سعيد بن الحداد.

في الأدب:

* قصيدة في البعث[1].
* قصيدة في مدح الرسول ﷺ، أو في شرف المصطفى[2].
* قصائد متنوعة المضامين، ومنها ما هو في رثاء شيوخه، مقاطع منها مذكورة في كتب التراجم.

ابن أبي زيد القيرواني مجدّد عصره:

ولأجل هذه المزايا التي توفّرت في شخصية ابن أبي زيد، علمياً وسلوكياً، ودفاعاً عن عقيدة الإسلام وشريعته، ضدّ أصحاب البدع والأهواء، من الفرق المنحرفة؛ اعتبره الحجوي الفاسي أحقّ من يصدق عليه حديث: «يبعث الله على رأس كلّ مائة من يجدّد لهذه الأمة دينها» وذلك في إفريقية وما قرب منها، وفي المشرق الإمام الباقلاني[3].

وفاته:

بعد حياة مليئة بالجهاد العلمي والفكري والمالي والدعوي والقتالي،

---

(١) مخطوط في باريس.
(٢) مخطوط في المتحف البريطاني رقم ١٦١٧.
(٣) الفكر السامي: ٢/١١٦.

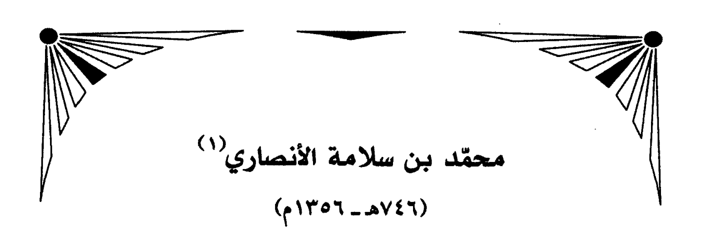
وبعد حياة معطرة بنفحات التقوى والورع والصلاح، دامت ستة وسبعين عاماً؛ توفي ابن أبي زيد القيرواني على الصحيح في الثلاثين من شعبان سنة ٣٨٦هـ ـ ١٤ سبتمبر ٩٩٦م. وصلّى عليه في اليوم الموالي لوفاته رفيقه أبو الحسن القابسي بالريحانة، في جمع غفير، ودفن بداره بالقيروان ـ رحمه الله تعالى ـ وقد جادت قرائح الشعراء بمراث مشجية مؤثرة، تشيد بفضائله وتعدّد مناقبه، وتعبر عن لوعة فقده[١]، منها قول ابن الخواص الكفيف:

هـذا لـعـبـد الله أوّل مـصـرع ... تـرزى بـه الـدنـيـا وآخـر مـصـرع
كادت تميد الأرض خاشعة الربا ... وتـمـور أفـلاك الـنـجـوم الـطـلـع
عجباً لا يدري الحاملون لنعشه ... كيف استطاعة حمل بحر منزع
عـلـمـاً وحـلـمـاً كـامـلاً وبـراعـة ... وتـقـى وحـسـن سـكـيـنـة وتـورّع
غصّت فجاج الأرض سعياً حوله ... مـن راغـب فـي سـعـيـه مـتـبـرّع
يـبـكـونـه ولـكـلّ بـاك مـنـهـم ... ذلّ الأسـيـر وحـرقـة الـمـتـوجّـع[٢]

ذكر القاضي عياض أنّ ابن أبي زيد رُئي يوماً في مجلسه، وهو مستغرق في التفكر وعليه مسحة كآبة، فسئل عن سبب ذلك، فأجاب بقوله: أريت ـ في المنام ـ باب داري سقط، وقد قال الكرماني: إنّه يدلّ على موت صاحب الدار. فقيل له: الكرماني مالك في علمه؟ قال: نعم هو مالك في علمه، أو كأنه مالك في علمه. ولم يلبث ابن أبي زيد إلّا يسيراً، ثم فارق الحياة الدنيا[٣] ـ رحمه الله تعالى وأجزل ثوابه ـ آمين.

---

(١) راجعها في ترتيب المدارك: ٤/٤٩٦ ـ ٤٩٧؛ ومعالم الإيمان: ٣/١١٨.
(٢) ترتيب المدارك: ٦/٢٢١.
(٣) ترتيب المدارك: ٦/٢٢٢.



محمّد بن سلامة الأنصاري[1]

(٧٤٦هـ - ١٣٥٦م)

محمّد بن محمّد بن سلامة بن حسن الأنصاري، التونسي، أبو عبد الله.

لم تتوسّع مصادر ترجمته في التعريف به وبشيوخه. ولكن يمكن الاستنتاج من خلال مكان وتاريخ وفاته المتفق عليهما بين هذه المصادر أنّه عاش في ظلّ الدولة الحفصية التي عملت على النهوض بالثقافة، وتشجيع العلماء، وإنشاء المدارس والمكتبات، وترتيب المدرّسين والأئمّة، وتخصيص الجرايات لهم.

ويمكننا أن نؤكّد أنّ طبقة العلماء التي عاصرها تتميّز بالنبوغ والعطاء العلمي المتميّز في مختلف العلوم الشرعية، العقلية والنقلية. وتكشف عن ذلك مجموعة المؤلّفات التي ألّفوها. وأبرز علماء هذه الطبقة: أبو عبد الله محمّد بن يحيى بن عمر المعافري المعروف بابن الحباب (ت٧٤٩هـ)[2]، ومحمّد بن راشد القفصي (ت٧٣٦هـ)[3]، وأبو إسحاق إبراهيم بن حسن بن عبد الرفيع الربعي التونسي (ت٧٣٣هـ)[4]، وأبو عبد الله محمد بن عبد السلام الهواري التونسي (ت٧٤٩هـ)[5]، وأبو عبد الله محمد بن جابر الوادي آشي (ت٧٤٩هـ)[6]، وأبو

(١) ترجمته في: تاريخ الدولتين، وتراجم المؤلفين التونسيين: ٣/ ٦٤، والحلل السندسية: ١/ ٥٧٢، وشجرة النور الزكية: ١/ ٢٠٩، وطبقات المالكية: ورقة ٣٨٧، وكفاية المحتاج: ورقة ٦٨، ولقط الفرائد: ٢/ ٦٤٣، ونيل الابتهاج: ٢٤٠، ووفيات الونشريسي: ٢/ ٦٤٢. (انظر فهرس المصادر والمراجع).

(٢) انظر: شجرة النور: ١/ ٢٠٩.
(٣) انظر: شجرة النور: ١/ ٢٠٧.
(٤) انظر: شجرة النور: ١/ ٢٠٧.
(٥) انظر: شجرة النور: ١/ ٢١٠.
(٦) انظر: شجرة النور: ١/ ٢١٠.

محمد عبد الله بن محمد بن أبي القلهم بن البراء التنوخي (ت٧٣٧هـ)[١]، وأبو حفص عمر بن علي بن قدّاح الهواري التونسي (ت٧٣٤هـ)[٢]، وغيرهم.

ومن خلال ما ذكرته كتب التراجم، فقد تخرّجت هذه الطبقة على ثلّة بارزة من العلماء الذين كانوا يملؤون الساحة العلمية بتونس، والمؤكّد أن يكون مترجمنا ابن سلامة الأنصاري قد تتلمذ لهم وأخذ عنهم. وأشهر هؤلاء:

- تقي الدين أبو القاسم بن أبي بكر بن مسافر اليمني التونسي، المعروف بابن زيتون (ت٦٩١هـ). الإمام، مفتي إفريقية، الفقيه، النظار، المتخصّص في الفقه وأصوله وفي علمي الخلاف والجدل، وفي علم الكلام والمنطق[٣].

- أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن بن الغماز البلنسي الخزرجي (ت٦٩٣هـ)، قاضي القضاة بإفريقية، الإمام، الفقيه، المحدّث، الراوية، المحقق[٤].

- أبو يحيى أبو بكر بن القاسم بن جماعة الهواري (ت٧١٢هـ)، الإمام، الفقيه، العمدة[٥].

- أبو العباس أحمد بن موسى الأنصاري، الشهير بالبطرني، التونسي، (ت٧١٠هـ)، الفقيه، المقرئ، الراوية، العالم المسند[٦].

- أبو محمد عبد الله بن هارون الطائي القرطبي (ت٧٠٢هـ)، الفقيه العالم العامل المحدث الراوية[٧].

ويستنتج ممّا ذكره عنه المؤرخون، أنّ ابن سلامة كان قد حاز درجة عالية بين علماء عصره، فوصفوه بالشيخ، الفقيه، المقرئ، الراوية المحدّث، العالم، العامل، الصالح، الزاهد. ولمكانته هذه فقد تولّى التدريس بالمدرسة العنقية[٨]

---

(١) انظر: شجرة النور: ١/ ٢٠٨.
(٢) انظر: شجرة النور: ١/ ٢٠٧.
(٣) انظر: شجرة النور: ١/ ١٩٣.
(٤) انظر: شجرة النور: ١/ ١٩٩.
(٥) انظر: شجرة النور: ١/ ٢٠٥.
(٦) انظر: شجرة النور: ١/ ٢٠٥.
(٧) انظر: شجرة النور: ١/ ١٩٩.
(٨) نسبة إلى النهج الواقعة فيه، وهو نهج عنق الجمل. وقد أسستها الأميرة المحسنة =

بعد عزل القاضي ابن عبد السلام الهواري عنها، وتولّى خطة الإمام بالنيابة بجامع الزيتونة.

ومن تلاميذه الذين ذكرتهم المصادر أنّهم تعلّموا عليه، الإمام محمد بن عرفة الورغمّي (ت٧٠٣هـ)، والإمام محمد المقّري قاضي الجماعة بفاس (ت٧٥٦هـ)[١].

ومن خلال مؤلّفاته وما تلقاه عنه الإمام ابن عرفة من العلوم، فإنّ مترجمنا كان مهتمّاً خاصة بالتدريس والتأليف في القراءات والفقه والحديث وأصول الدين وأصول الفقه. فقد أخذ عنه ابن عرفة القراءات والموطأ، وقرأ عليه كتاب «التيسير في القراءات السبع» لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، و«الكافي» لابن شريح، و«مفردتي يعقوب الدانية والشريحية»، وجملة من «التفريع» في الفقه لابن الجلاب، وجملة من كتاب «الإرشاد» لإمام الحرمين الجويني، وجملة من كتاب «المعالم في أصول الدين» للإمام فخر الدين الرازي، وأجازه بذلك وبجميع مروياته.

وأمّا كتبه، فله كتابان، وهما:

- كتاب «مفردة يعقوب» جمع فيها بين مفردة أبي عمرو الداني ومفردة محمد بن شريح الإشبيلي. قد ذكره له محمّد محفوظ[٢].

- كتاب «النكت المفيدة في شرح الخطبة والعقيدة» وهو كتاب شرح فيه خطبة وعقيدة الرسالة، لابن أبي زيد القيرواني، بشيء من التوسّع؛ ثمّ تناول باقي الأبواب الفقهية للرسالة باختصار. ولم يذكره له محفوظ. ونسبته له فهارس المكتبة الوطنية. والذي يجزم بصحة نسبته إليه أمران:

الأول: أنّ المخطوطة (أ) مفتتحة بجملة «قال الشيخ الإمام العالم

= فاطمة بنت الأمير أبي زكرياء الحفصي في سنة ٧٣٣هـ - ١٣٣٢م (تاريخ معالم التوحيد: ٢٩٤).

(١) انظر: شجرة النور: ٢٠٩/١، وتراجم المؤلفين التونسيين: ٣/ ٦٤.

(٢) تراجم المؤلفين التونسيين: ٣/ ٦٤.

العلامة ابن سلامة التونسي رَحِمَهُ اللَّهُ» والمخطوطة (ب) مفتتحة بجملة «قال الشيخ الإمام العالم العامل الفاضل الصالح، أبو عبد الله محمد بن الشيخ الصالح المرحوم أبي عبد الله محمد بن سلامة الأنصاري نوّر الله وجهه ونفعنا به وغفر له».

الثاني: أنّ الإمام أحمد القلشاني (ت٨٦٣هـ) ـ تلميذ ابن عرفة ـ ذكره في شرحه للرسالة المسمّى «تحرير المقالة في شرح الرسالة» ونقل عنه كلاماً عن ابن مجاهد، وذلك في بيان معنى قول المصنف: «وأنّه فوق عرشه المجيد بذاته» إذ جاء في شرح القلشاني: «ونقل ابن سلامة في شرح العقيدة عن ابن مجاهد...» والجملة المنقولة وردت كما هي في «النكت المفيدة».

ونشير إلى أن حسن حسني عبد الوهاب نسبه في كتابه «العمر» إلى محمّد بن الطيّب بن أحمد بن علي بن سلامة المتوفى سنة ١٢٦٦هـ، وهو خطأ. وقد أشار لهذا الخطأ مراجعاً كتاب «العمر» ولكن لم يحققا في صاحبه. وذكر حسن حسني أنّ له نسخة منه في مكتبته، إلّا أنّنا لم نجدها فيما هو محفوظ من مكتبته بالمكتبة الوطنية.

وقد توفي ابن سلامة الأنصاري التونسي سنة ٧٤٦هـ ـ ١٣٥٦م.

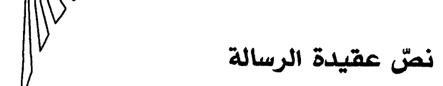
المخطوطتان المعتمدتان:

الأولى: رقمها ٥٣٥.

الثانية: رقمها ١٩٩١٠. وبها سقط كثير من الأوراق في أثنائها، ولم نحصل منها على شرح الخطبة والعقيدة إلّا من أوّل الكتاب إلى ما قبل قوله: وشرح به دينه القويم.

وقد اكتفينا بتحقيق شرح الخطبة والعقيدة؛ لأنّه غرضنا من هذا التحقيق.

واستعنّا لكشف الغموض وإضافة النقص وخاصّة في الجزء الذي انفردت به النسخة الأولى، على شرح القلشاني.



نصّ عقيدة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلّى الله على سيدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم

قال أبو محمّد عبد الله بن أبي زيد القيرواني:

الحمد لله الذي ابتدأ الإنسان بنعمته، وصوّره في الأرحام بحكمته، وأبرزه إلى رفقه، وما يسّره له من رزقه، وعلّمه ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيماً، ونبّهه بآثار صنعته، وأعذر إليه على ألسنة المرسلين الخيرة من خلقه؛ فهدى من وفّقه بفضله، وأضلّ من خذله بعدله، ويسّر المؤمنين لليسرى، وشرح صدورهم للذكرى؛ فآمنوا بالله بألسنتهم ناطقين، وبقلوبهم مخلصين، وبما أتتهم به رسله وكتبه عاملين، وتعلّموا ما علّمهم، ووقفوا عند ما حدّ لهم، واستغنوا بما أحلّ لهم عمّا حرّم عليهم.

أمّا بعد، أعاننا الله وإيّاك على رعاية ودائعه، وحفظ ما أودعنا من شرائعه، فإنّك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة، ممّا تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة وتعمله الجوارح، وما يتّصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكّدها ونوافلها ورغائبها، وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه، على مذهب الإمام مالك بن أنس ـ رحمه الله تعالى ـ وطريقته، مع ما سهّل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين، وبيان المتفقهين. لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان، كما تعلّمهم حروف القرآن؛ ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه، ما ترجى لهم بركته، وتحمد لهم عاقبته. فأجبتك إلى ذلك؛ لما رجوته لنفسي ولك من ثواب من علّم دين الله أو دعا إليه.

واعلم أنّ خير القلوب أوعاها للخير، وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشرّ إليه، وأولى ما عني به الناصحون ورغب في أجره الراغبون، إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين ليرسخ فيها؛ وتنبيههم على معالم الديانة وحدود الشريعة، ليراضوا عليها، وما عليهم أن تعتقده من الدين قلوبهم، وتعمل به جوارحهم؛ فإنّه روي: «أنّ تعليم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الله»، و«أنّ تعليم الشيء في الصغر كالنقش على الحجر».

وقد مثّلت لك من ذلك ما ينتفعون إن شاء الله بحفظه، ويشرفون بعلمه، ويسعدون باعتقاده والعمل به.

وقد جاء أن يؤمروا بالصلاة لسبع سنين، ويضربوا عليها لعشر، ويفرّق بينهم في المضاجع؛ فكذلك ينبغي أن يعلّموا ما فرض الله على العباد من قول وعمل قبل بلوغهم، ليأتي عليهم البلوغ وقد تمكّن ذلك من قلوبهم، وسكنت إليه أنفسهم، وأنست بما يعملون به من ذلك جوارحهم. وقد فرض الله سبحانه على القلب عملاً من الاعتقادات، وعلى الجوارح الظاهرة عملاً من الطاعات.

وسأفصّل لك ما شرطت لك ذكره باباً باباً، ليقرب من فهم متعلّميه، إن شاء الله تعالى، وإيّاه نستخير، وبه نستعين، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم. وصلّى الله على سيّدنا محمد نبيّه، وآله وصحبه، وسلّم تسليماً كثيراً.

* باب *

ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات

من ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان بـ:

ـ أنّ الله إلٰه واحد، لا إلٰه غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا شريك له.

ـ ليس لأوّليّته ابتداء.

ـ ولا لآخريّته انقضاء.

ـ لا يبلغ كُنْه صفته الواصفون. ولا يحيط بأمره المتفكرون. يعتبر المتفكرون بآياته، ولا يتفكرون في مائية ذاته ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ـ العالم، الخبير، المدبّر، القدير، السميع، البصير، العليّ، الكبير.

ـ وأنّه فوق عرشه المجيد بذاته.

ـ وهو بكلّ مكان بعلمه. خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ـ على العرش استوى وعلى الملك احتوى.

ـ وله الأسماء الحسنى والصفات العلى. لم يزل بجميع صفاته وأسمائه. تعالى أن تكون صفاته مخلوقة وأسماؤه محدثة.

ـ كلّم موسى بكلامه الذي هو صفة ذاته، لا خلق من خلقه.

ـ وتجلّى للجبل فصار دكّاً من جلاله.

ـ وأنّ القرآن كلام الله، ليس بمخلوق فيبيد، ولا صفة لمخلوق فينفد.

ـ والإيمان بالقدر خيره وشرّه، حلوه ومرّه. وكلّ ذلك قد قدّره الله ربّنا، ومقادير الأمور بيده، ومصدرها عن قضائه. عَلِمَ كلّ شيء قبل كونه، فجرى على قدره. لا يكون من عباده قولٌ ولا عمل إلا وقد قضاه وسبق علمه به ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

يضلّ من يشاء فيخذله بعدله، ويهدي من يشاء فيوفقه بفضله، فكلّ ميسّر بتيسيره إلى ما سبق من علمه وقدره، من شقي أو سعيد.

تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد، أن يكون لأحد عنه غنى، أو يكون خالق لشيء إلّا هو، ربّ العباد، وربّ أعمالهم، والمقدّر لحركاتهم وآجالهم.

ـ الباعث الرسل إليهم لإقامة الحجّة عليهم.

ـ ثم ختم الرسالة والنّذارة والنبوّة بمحمد نبيّه ﷺ، فجعله آخر

المرسلين، بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

- وأنزل عليه كتابه الحكيم، وشرع به دينه القويم، وهدى به الصراط المستقيم.

- وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من يموت. كما بدأهم يعودون.

- وأنّ الله سبحانه ضاعف لعباده المؤمنين الحسنات، وصفح لهم بالتوبة عن كبائر السيئات، وغفر لهم الصغائر باجتناب الكبائر. وجعل من لم يتب من الكبائر صائراً إلى مشيئته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ومن عاقبه بناره أخرجه منها بإيمانه فأدخله به جنته. ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ويخرج منها بشفاعة النبي ﷺ من شفع له من أهل الكبائر من أمته.

- وأنّ الله سبحانه قد خلق الجنة فأعدّها دار خلود لأوليائه، وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم. وهي التي أهبط منها آدم نبيّه وخليفته إلى أرضه، بما سبق في سابق علمه.

- وخلق النّار فأعدّها دار خلود لمن كفر به وألحد في آياته وكتبه ورسله، وجعلهم محجوبين عن رؤيته.

- وأنّ الله تبارك وتعالى يجيء يوم القيامة والملك صفاً صفاً، لعرض الأمم وحسابها وعقوبتها وثوابها.

- وتوضع الموازين لوزن أعمال العباد ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨] ويؤتون صحائفهم بأعمالهم. فمن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً، ومن أوتي كتابه وراء ظهره فأولئك يصلون سعيراً.

- وأنّ الصراط حقّ يجوزه العباد بقدر أعمالهم، فناجون متفاوتون في سرعة النجاة عليه من نار جهنم، وقوم أوبقتهم فيها أعمالهم.

ـ والإيمان بحوض رسول الله ﷺ ترده أمته. لا يظمأ من شرب منه. ويذاد عنه من بدّل وغيّر.

ـ وأنّ الإيمان قول باللسان، وإخلاص بالقلب، وعمل بالجوارح. يزيد بزيادة الأعمال، وينقص بنقصها، فيكون بها النقص، وبها الزيادة. ولا يكمل قول الإيمان إلا بالعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة.

ـ وأنّه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة.

ـ وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يبعثون، وأرواح أهل الشقاوة معذّبة إلى يوم الدين.

ـ وأنّ المؤمنين يفتنون في قبورهم ويسألون ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ـ وأنّ على العباد حفظة يكتبون أعمالهم، ولا يسقط شيء من ذلك عن علم ربّهم.

ـ وأنّ ملك الموت يقبض الأرواح بإذن ربه.

ـ وأنّ خير القرون القرن الذين رأوا رسول الله ﷺ، وآمنوا به، ثم الذين يلونهم، ثمّ الذين يلونهم.

ـ وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديّون؛ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين.

ـ وأنْ لا يذكر أحد من صحابة الرسول إلا بأحسن ذكر. والإمساك عمّا شجر بينهم. وأنّهم أحقّ الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج، ويظنّ بهم أحسن المذاهب.

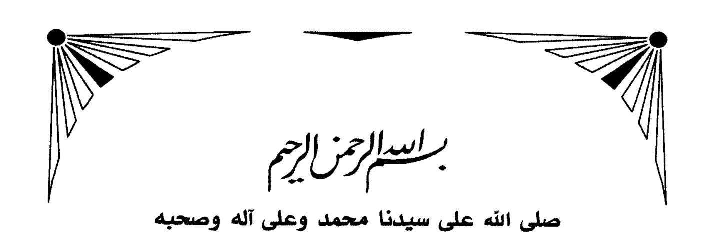
ـ والطاعة لأئمة المسلمين، من ولاة أمورهم وعلمائهم.

ـ واتباع السلف الصالح، واقتفاء آثارهم، والاستغفار لهم.

ـ وترك المراء والجدال في الدين.

ـ وترك كلّ ما أحدثه المُحْدِثون.

وصلّى الله على سيدنا محمّد نبيّه، وعلى آله وأزواجه وذرّيّته، وسلّم تسليماً كثيراً.



صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

[مقدمة الشارح]:

قال الشيخ الإمام العالم العلامة ابن سلامة التونسي رحمه الله[1]:

الحمد لله ربّ العالمين. والصلاة على سيدنا محمد خاتم النبيين. ورضي الله عن الصحابة أجمعين. وحسبنا الله ونعم الوكيل. ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم.

هذا كتاب أذكر فيه إن شاء الله تعالى نكتاً مفيدة، على عقيدة الشيخ الإمام العالم العامل، أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني رحمه الله. وهي المذكورة في أوّل كتاب[2] الرسالة، التي بعث بها للشيخ الإمام العالم العامل الزاهد، أبي محفوظ محرز[3]، نفعنا الله به. وهو كان سأله تأليفها ليعلّمها الولدان فدارت هذه الرسالة المباركة بين هذين الإمامين العاملين الفاضلين[4] رضي الله عنهما. ولهذا يقال

---

(١) في «ب»: (قال الشيخ الإمام العالم العامل الفاضل الصالح، أبو عبد الله محمد بن الشيخ الصالح المرحوم أبي عبد الله محمد بن سلامة الأنصاري نوّر الله وجهه ونفعنا به وغفر له).

(٢) سقط من «أ»: (كتاب).

(٣) محرز بن خلف بن رزين البكري، من نسل أبي بكر الصديق، مؤدب تونسي، من كبار الزهاد. تهافت عليه الناس لسماع كلامه. كان في شبيبته يعلم القرآن بأريانة، وسكن مرسى الروم قرب القيروان، ثم استقر في مدينة تونس يقرئ القرآن والحديث والفقه. وإليه كتب ابن أبي زيد القيرواني رسالته الفقهية ليعتمدها في تعليم الأطفال. وهو الذي حرض على قتل العبيديين في تونس عام ٤٠٦هـ. توفي بتونس سنة ٤١٣هـ، وقد جاوز السبعين. (الأعلام: ٥/ ٢٨٤).

(٤) سقط من «أ»: (الفاضلين).

إنه من حفظها واعتنى بها وهبه الله تعالى ثلاثاً[1] أو واحدة من الثلاثة، وهنّ: العلم[2]، والصلاح، والمال الطيب.

نسأل الله تعالى أن يجعل القصد إليها خالصاً لوجه الله الكريم، مستفتحاً برحمته، مقرباً من نعمته ومنّته، إنّه وليّ كلّ نعمة. وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم وتسليماً.

وسميتها بـ«النكت المفيدة في شرح الخطبة والعقيدة».

[معنى الحمد]:

ابتدأ الشيخ على بركة الله سبحانه قوله رَحِمَهُ اللهُ في أوُّل الخطبة: **(الحمد لله)**.

ابتدأ بالحمد؛ لأنه مفتتح كتاب الله الكريم، وخاتمة دعاء أولياء الله المؤمنين، ودار[3] النعيم؛ ولأنه سنة رسول الله ﷺ في خطبة وموعظة، وسنة الخلفاء الراشدين من بعده. روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كلّ أمر ذي بال لم يبتدأ فيه بالحمد فهو أجذم» وفي رواية: «أقطع» وفي رواية: «فهو أبتر»[4]. والأجذم: الأقطع، ومنه: سيف جذماً، أي قاطعة.

والحمد، هو الثناء. والثناء من جنس الكلام. والكلام أربعة أنواع: أمر، ونهي، وخبر، واستخبار. والثناء نوع الخبر منها.

والخبر ثلاثة أقسام: مدح، وذم، وما ليس بمدح ولا ذم.

---

(١) سقط من «أ»: (ثلاثاً).   (٢) في «ب»: (الفهم).

(٣) كذا ولعله (في دار).

(٤) الحديث بلفظ «أقطع» أخرجه ابن ماجه في النكاح، باب خطبة النكاح، وابن حبان، باب ما جاء في الابتداء بحمد الله تعالى؛ والدارقطني في الصلاة، باب وبلفظ «أجذم» أخرجه الطبراني في الكبير (مجمع الزوائد في الصلاة، باب الخطبة والقراءة فيها). وبلفظ «أبتر» أخرجه الرهاوي في الأربعين (جامع الأحاديث والمراسيل: ٢/ ٢٥٢، والأذكار: ص١٨٧) قال النووي: هو حديث حسن. وأخرجه أبو داود في الأدب، باب الهدي في الكلام، ولفظه عنده: «كُلُّ كَلَامٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدُ للهِ فَهُوَ أَجْذَمُ». وأخرجه أحمد في مسند المكثرين بلفظ: «كل كلام أو أمر ذي بال، لا يفتح بذكر الله ﷻ فهو أبتر»، أو قال: «أقطع».

فالحمد والمدح لفظان مترادفان، ومعناهما الثناء على المحمود بما فيه من صفات المحامد.

والحمد على قسمين: قديم، وحادث. فالحمد القديم حمده تعالى لنفسه بكلامه القديم، المنزّه عن التأخير والتقديم؛ وحمده تعالى لمن حمده من عباده، فقد أثنى على نفسه تعالى، وما أثنى تعالى على عباده.

والحمد الحادث حمد المخلوقين عليه تعالى، وعلى بعضهم بعضاً.

فالقديم صفته، وصفة الحادث خلقه وملكه.

والحمد كلّه له[1]، قديماً كان أو حادثاً؛ بإفادة[2] لام المعرفة في الحمد الاستغراق. وحصر[3] الثناء للحق تعالى [يفيد] الاختصاص. وهو أعمّ من الشكر؛ لأنّ الشكر ما[4] يكون في مقابلة الإنعام[5].

وقيل: ليس بينهما خصوص ولا عموم، ويستعمل كل واحد منهما في موضع الآخر، والأكثر[6] على الأول؛ فكلّ شكر حمد، وليس كلّ حمد شكر.

فإذا تقرر هذا فيثنى على الحق تعالى بأسماء ذاته كالقديم، الباقي، الأول، الآخر؛ ويثنى عليه تعالى بأسماء صفاته كالحي العليم؛ ويثنى عليه تعالى بأسماء أفعاله كالخالق الرازق؛ ويثنى عليه بأسماء التنزيه كالقدوس السلام؛ ويثنى عليه تعالى باسمه الجامع لأوصاف الألوهية وكمال الربوبية، كاسمه تعالى «الله»، ولهذا أضيف الحمد غالباً لهذا الاسم العظيم، لما فيه من الدلالة على جميع أوصاف الكمال، ليكون الأعمّ داخلاً على الأعمّ.

[معنى اسم الجلالة]:

واختلف أهل العلم هل هذا الاسم مشتق أم لا؛ والأكثر على أنه غير

---

(١) سقط من «أ»: (له).
(٢) في «ب»: (فأفادت).
(٣) في «أ»: (وحمد).
(٤) في «ب»: (لا) والصواب ما أثبتناه.
(٥) سقط من «أ»: (للحق تعالى . . . الإنعام).
(٦) في «أ»: (الآخر).

مشتق. والقائلون باشتقاقه اختلفوا ممّا قد اشتق[١]؛ فقيل: اشتق من ألِه [بكسر اللام] إذا عبد[٢]، وأنشدوا:

لله درّ الغانيات العدة ... سبحن واسترجعن من تألّه

وقيل: اشتق من التولّه وهو الفزع، أي يفزع إليه تعالى في النوائب، وأنشدوا:

وولهت إليكم من قضايا تنوبني ... فألفيتكم فيها كراماً يوماً ممجداً

وقيل: مشتق من الوله[٣]، وهو الاضطراب والدهش، وفسره بعضهم بالطرب، واحتجا معاً بقول الشاعر:

ولهت نفس الطروب إليكم ... ولها حال دون طعم الطعام

وقيل: اشتق من لاه، إذا احتجب، وأنشدوا:

لاهت فما عرفت يوماً بخارجة ... يا ليتها خرجت حتى عرفناها

وقيل: اشتق من الرفعة، من قولهم: لاهت الشمس إذا ارتفعت.

وقيل: اشتقت من الدوام وعدم التغير، وأنشدوا:

ألهنا بدار ما تبيد رسومها ... كأن بقاياها وشاما على اليد

وكل هذه الاشتقاقات لا تتمّ إلا بعد ردّها إلى اسمه تعالى «الإله» فتركوا الهمزة وأدغموا اللام في اللام، فأصله على هذه «إلاه». وقيل: أصله «لاه»، فدخله الألف واللام للتعظيم، والقولان لسيبويه. وأكثر العلماء على أنهما اسمان لله ﷻ، قال الشيخ أبو الحسن الخزرجي[٤]: والصحيح أنه لا اشتقاق لهذا الاسم الكريم؛ لأنه أخذ من كلّ نوع من أنواع الأسماء؛ فمن حيث لا يشعر عند إطلاقه بصفة معنية، والاشتقاق أشبَهَ اللّقب، ومن حيث يتضمن في دلالته[٥] موصوفاً بأوصاف مشتقة، فقد[٦] أخذ بحظه[٧] من المشتق، ومن

---

(١) سقط من «أ»: (مما قد اشتقّ).
(٢) في «ب»: (فقيل اشتق من التعبد).
(٣) في «أ»: (الالاه).
(٤) في «أ» بياض مكان: (الخزرجي).
(٥) في «ب»: (بصفته).
(٦) في «أ»: (وقد).
(٧) في «أ»: (بخطه).

حيث أفاد العارفين به مسمّى متميّزاً[١] عن سائر المسميّات أشبه المفيد[٢] فالحق أنه لا يتصرف فيه بغير إذن؛ لأنه ليس من باب الألقاب ولا من باب المشتقات، فهو بمثابة العَلَم. وقد صرّح المقترح رحمه الله بأنّه علَم، وقيّد له بأنه[٣] أراد كالعلم[٤].

ثم اختلف هل هو اسم الله الأعظم أم لا؟ على القول بصحة التفضيل بين أسماء الله تعالى، وهو مذهب الجمهور، قالوا: ولا يمتنع أن يفضل الله تعالى كلمة من الذكر على كلمة؛ لأن التفضيل راجع إلى كثرة الثواب ونقصانه. واحتجوا بقول النبي ﷺ لأبيّ: «أيّ آية معك في كتاب الله أعظم»[٥] الحديث. ومحال أن يريد بقوله: «أعظم» معنى: عظيم؛ لأن القرآن كله عظيم[٦]، وإنما سأله عن الأعظم منه، والأفضل في ثواب التلاوة وقرب الإجابة.

فإذا تقرّر هذا فأسماء الله كلها عظيمة، ولا يمتنع أن يكون فيه الأعظم.

وقال طائفة كبيرة: إنه اسمه تعالى «الله» فإذا قيل لهم: فما بال الداعي به قد لا يستجاب له في عين مطلوبه. وقد قال عليه السلام: «إنه إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى»[٧] قالوا: الدعاء به مشروط بالعلم والمراقبة.

---

(١) في «أ»: (بتمييز). (٢) سقط من «أ»: (المفيد).

(٣) في «أ»: (العلم) بدل (بأنه).

(٤) ولفظ المقترح في شرح الإرشاد: والصحيح أنه علم، ولا مانع من أن يكون مشتقاً في أصله ثم يكون موضوعاً على جهة العلمية. والدليل على أنه علم امتناع النعت به، ونعته بجميع الأسماء، وذلك من أحكام العلمية. اهـ.

(٥) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: الله لا إِلَهَ إِلَّا هوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: «وَالله لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ».

(٦) سقط من «ب»: (لأن القرآن كله عظيم).

(٧) أبو داود في الوتر، باب الدعاء؛ والترمذي، باب ما جاء في جامع الدعوات؛ وابن ماجه في الدعاء، باب اسم الله الأعظم.

وقالت طائفة أخرى: اسم الله تعالى الأعظم لا يعلمه[1] إلّا الخواص فهو مخفي[2] كليلة القدر وساعة يوم الجمعة.

وأكثر المحققين أنه لم يخرج عن آية الكرسي؛ لأنها أعظم آية كما في الصحيح؛ فلو كان في غيرها لم يصدق عليها «أعظم»، ومحال ألّا يكون في كتاب الله ﷻ، قال الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ [الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩] إلى غير ذلك. وهذا باب واسع يخرج تتبعه على القصد، والله تعالى الموفق[3].

[نعم الله على الإنسان]:

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (الذي ابتدأ الإنسان بنعمته).

أي أحدث وأوجد. والمراد بالإنسان الجنس. ويبعد قول من حمله على عيسى عليه السلام. وأبعد منه من حمله على آدم عليه السلام[4].

والمبتدأ به إن كان الإنسان فالمناسب أن يقول: بقدرته؛ وإن كان المبتدأ به النعمة، وهو الظاهر، فيكون المعنى أنّ أول شيء صحب الإنسان في زمن وجوده نعمة الله عليه خالقه، فتكون الباء للمصاحبة؛ ويحتمل أن تكون للسبب، أي إنه تعالى ابتدأه بسبب أن ينعم عليه.

والضمير في «بنعمته» يعود على الخالق تعالى، ويجوز عوده على الإنسان لمّا كانت النعمة متلبسة به ومصاحبة له. فإن قلت: فإن كانت الباء للمصاحبة فما معقول النعمة المصاحبة له؟ وإن كانت للسبب فيلزم أن يكون الجنس كلّه منعم عليه، وقد وجدناه على قسمين: منعم عليه، ومنتقم منه، وقد قال الشيخ أبو الحسن الأشعري[5]: لا يقال: لله تعالى على الكافر نعمة، لا

(١) سقط من «أ»: (لا يعلمه).
(٢) في «أ» بياض مكان: (فهو مخفي).
(٣) سقط من «أ»: (ذلك . . . الموفق).
(٤) سقط من «أ»: (وأبعد منه . . . السلام).
(٥) أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم، ينتهي نسبه إلى أبي =

دينية ولا دنيوية، هكذا نقله عنه القاضي أبو بكر بن العربي[1].

فالجواب عن الأول: لو لم تكن إلّا نعمة إخراجه من العدم إلى الوجود، فكيف وما صحبه من الحياة والألطاف، وغير ذلك.

والجواب عن الثاني: أنّ النعمة على قسمين؛ نعمة جلب، ونعمة دفع. وكل قسم منهما نوعان؛ ديني ودنيوي؛ فالديني خاص بالمؤمنين، وثمرتها في الآخرة، وهو النعيم المقيم الذي لا آخر له جلباً ولا دفعاً؛ وأما الدنيوي فيعمّ نوعاه جميع الخلائق، وقال الله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠]. فأما في الآخرة فانتفت نعمة الجلب على الكافرين بالإجماع، قال الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: ٣٠]، وقال الله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]. وأما نعمة الدفع فقد تعقل[2] نسبة وإضافة؛ لأنه ما من عذاب يعذبون به إلّا وفي المقدور ما هو أشد منه، فدفع ذلك الأشد بالنسبة إلى ما حلّ بهم نعمة، غير أنه لا يقال: إنهم في نعمة؛ لأنهم في محل الانتقام والغضب والعذاب الشديد ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزخرف: ٧٥].

فإذا تقرر هذا، فمن نظر إلى نعمة الدنيا وقطع النظر عن مآلها في الآخرة، قال: الجنس كلّه منعم عليه؛ ومن نظر إلى ما آلت إليه صحة الكافر

= موسى الأشعري صاحب رسول الله ﷺ. وهو من البصرة ونزل بغداد، الإمام الفقيه المتكلم الذاب عن الدين، صنف لأهل السنة التصانيف، وأقام الحجج على إثبات السنة وما نفاه أهل البدع من صفات الله تعالى ورؤيته وقدم كلامه وغير ذلك. وكثر طلبته وأتباعه لتعلم تلك الطرق في الذب عن الدين وبسط الحجج والأدلة في نصر الملّة فسمّوا باسمه، وقد أثنى عليه أبو محمد بن أبي زيد وغيره من أئمة المسلمين. توفي ببغداد سنة ٣٢٤هـ أو ٣٣٤هـ ترتيب المدارك: ٥/ ٢٤ ـ ٣٠.

(١) أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد، المعروف بابن العربي المعارفي الإشبيلي، المالكي، من أعلام الأندلس وقضاتهم، تأدب ببلده، ثم رحل إلى المشرق، وعاد بعلم كثير. له مؤلفات هامة في التفسير والحديث والفقه وأصوله وعلم الكلام والتصوف. ولد سنة: ٤٦٨هـ، وتوفي سنة: ٥٤٣هـ. (الأعلام: ٧/١٠٦).

(٢) في «ب»: (تعلق).

وقوّة بطشه[1] وما أقيم فيه من رغد العيش، لم يسمّها نعمة، ولم يطلق عليه أهل نعمة؛ والأكثر على الأول وهو مذهب المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ ألا ترى أنّه لما ذكر النعم الدنيوية لم يخصّ بها بعض الجنس كنعمة التصوير والإبراز إلى الرفق وتيسير الرزق وتعليم العلوم الضرورية وغير ذلك. فلما أن أراد أن يذكر نعمة الدين قسّم الإنسان على قسمين، ونوّع الجنس إلى نوعين، فقال: «فهدى من وفقه بفضله» أي فاختص بنعمة الدين أهل التوفيق، منّة منه تعالى عليهم وفضلاً.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وصوّره في الأرحام بحكمته).**

الضمير يعود على الإنسان، وهو للجنس، فلهذا جمع الأرحام، لاعتبار ما في معنى اسم الجنس من الجمع.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بحكمته؛ أي: بعلمه ومشيئته وتخصيصه. والحكمة العلم ووضع الشيء في محلّه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣] ألا ترى أنه تعالى لما خلق البصر للإنسان جعله في أعلى جسده لتكون منفعته أتم وأعم، وجعل عليه أجفاناً كالأغطية تقيه من الآفات، وجعلها متحركة تنطبق وتنفتح على مقدار حاجته، وجعل في أطرافها أشفاراً تلدغ الذباب والهوام إذا نزلت عليه، وجعلها لها زينة[2] كالحلية لما يحلّى، وجعل عظم الحاجب ناتئاً عليها يقيها ويدفع عنها، كالمجن يقي ما تحته، لما كانت لطيفة في شكلها، إلى غير ذلك من المصالح والمنافع والآلات التي لا يحيط بحقائقها إلّا خالقها تعالى. هذا بالنظر إلى ما في بعض عضو من أعضائه، فما ظنك بالجميع.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأبرزه إلى رفقه، وما يسّره له من رزقه).**

أي أخرجه وأظهره من الضيق وظلمة الأحشاء إلى الموضع الواسع، ويسمّى الموضع الواسع البراز. وخلق الله تعالى في قلوب عباده الرفق به والشفقة عليه، ويسّر له رزقاً ليّناً في ثديي أمه متوسطاً بين الملوحة والعذوبة،

---

(١) في «أ»: (وقد ترى بعطشه).

(٢) سقط من «أ»: (زينة).

بارداً في الصيف حاراً في الشتاء، يخرج من عرقين يتغذى من أحدهما ويشرب من الآخر، وتكفّل برزقه مدّة حياته، ودفع عنه ما لا يستطيع دفعه عن نفسه؛ منّة منه تعالى عليه ولطفاً به.

وفيه تنبيه أنّ الرزق هو ما ينتفع به المرزوق.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وعلّمه ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيماً. ونبّهه بآثار صنعته، وأعذر إليه على ألسنة المرسلين الخِيَرة من خلقه).

[المصادر التي يحصل بها العلم للإنسان]:

جعل يعدّد منن الحقّ تعالى على عباده، وتنقلهم من طور إلى طور، إلى أن يصير هذا الإنسان يعلم مصالح نفسه فيقصدها ويجتنب مضارها ويباعدها، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨] فحينئذٍ يتوجه عليه خطاب التكليف، ويرشده إلى النظر في الآيات، وينبّهه بآثار الصنعة، فيستدل بها على الفاعل، فيعلم ما يجب وما يجوز وما يستحيل عليه؛ ولهذا قال تعالى متصلاً بالآية الأولى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ﴾ [النحل: ٧٩] فأخبر تعالى أنّ فائدة وجدان السمع والأبصار والأفئدة النظر في الآيات والتدبر، إذ بها يتوصل إلى معرفته تعالى؛ فيلزم التصديق بخطاب الشرع، ولهذا ختم هذه الآيات بقوله ﷻ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ [النحل: ٨٢] إلى قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] فبيّن تعالى أنّ التكليف إنّما هو بخطاب الشرع، فمنه يعلم وجوب الواجبات وحظر المحظورات، وبه تقوم الحجة وتظهر في هذا الجنس الحكمة.

فعلمنا من مجموع هذا أنّ الطرق التي يحصل بها لهذا الإنسان العلم ثلاثة: الضرورة، والنظر، والخبر.

فاستفدنا الضروريات من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾، واستفدنا النظريات من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ﴾، واستفدنا

طريق الخبريات من قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ إلى آخر الآية. فعبّر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

- عن الطريق الأول بقوله: وعلّمه ما لم يكن يعلم.
- وعبّر عن الثاني بقوله: ونبهه بآثار صنعته.
- وعبّر عن الثالث بقوله: وأعذر إليه على ألسنة المرسلين.

والدليل عن انحصار القسمة في هذه الطرق أن نقول: لا يخلو العلم الحاصل لهذا الإنسان إما أن يتوقف على مخبر أَوْ لا:

الأول: هي الخبريات وما توقف منها على المعصوم فهي الشرعيات، وإلا فهي الوضعيات على اختلاف أنواعها.

الثاني: وإن لم يتوقف على مخبر؛ فإمّا أن يعمل في تحصيله فكراً وتأمّلاً، أَوْ لا.

* والأول، هي النظريات وبناؤها على الضروريات.

* وإن لم يعمل في تحصيله فكراً[1] فهي الضروريات. وما توقف منها على الحسّ فهي الحسيّات؛ وما شارك العقل غيره فهو الوجدانيات؛ وما اختص به العقل فهي البديهيات، وهي العلم بالواجب والجائز والمستحيل، والمتصف بذلك هو المسمّى عاقلاً.

ومعنى قوله: أعذر إليه، هو من قولهم: قد أعذر من أنذر؛ أي: بالغ إليك بالمعذرة من تقدم إليك بإنذاره قال تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

وقوله: على ألسنة المرسلين، تنبيه أن العقل لا يدرك به حظر ولا وجوب.

والمرسلين: جمع رسول، وهو المأمور بتبليغ الوحي إلى عباد الله تعالى. وهو أخص من النبي، فالنبوّة عامة. وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان ذلك في موقعه من العقيدة.

(١) سقط من «ب»: (وتأمّلاً . . . فكراً).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: الخيرة من خلقه، يقال: بفتح الياء وسكونها. وفيه إشارة إلى أنّهم خير [خلق] الله تعالى أجمعين، فتدخل فيه الملائكة، وهو مذهب طائفة من أهل العلم، وقد نص على ذلك من المتأخرين الشيخ أبو محمد عز الدين بن عبد السلام؛ وقيل: المراد به جنس بني آدم خاصة؛ وقال بعضهم: هذا الخلاف إنما هو في غير نبيّنا ﷺ، وأمّا هو ﷺ فهو أفضل الخلق والخليقة.

[معنى الهداية والضلال]

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: **(فهدى من وفقه بفضله، وأضلّ من خذله بعدله).**

هنا قسّم الجنس إلى نوعين: نوع اختص بنعمة الدين بفضل الله تعالى وبرحمته[1]؛ ونوع أعدّ للانتقام، بعدل الله تعالى وحكمته، قال الله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، وقال: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، وختم آية السعداء بقوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، وختم آية الأشقياء بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

والهداية: لفظ مشترك بين معان؛ فتارة يراد به خلق المعرفة في القلوب، وتارة يراد به الدعوة، وتارة الإرشاد والسلوك، إلى غير ذلك.

ويتعيّن حمله هنا على خلق المعرفة لقرينة التخصيص؛ لأنّ الله تعالى دعا الخلائق أجمعين، ولم يخلق المعرفة إلّا في بعضهم، وقد قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] أي: لتدعو، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ [فصلت: ١٧].

وأمّا قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] فالمراد به نفي الخلق عنه ﷺ؛ لأنّ الله تعالى منفرد بالإيجاد والاختراع فقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] أي ولكنه يخلق الهداية في قلب من يشاء، يختص برحمته من يشاء؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣].

---

(١) سقط من «ب»: (وبرحمته).

والهداية الخاصة هي: خلق القدرة مع المقدور في محل العبد على موافقة أمر الرب، فهذا هو التوفيق؛ والضلال عبارة عن خلق القدرة مع المقدور في محل العبد على خلاف أمر الرب، فهذا هو الخذلان والعياذ بالله.

فقولنا: «خلق القدرة»[1] ليكون العبد مستطيعاً متمكّناً، فيخرج بذلك من مذهب الجبرية.

وقولنا: «مع المقدور» ليكون مقارناً لها، فينتهي[2] أثرها ويبقى لها تعلق الكسب، فيخرج بذلك من مذهب المعتزلة[3].

وقولنا: «في محل العبد» لأنّ قدرته[4] لا تعلق لها بالخارج عن محله، لا[5] يعدو محله.

وقولنا: «في موافقة أمر الرب» لأن الأمر قد يكون بما يريده الآمر، وقد يكون بما لا يريده؛ ففي موافقة الآمر موافقة الإرادة، ولا ينعكس، ألا ترى أن الله تعالى أمر إبليس بالسجود لآدم عليه السلام ولم يرد وقوعه منه، وأراد ذلك من الملائكة فوقع، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى في محله من العقيدة.

فإذا تقرر هذا، ووجدنا هذا الجنس كله من خلق الله تعالى، ولم يشاركه تعالى أحد في خلق شيء منه، علمنا أنّ اختصاص أحد النوعين بالتوفيق والآخر بالخذلان، ليس إلا فضلاً أو[6] عدلاً، فظهر في هؤلاء أثر رحمته وفضله، وظهر في هؤلاء أثر عزه وعدله.

وقوله رحمه الله: (ويسّر المؤمنين لليسرى، وشرح صدورهم للذكرى).

اليسرى: الطريق الموصلة إلى الجنة.

وشرح: أي وسّع.

---

(١) سقط من «ب»: (في محل العبد ... القدرة).
(٢) في «ب»: (فينتفي).
(٣) سقط من «أ»: (من مذهب المعتزلة).
(٤) سقط من «أ»: (لأن قدرته).
(٥) سقط من «أ»: (لا).
(٦) في «أ»: (و).

والذكرى: مصدر، وكذلك «ذكر»، وهو القرآن والسنة.

ولم يذكر ما يسّر النوع الآخر له، واجتزأ بذكر الخذلان، وما ذلك إلا للزوم الأدب مع العزيز تعالى في الإطلاق. ألا ترى إلى قول الحق معلّماً لخير الخلق كيف يطلق عليه، حيث قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي﴾ إلى قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦] ولم يقل: والشر. ثم نبّه على عموم تعلق قدرته ونفوذ إرادته بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. فإن قلت: هذا معارض[1] بقول نوح ﷺ: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وقول موسى ﷺ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، فالجواب: أنّ المراد بهذا منهم صلوات الله عليهم وسلامه تعريف أممهم بنفوذ إرادة الحق تعالى وعظمة سلطانه، وأنه يفعل في ملكه ما يشاء، ولأنه العزيز فلا يعترض عليه. فإذا تمكن هذا من قلوبهم ورسخ في صدورهم، فحينئذ يمكنهم مراعاة الإطلاقات ولزوم[2] الآداب. ولهذا لما أراد المصنف أن يخبر عن الحقيقة الواجبة الاعتقاد قال: «وأضل من خذله بعدله» فحصّل بكلامه هذا الحقيقة، ثم تأدب بآداب القرآن الحكيم واقتدى بسيد الخلق أجمعين؛ فذكر ما تفضّل الله به على عباده المؤمنين.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فآمنوا بالله بألسنتهم ناطقين، وبقلوبهم مخلصين، وبما أتتهم به رسله وكتبه عاملين).**

سمّى النطق اللساني والعمل البدني إيماناً؛ لأنه بهما كمال الإيمان. وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان ذلك.

فإن قلت: لم قدّم النطق على الإخلاص، ولا يصحّ النطق من غير إخلاص، فكيف يؤخّر ما هو مقدّم في الوجود[3]؟ فالجواب أنّ السابق ترجمان، والترجمان يتقدم بين يدي المترجم عنه؛ ولأنّ النطق باللسان هو أوّل علامة ينقاد بها المكلف ويتخلص بها من عذاب الدنيا المتقدّم وجوداً، والله أعلم.

---

(١) سقط من «أ»: (هذا معارض). (٢) في «ب»: (ولزمه).
(٣) في «أ»: (الوجوب).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وتعلّموا ما علّمهم ووقفوا عند ما حدّ لهم. واستغنوا بما أحلّ لهم عمّا حرّم عليهم).

مقصوده ـ والله أعلم بهذه الجملة ـ الثناء على هذه الطائفة المؤمنة، فإنّها لم[1] تتعلم إلّا ما أذن لها في تعليمه، ولم تتكلّف من العلوم ما لا منفعة لها فيه، ألا ترى أنّه عليه الصلاة والسلام تعوّذ بالله من علم لا ينفع[2].

ووقفوا عند ما حدّ لهم: أي إنّهم لم يتجاوزوا الحدود، واستغنوا بالحلال عن الحرام، أي صاروا أغنياء بما أحل لهم، وإن كان يسيراً[3] في قدره لأنّ همتهم[4] فيما يقرّبهم من ربّهم، وليس هممهم من الدنيا إلّا ما سدّ جوعتهم وستر عورتهم.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: (أما بعد).

كلمة فصل يفصل بها بين كلامين؛ قال ثعلب[5]: معناها أخرج عما نحن فيه إلى ما بعده، ولهذا تعمل في صدور الرسائل عند إرادة ذكر المقصود. وقيل في قوله تعالى: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠] إنّها كلمة «أما بعد».

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: (أعاننا الله وإيّاك).

الدعاء عبادة مأمور بها شرعاً؛ لأنّ فيه إظهار العجز والافتقار. ومن المقدورات ما جعله الله تعالى متوقفاً على الدعاء، ومنها ما لم يجعله كذلك؛ ولأن طلب المعونة يشعر بإثبات الكسب والقيام بامتثال الأوامر، وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

وقوله: «وإياك»، خطاب للعابد السيد محرز نفع الله به، وإن كان قد دخل معه[6] في الضمير في «أعاننا» ولكن أراد أن يفرده بالذكر.

---

(١) في «ب»: (لا).

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب التعوّذ من شر ما عمل.

(٣) سقط من «أ»: (يسيراً). (٤) في «ب»: (هممهم).

(٥) سقط من «أ»: (قال ثعلب). (٦) في «أ»: (معنى).

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: (على رعاية ودائعه، وحفظ ما أودعنا من شرائعه).

الرعاية: هي الكلاءة والمراقبة.

والودائع: هي الأمانات ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: ٧٢] الآية.

والحفظ: إقامة الأركان والإتيان بها على التمام.

فالرعاية للقلوب وهي درجة الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه». والحفظ المداومة على عمل الأبدان، وهي درجة الإسلام «أن تشهد أن لا إله إلا الله» الحديث.

والشرائع: جمع شريعة، وهي الطريقة قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ [الجاثية: ١٨].

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: (فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة).

أراد أن يبين سبب تأليفه لهذا الكتاب على هذا الترتيب الخاص، وهو سؤال العابد محرز قدس الله روحه. ووصف الجملة بالاختصار لتكون أسرع للحفظ وأرسخ في النفس.

[أقسام الحكم التكليفي]

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: (من واجب أمور الديانة).

الـ«واجب» هو اللزوم، ويقال: واجب، وفرض، ولازم، وحتم، كلّها بمعنى واحد[1]؛ وهو ما يذم تاركه شرعاً، ويتوعّد عليه بالعقوبة.

والـ«أمور» جمع أمر، ويراد به الفعل والشأن. وأما الأمر الذي لا يراد به طلب الفعل فهو يجمع على أوامر.

و«الديانة» ما يتدين به، مأخوذ من الآداب والعادة.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: (ممّا تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة وتعمله الجوارح).

تفسير للأفعال التي يتعلق بها حكم الواجب.

(١) سقط من «ب»: (واحد).

ونطق الألسنة هو كلامها.

و«الأفئدة»[1] جمع فؤاد، فهي كناية عن القلوب. قال بعضهم: وأعمال القلب ثمانية؛ العلم، والظّنّ، والجهل، والشك، والفكر، والكلام النفسي، والنية، والاعتقاد وهو أعمّها.

وأعمال الجوارح[2] الحركة والسكون.

وجميع أفعال المكلّفين لا تخرج عن الثلاثة. فأراد أن تكون هذه الجملة مشتملة على جميع الأحكام، ليأخذ المكلف بحظّه من العلم بأحكام جميع أفعاله.

وفيه تنبيه أنّ الأحكام إنّما هي متعلقة بأفعال المكلفين، وأن التحليل والتحريم ليس لمعنى في المحلّل ولا في المحرّم. ألا ترى أنّ الميتة محرّمة في زمن التوسعة محلّلة في زمن المخمصة، فلو كان ذلك لمعنى فيها لاتحد الحكم وإلا فلا.

وقوله رحمه الله: **(وما يتصل بالواجب من نلك).**

لمّا أن كان المكلّف إمّا مطلوباً بالفعل، أو مطلوباً بالترك، أو مخيّراً فيه؛ وجدنا ما يطلب منه فعله إمّا أن يتوعّد على تركه أوْ لا؛ فكان المتوعّد على تركه فهو المسمّى بالواجب، والآخر هو المسمّى مندوباً.

ثم المطلوب تركه إمّا أن يتوعد على فعله أوْ لا؛ والأول هو الحرام، والثاني هو المكروه.

والخير فيه هو المباح.

فلما اشترك المندوب مع الواجب في حقيقة الطلب أراد السائل من المسؤول أن يبيّن له في هذه الجملة أقسام المندوبات، وما هو المؤكد منها من غيره، ليكون المكلف على بصيرة في أمره؛ ويلحق له بذلك كلّه شيئاً من آدب الشريعة ليتخلق المكلف بآداب الشريعة ومكارم الأخلاق، ويجانب بأعماله أهل المخالفة والشقاق.

---

(١) سقط من «ب»: (تفسير . . . الأفئدة). (٢) سقط من «ب»: (الجوارح).

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(من السنن من مؤكّدها ونوافلها ورغائبها).**

لأنّ الفقهاء رحمهم الله خصّوا كلّ لفظ بمعنى يخصّه.

فالسنّة ما فعله النبي ﷺ وداوم على فعله في جماعة؛ كالوتر والجلسة الوسطى والأضحية وشبه ذلك.

والرغيبة ما دون ذلك في التأكيد؛ كركعتي الفجر وشبهها.

والفضيلة كالتنفل قبل الظهر وبعده وشبه ذلك.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وشيء من الآداب منها).**

منها كآداب الأكل والشرب والسفر والنوم وغير ذلك.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وجمل من أصول الفقه وفنون).**

أي من أمّهات المسائل ويدل على أن هذه مراده قوله: «وفنون»، أي وما يتفرع منه ويتفنن، جمع فن، وهو الفرع. ويحتمل أن يريد بأصول الفقه أدلته ما هو المصطلح عليه عند بعض المتقدمين. وقد ذكرنا شيئاً من ذلك في باب جمل من الفرائض والسنن، واستعمل فيه طريق القياس على المتعارف عند الأصوليين، فمن جملة ذلك أن قال: الخمر حرام، وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كلّ ما أسكر كثيره فقليله حرام»[1] فكلّ ما خامر العقل فأسكره من كلّ شراب فهو خمر، وهو حرام. وهذا استعمال للمقدمات والنتائج، والله أعلم.

[التعريف بالإمام مالك]

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(على مذهب الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ وطريقته).**

اختار مذهب مالك رَحِمَهُ اللَّهُ لأنه إمام دار الهجرة، وهو المعنيّ في قول أكثرهم بقوله عليه الصلاة والسلام: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون في الناس أعلم من عالم المدينة»[2] وقد أجمع أهل

---

(١) أخرجه أبو داود في الأشربة، باب النهي عن المسكر؛ والترمذي في الأشربة، باب ما جاء ما أسكر كثيره؛ وابن ماجه في الأشربة، باب ما أسكر كثيره.

(٢) أخرجه الترمذي في العلم، باب ما جاء في عالم المدينة، وأخرجه ابن عبد البرّ بسنده =

العلم على فضل مالك رَحِمَهُ اللَّهُ وتقدمته في العلم والفتوى، ولم يزل أئمة الدين المقتدى بهم، المعوّل في التحقيق عليهم يختارون مذهبه ويرجحونه على المذاهب، وكلها والحمد لله سديدة. ذكر بعضهم أنّ القاضي أبا بكر بن الطيب[1]، لسان الأمة وسيف أهل السنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كان جالساً يوماً في مجلس إقرائه وبين يديه جمع وافر، وكان يقرّر المذاهب الأربعة ويوجّهها ثم يأخذ في الترجيح[2] الاحتجاج لمذهب مالك رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال له بعض أهل المجلس: رضي الله عنكم، ما رجحتموه ليس براجح، وهذه حجة ضعيفة. قال: فاصفر لونه وتغير وجهه وأطرق ملياً، ثم قال: يا هذا أتقول في إمام دار هجرة رسول الله ﷺ حجة ضعيفة، وأين الأدب مع العلم ومع أهله؟ اخرج من مجلسي، واحذر أن تقع عيني عليك بعد هذا اليوم؛ فلم يقدر أن يسكن معه العراق، وانتقل إلى القيروان واستوطنها ودرس بها مذهب مالك رَحِمَهُ اللَّهُ، وألف كتاباً في مناقب القاضي أبي بكر، وصدّره بمسألته هذه، فجزاه الله خيراً عن تخلقه وتواضعه.

وكان الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ من الزهد والورع بالمكان الوافر، وإن كان قد نقل أنه كان يلبس المستحسن من الثياب، ويأكل الطيب من الطعام، فليس ذلك بقادح في زهده ولا في ورعه، ولكل شيء وجه، وفضائله مشهورة مسطرة مذكورة.

ومعنى قول المصنف: «على مذهبه وطريقته» قيل: هما لفظان مترادفان، [و]قيل: مذهبه ما يفتي به، وطريقته ما يفعل في خاصيته، فقد يحمل على نفسه في أشياء لا يفتي بها غيره.

= في التمهيد: ١/ ٨٥. عن أبي هُرَيْرَةَ، رِوَايَةً «يُوشِكُ أنْ يَضْرِبَ النَّاسُ أكْبادَ الإبِلِ يَطْلُبُونَ العِلْمَ فَلَا يَجِدُونَ أحَداً أعْلَمَ مِن عَالِمِ المَدِينَةِ». قال الترمذي: حديث حسن.

(١) هو محمد بن الطيب بن جعفر الباقلاني، أبو بكر: قاضٍ، متكلم أشعري أصولي. (٣٣٨ ـ ٤٠٣هـ). من مصنفاته: التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والخوارج والمعتزلة، إعجاز القرآن. (الأعلام ٦/ ١٧٦).

(٢) سقط من «أ»: (الترجيح).

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (مع ما سهّل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين وبيان المتفقهين).

أي ضمّ إلى الجملة المختصرة بيان ما أشكل منها وإيضاحه، وذلك البيان والإيضاح مأخوذ من تفسير الراسخين وبيان المتفقهين.

و«الراسخين» الرسوخ لغة الثبوت، فيريد الثابتين في العلم، و«المتفقهين» الفقهاء رضي الله عنهم، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] يريد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، والله أعلم، بالمتفقهين أصحاب مالك رَحِمَهُ اللَّهُ، كابن القاسم[١] وأشهب وابن وهب وغيرهم والله أعلم.

و«الفقه» إدراك الأشياء الخفية، والمراد به الفهم. ويقال: فقه - بكسر القاف - إذا فهم، وفقه - بفتحها - إذا سبق غيره، وفقه - بضمها - إذا صار الفقه له سجية. ذكره ابن عطية[٢] في تفسيره وغيره.

[بيان سبب تأليف الرسالة]

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (لِمَا رغبت من تعليم ذلك للولدان).

هذا بيان للسبب الموجب لسؤال السائل تأليف هذه الرسالة، وهي رغبة في تعليمه للولدان، ويكون بياناً لسبب سؤاله أن تكون الجملة[٣] مختصرة؛ لأنه أقرب للحفظ وأسهل للضبط.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (كما تعلّمهم حروف القرآن، ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه، ما ترجى لهم بركته وتحمد لهم عاقبته).

هذا تمثيل وتشبيه. والمراد به أن يسبق إلى قلوبهم من فهم الدين

---

(١) عبد الرحمٰن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي، المصري، الفقيه، صاحب الإمام مالك. كان عالماً زاهداً سخياً شجاعاً. توفي بمصر سنة: ١٩١هـ. (الديباج: ١/ ٤٦٥).

(٢) هو القاضي أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر بن غالب، الفقيه، المحدث، المفسر، العالم، ألف كتاب «الوجيز في التفسير» أحسن فيه وأبدع. توفي سنة ٥٤٢هـ (الأعلام: ١٢٩).

(٣) سقط من «ب»: (هذه الرسالة . . . الجملة).

والشرائع ما تحمد لهم حالتهم فيه، عاجلاً وآجلاً، كما تحمد عاقبتهم في تعليم حروف القرآن. وقيّده بتعليم الحروف بأن الله تعالى يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾ [الرحمٰن: ١] فلا يطلق ذلك على غير الله تعالى ﷻ، لأجل الإيهام، ولهذا لم يقيّده في قوله: «وأن تعليم الصغار لكتاب الله» لزوال الإيهام من ذلك بذكر الكتاب.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فاجبتك إلى ذلك، لِمَا رجوته لنفسي ولك من ثواب مَن عَلَّم دين الله أو دعا إليه).**

الراد بهذه الجملة ترجّي حصول الثواب لهما، هذا بدعائه وهذا بتعليمه.

ويحتمل أن تكون «أو» بمعنى الواو، وهو كثير في اللسان، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ [الإنسان: ٢٤]. وكلّ واحد منهما في الحقيقة، داع ومعلّم؛ فالشيخ أبو محمد داع بتأليفه من جهة المعنى ومعلّم به[1]، والشيخ أبو محفوظ محرز رَحِمَهُ ٱللَّهُ داع إلى التأليف ومعلّمه. ولم يقطع بحصول الثواب؛ لأن القبول مغيّب وهو متوقّف على العاقبة، والله تعالى أعلم.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(واعلم أنّ خير القلوب أوعاها للخير، وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشرّ إليه).**

يعني أنّ القلوب متفاضلة، فأفضلها أكثرها وعياً للخير، وأقربها من هذه الحالة قلب لم يسبق الشرّ إليه، إذ لا مانع فيها، وقلوب الصبيان على هذه المثابة.

[العناية بتعليم أولاد المسلمين معالم الديانة وحدود الشريعة]

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأولى ما عُنِي به الناصحون ورغب في أجره الراغبون، إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين ليرسخ فيها، وتنبيههم على معالم الديانة وحدود الشريعة ليراضوا عليها).**

أي أحقّ ما توجّهت إليه العناية، واستعملت فيه النصحية، والتمس منه

(١) سقط من «ب»: (فالشيخ . . . به).

الأجر؛ إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين وإيقاظهم إلى فهم قواعد الدين؛ لأنه لا مانع في قلوبهم يمنع من ذلك، فيرسخ فيها ما يجعل فيها ويثبت، فيتعوّدون الأعمال الصالحة، وتسكن نفوسهم بالاعتقادات السالمة، وتحيى قلوبهم بالعلوم النافعة. وهذا من كمال النصحية لعباد الله تعالى. [روى] مسلم أن النّبيّ ﷺ قال: «الدين نصيحة» قالها ثلاثاً؛ قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم»[1]، فهذا من النصح لعامة المسلمين.

و«**النصح**»: الرشد.

و«**المعالم**»: جمع معلم، هي المراسم.

و«**الحدود**»: جمع حدّ، وهو مأخوذ من المنع.

و«**الرياضة**»: الطوع والانقياد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وما عليهم أن تعتقده من الدين قلوبهم، وتعمل به جوارحهم، فإنّه روي أنّ تعليم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الله، وأنّ تعليم الشيء في الصغر كالنقش على الحجر. وقد مثّلت لك من ذلك ما ينتفعون ـ إن شاء الله ـ بحفظه، ويشرُفُون بعلمه، ويسعدون باعتقاده والعمل به؛ وقد جاء أن يؤمروا بالصلاة لسبع سنين، ويفرّق بينهم في المضاجع، فكذلك ينبغي أن يعلّموا ما فرض الله على العباد من قول وعمل، قبل بلوغهم، ليأتي عليهم البلوغ وقد تمكّن ذلك من قلوبهم، وسكنت إليه أنفسهم، وأنست بما يعملون به من ذلك جوارحهم. وقد فرض)**.

الجملة إلى قوله: «ما فرض الله على العباد» يحتمل أن يكون هذا جواباً عن سؤال مقدّر، تقديره: كيف يعلّم للصغير مثل هذا ويؤمر به، وهو غير مكلّف؟ فتكون «ما»[2] استفهامية للتقرير[3]؛ أيْ أيّ شيء عليهم في ذلك، أو

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً في الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «الدين النصيحة»؛ ومسلم في الإيمان، باب إن الدين النصيحة؛ بدون لفظ: قالها ثلاثاً. وهو عند أحمد في مسند أبي هريرة.

(٢) سقط من «ب»: (ما).

(٣) سقط من «ب»: (للتقرير).

أيّ مشقة تلحقهم فيه مع قيام فائدته، وهو الرسوخ في القلب والرياضة والتأنيس وحصول شرف الدنيا وعز الآخرة، فتحصل لهم المنفعة بحفظ هذه الجملة والسيادة بعلمها؛ ألا ترى إلى قوله ﷺ: «إنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء لما يطلب»[1]، ويكونون في الآخرة سعداء قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [هود: ١٠٨] وأيّ سعادة أعظم من هذه السعادة، وأيّ منزلة أشرف من هذه المنزلة، فكيف لا يرغب فيها، أم كيف لا يحاول تحصيلها. ثمّ قد ورد في الشرع ما يدلّ على صحة تعليم الصغار والحضّ على ذلك:

- فممّا ورد: «أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الله تعالى»[2].
- ومما ورد: «أن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر»[3].
- وأن يؤمروا بالصلاة لسبع سنين ويضربوا عليها لعشر، ويفرّق بينهم في المضاجع.

فكذلك يعلّم أيضاً المفروضات على العباد والمسنونات، ليتمرّنوا عليها ويستأنسوا بها؛ لأنّ ذلك على جهة التكليف.

ومنهم من حمل قوله: «وما عليهم» على النفي للوجوب، وهو بعيد؛ لأنّ اللفظ لا يساعده.

ومعنى قوله: «يطفئ غضب الله» أي النار التي أعدّها الله لمن خالف أمره ونهيه؛ لأنّ من أراد الله تعذيبه أعدّ له ناراً يعذبه بها، فسمى متعلق إرادته غضباً، كما[4] أيضاً أنه من أراد تنعيمه أعدّ له جنة ينعّمه فيها، فسمّى متعلقها

---

(١) أخرجه أبو داود في العلم، باب في فضل العلم؛ والترمذي في الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) أخرجه ابن الجعدي في مسنده: ١/١٦٢ بلفظ «الحفظ في الصغر كالنقش في الحجر»، وأخرجه الطبراني في الكبير بلفظ: «مثل الذي يتعلم العلم في صغره كالنقش على الحجر، ومثل الذي يتعلم العلم في كبره كالذي يكتب على الماء» وفيه مروان بن سالم الشامي، ضعفه البخاري ومسلم (مجمع الزوائد: ١/١٢٥).

(٤) سقط من «ب»: (أيضاً).

من هذا الوجه[1] رحمة ونعمة، فتختلف التسميات باختلاف المتعلقات، ولا يختلف المتعلق وتضاف إليه المتعلقات إضافة خلق وملك. ويصحّ وصفها بهذا الاعتبار بأن توقد وتطفأ. وأما الغضب الذي تعلقه في حقنا فذلك مستحيل على القديم تعالى وتقدس.

وإطفاء الغضب عنهم:

- إمّا لأنّ تعليمهم يكون دليلاً على أنهم لم يسبق لهم إلّا الخير.

- أو يطفأ الغضب المعدّ لهم فيما يستقبل، بتقدير وجود المخالفة منهم.

- أو يطفأ المعدّ لآبائهم بسببهم، وقد ورد في الشرع ما يدلّ على صحة ذلك، وأنّ الوالد ينتفع بتعليمه ولده كتاب الله تعالى.

- أو يطفأ الغضب[2] المعدّ لمعلّميهم، فيكون تعليمهم سبباً في ذلك.

- أو يطفأ الغضب عن المجموع، وقد ورد: «لولا صِبْيَان رضّع، وشيوخ ركّع، وبهائم رتّع، لصبّ عليهم العذاب صبّاً»[3].

[أقسام التكاليف الشرعية من حيث تعلقها بالقلوب والجوارح]

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقد فرض الله ﷻ على القلب عملاً من الاعتقادات، وعلى الجوارح الظاهرة عملاً من الطاعات).

الفرع[4] أنّ [أعمال] القلوب تسمّى الاعتقادات، وأعمال اللسان تسمّى أقوالاً، وأعمال الجوارح تسمّى أفعالاً. ويجمع ذلك كلّه لغة اسم الفعل، وقد يسمّى ذلك أيضاً إيماناً تسمية شرعية ويسمّى ذلك كلّه أيضاً إسلاماً. فإن اختل

---

(١) في «أ»: (متعلقهما من هذه الوجوه).

(٢) سقط من «ب»: (عنهم ... الغضب).

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسند أبي هريرة: ١١/٥١١، والبيهقي في الاستسقاء، باب استحباب الخروج بالضعفاء والصبيان والعبيد، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «مهلاً عن الله، مهلاً فإنه لولا شيوخ ركع، وشباب خشع، وأطفال رضع، وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صباً».

(٤) كذا في «أ»، وساقطة من «ب»، ولعله: الفرض.

من عمل القلوب ماهية التصديق سقطت تسمية الإيمان، وبقي ما عداه من الأسماء. وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله في محله.

وقوله رحمه الله: (وسأفصّل لك ما شرطت لك نكره باباً باباً، ليقرب من فهم متعلّميه إن شاء الله تعالى).

لأنّه أسرع وجوداً للمطلوب وأقرب للحفظ.

وقوله رحمه الله: (وإيّاه نستخير، وبه نستعين).

أي إنّي أستخيره تعالى في أموري؛ لأنّه يعلم عواقب الأمور، ولا أعلمها، ويقدر على جلب المنافع لي ودفع المضارّ عنّي ولا أقدر، فأقدّم استخارته ولا أستخير أحداً غيره؛ لأنّه المنفرد بذلك، وكلّ ما سواه فمثلي في الاحتياج والافتقار. ولهذا قدّم المفعول[1] لإفادة الحصر، فلا يستخار إلّا الله وحده.

[معنى: لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم، وفضلها]

وقوله رحمه الله: (ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم، وصلّى الله على سيّدنا محمّد نبيّه وآله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً).

ورد في الحديث أنّه ﷺ قال لأبي موسى الأشعري: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟» قال: بلى. قال: «لا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم»[2] وما ذلك إلّا لأنّها كلمة تشتمل على ما يجب للحق تعالى من الانفراد بالاختيار والغنى المطلق، وما يجب على العبد من الإقرار بذلك والتزام العبودية، والقيام بامتثال الأمر والتعري عن الاستبداد.

واختلف في معنى الحول، فقيل: هو من التحويل، وقيل: من الحيلة. وقد ورد أنه ﷺ فسّرها لابن مسعود فقال: «لا حول عن معصية الله إلّا بعصمته، ولا قوّة على طاعة الله سبحانه إلا بعون الله تعالى»[3] وورد في

---

(١) سقط من «أ»: (المفعول) أي قوله: إياه.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات، باب الدعاء إذا علا عقبة؛ ومسلم في الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر.

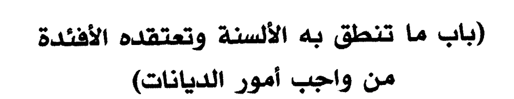
(٣) أخرجه الديلمي عن ابن مسعود. البيان والتعريف في بيان أسباب ورود الحديث: (١/ ٣١١).

فضلها كثير، فمن ذلك قوله ﷺ: «أكثروا من قول: لا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم، فإنّها تدفع تسعة وتسعين داء أدناها الهمّ»[1] فلا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم. وانظر كيف قرنها بهذين الاسمين الكريمين الدالّين على التنزيه والتقديس عن الافتقار والاحتياج، فهو الموصوف بالصفات العليا والعظمى ﷻ.

وهذا آخر الخطبة والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً. ابتدأ العقيدة بحول الله وقوته.

---

(١) أخرجه أحمد في مسند أبي هريرة؛ والحاكم في التوبة والإنابة، باب جددوا إيمانكم.



(باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات)

الباب في اللغة[1] هو المدخل إلى الشيء، وهو حسّي في الحسّيات، ومعنويّ في المعنويات. وهو لِمَا بعده كالحد للمحدود.

فهو إذ يشتمل على بيان ما يجب النطق به، وبيان ما يجب أن يعتقد؛ فكأنّه يقول: باب بيان الواجبات نطقاً واعتقاداً.

(من ذلك: الإيمان بالقلب، والنطق باللسان أنّ الله إلٰه واحد).

[معنى الإيمان لغة وشرعاً ـ وحكم المقلد في العقائد]

الإيمان لغة، هو: التصديق مطلقاً، وسواء كان بالقلب أو باللسان أو بهما.

وفي الشرع، هو:

ـ التصديق بالقلب:

* بوجود الحق تعالى، وصفات كماله وجلاله.

* وصحّة الرسالة وما جاءت به الرسل من عنده.

مع الجزم بذلك كلّه.

ـ والإقرار باللسان به مع القدرة والتمكن من النطق.

وزاد بعضهم في هذا الحدّ:

ـ والانقياد بالأعمال وأدخل في حقيقة الإيمان حقيقة الإسلام، فاشترط

---

(١) سقط من «ب»: (في اللغة).

في ذلك[1] الأركان الخمسة؛ ومنهم من اشترط من ذلك الصلاة والزكاة؛ ومنهم من اشترط من ذلك[2] الصلاة خاصة. وسيأتي إن شاء الله تعالى أنّ الانقياد بالأعمال ليس من ماهية الإيمان ولا شرطاً في صحته؛ وكذلك النطق باللّسان على مذهب القاضي. وخالف الجمهور في ذلك وعدّوه شرطاً[3] مع القدرة، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

فإذا تقرر هذا، فمن صدّق بقلبه، ونطق بلسانه، وعمل بجوارحه، واستصحب ذلك إلى وفاته؛ فأجمعت الأمة على كمال إيمانه؛ إن كان تصديقه عن علم ويقين.

وإن كان عن تقليد موافق لأهل الحق في عقائدهم فجمهور الأمة على خلاصه، قالوا: غير أنّه عاصٍ بإهمال النظر المؤدّي إلى العلم بالله تعالى وما يجب له. قال الغزالي[4]: لا يكون عاصياً إلّا بقيد الأهلية.

واشترط آخرون العلم في صحة الإيمان، وقالوا: لا يجزئ التقليد في العقائد، واختاره القاضي أبو بكر، وقال: التقليد في العقائد حرام؛ لأنّه:

- إما أن يقلّد من شاء وذلك باطل.

- وإمّا أن يقلّد من يدعي الحق، فكلّ يدّعي الحق معه.

- وإمّا أن يؤمر[5] بتقليد واحد لا بعينه وهو محال، أو بتقليد معيّن وتعيينه عنده إمّا بغلبة الظن على صدقه أو بقيام الحجة على ذلك، وغلبة الظن في ذلك غير كافية، إذ يلزم من ذلك أنّه من غلب على ظنه أنّه صادق فاتبعه[6]

---

(١) سقط من «ب»: (ذلك).
(٢) سقط من «أ»: (من ذلك).
(٣) في «أ»: (وعدوه شرطاً في شرطه مع القدرة) وسقط من «ب»: (وكذلك ... في شرطه)، وأسقطنا ما في «أ» جملة: (في شرطه) لأنها زائدة، مقارنة بما في شرح القلشاني.
(٤) في «أ»: (القرافي). والغزالي هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، حجة الإسلام، الإمام الشهير، صاحب التصانيف في الفقه والأصول والكلام والتصوف. ولد سنة: ٤٥٠هـ، وتوفي سنة: ٥٠٥هـ (الأعلام: ٧/ ٢٤٧).
(٥) في «أ»: (يؤمن).
(٦) سقط من «أ»: (فاتبعه).

فكشف الغيب أنّه مبتدع، أن يكون مخلصاً، وهو باطل بالإجماع.

فلم يبق إلّا أنّه علم صدقه بقيام الدليل، فليس بتقليد إذاً، وإنّما هو علم، والتقليد يضادّ العلم.

وحقيقة التقليد قبول القول بغير حجة. قال بعضهم: أنتج هذا أنّ المقلّد غير عارف، ولم ينتج أنّه غير مؤمن، إلّا بقيد ألّا يوافق الحق في اعتقاده، قال: فيجمع بين قولي الأئمة، ويجعل الخلاف في حال.

ونقول: العلم شرط في الإيمان، بمعنى أنّه مؤمن غير عاصٍ، فيخرجه العلم عن العصيان؛ ويخرجه التقليد الموافق لأهل الحق، السالم من الارتياب والشكوك من الكفران. وبهذا الجمع قال جمهور المتأخرين، مع إطباقهم على وجوب المعرفة.

ولنرجع إلى التقسيم الأول، فنقول: وأما من صدّق بقلبه ونطق بلسانه، ولم يعمل بجوارحه؛ فمذهب أهل السنة أنه مؤمن، غير أنه عاصٍ بترك العمل متوعداً عليه بالعقوبة. فإن نفذ فيه الوعيد فلا بدّ أن يخرج من النار ويدخل الجنة بإيمانه. وهم في اشتراط العلم في ذلك والاجتزاء بالتقليد على ما سبق.

وقالت المعتزلة: من لم يعمل بجوارحه فليس بمؤمن، وهو مخلّد في النار. وهذا خلاف لأهل الحق أجمعين؛ إذ أجمعوا على الصلاة عليه وتوريثه وعدّه في سواد المؤمنين.

وقال بعضهم: ولم يشترط أحد من أهل السنة العمل شرطاً في صحة الإيمان، وما ورد عن بعض أئمة أهل السنة في ذلك من القول بتكفير تارك الصلاة[1] وشبهها من أركان الإسلام؛ معناه جحد الوجوب لا أنّ نفس تركها كفر؛ لأنّ الكفر يضادّ الإيمان على المحلّ؛ والترك ليس بتكذيب، فلا يضادّ الإيمان. نعم قد يكون دليلاً على التكذيب، فإقراره بوجوبها على هذا مجرّد كذب وإخبار بالشيء على خلاف ما هو به؛ ألا ترى أنّ ابن حبيب[2] قال:

---

(١) سقط من «ب»: (عليه وتوريثه . . . الصلاة).

(٢) عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون السلمي الإلبيري القرطبي، أبو مروان. =

ينخس بالرماح حتى يموت، يقول: فلو كان هذا يقرّ بوجوبها حقيقة لم يسلّم نفسه للقتل، فجعل تركها دليلاً على انتفاء التصديق بها من قلبه، فهو عنده من المحال العادي. وغيره يقول: وإن سلمنا أنه محال عادي، فيجوز عقلاً وقوع المستحيل العادي، والقول بالتكفير والإخراج من الملة إنّما يكون بقاطع لا يحتمل شيئاً، والله أعلم.

وما وقع في الأحاديث من تسمية أعمال الجوارح إيماناً[1] فذلك باعتبار كمال الإيمان، لا بأنّها جزء ماهيته؛ وقد وقع الإجماع على أنّ الإيمان شرط في العمل، والشرط يغاير المشروط بالاتفاق؛ وقد فرق ﷺ بين الإيمان والإسلام[2] في حديث جبريل عليه السلام؛ ويكون الجمع بينه وبين الأحاديث الأخرى باعتبار العموم والخصوص، لاشتراك الإيمان والإسلام في الانقياد؛ فكلّ مؤمن مسلم، وليس كلّ مسلم مؤمناً، قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

وإذا كان الإيمان بمعنى التصديق، وكان الإسلام بمعنى الاستسلام صحّ أن يكون الإسلام بالجوارح إيماناً وتصديقاً، وصحّ أن يكون الإقرار باللسان عن تصديق القلب استسلاماً، فأطلق اسم كلّ واحد منهما على الآخر؛ بخلاف إذا اختلفا ففارق الباطن الظاهر، فيسمّى الظاهر إسلاماً ولا يسمّى إيماناً؛ فثبت بهذا أنّ كلّ مؤمن مسلم ولا ينعكس. وبهذا اعتبار تعقل زيادة الإيمان ونقصانه، والله أعلم.

وأما من صدّق بقلبه ولم ينطق بلسانه فإمّا عن عذر أوْ لا؛ والعذر إمّا عدم تمكنه من النطق أو عدم اتساع الوقت، مثل أن يخترم قبل النطق، فهذا

= عالم الأندلس وفقيهها في عصره. أصله من طليطلة، وسكن قرطبة، وزار مصر. كان عالماً بالتاريخ والأدب، رأساً في فقه المالكية، له تصانيف كثيرة. توفي سنة: ٢٣٨هـ. (الأعلام: ٤/ ١٥٧).

(١) سقط من «أ»: (إيماناً).

(٢) سقط من «ب»: (بين الإيمان والإسلام).

حكمه حكم من صدق بقلبه ونطق[1] سواء سواء. وقد ذكر القاضي عياض[2] في «الشفاء» وغيره من المتأخرين الخلاف فيمن تخترمه المنية قبل النطق، قال: والصحيح أنّه مؤمن.

وأما إن لم يكن عن عذر فالجمهور أنّه غير مؤمن، قالوا: لأن النطق باللسان مرتبط بالتصديق بالقلب ارتباطاً شرعياً، فكما لا يجزئ عرياً عن التصديق فكذلك عكسه. وذهب القاضي أبو بكر إلى أنّ ذلك ينفعه عند الله تعالى، قال: والنطق عمل من الأعمال ليس شرطاً في صحة الإيمان، فيكون عاصياً بتركه، كما يكون عاصياً بترك غيره من الأركان، غير أنّه يجري عليه أحكام الكافرين في الدنيا.

وأمّا القسم الرابع، وهو النطق باللسان مع نفي التصديق عن القلب، فهو النفاق والزندقة، وهو كفر بإجماع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

[معنى وحدانية الله تعالى والدليل عليها]

ولنرجع إلى حروف الكتاب وقول المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أنّ الله إله واحد لا إله غيره)**.

قد تقدم الكلام على اسمه تعالى «الله». ومعنى الألوهية الاتصاف بصفة الربوبية.

فأمّا وجود الحق تعالى فممّا جبلت فطرة الخلق عليه ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] وإنّما وقع الغلط فيما يجب لله تعالى ويستحيل عليه ويجوز من أحكامه في خلقه. والغلط الواقع في العالم من أربع جهات، قاله أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه: في الكثرة والعدد، والنقص والتقلب، والعلة والمعلول، والأشكال والأضداد؛ قال: فنفى الله تعالى ذلك كلّه في سورة الإخلاص:

---

(١) في «أ»: (حكم من نطق بلسانه ونطق).

(٢) أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السّبتي، الفقيه، القاضي، المحدث، المؤرّخ، من كتبه: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، وترتيب المدارك. ولد سنة: ٤٧٦هـ، وتوفي سنة: ٥٤٤هـ. (الديباج: ٢/٤٦).

ـ ف (أحد) ينفي العدد.

ـ و(صمد) ينفي النقص.

ـ و(لم يلد) ينفي العلّة والمعلول.

ـ و(لم يكن له كفؤاً أحد) ينفي الأشكال والأضداد[1].

فتضمنت هذه السورة:

ـ أحدية الذات.

ـ وأحدية الصفات.

ـ وقطع النسب والعلائق بينه تعالى وبين سائر الموجودات المزدوجات.

فالواحد يدلّ صريحاً على وحدانيته تعالى مطلقاً، ويتضمّن إحالة تلك الوحدانية على غيره مطلقاً وازدواج كل ما سواه.

والصمد ينفي التأليف والتركيب وكلّ ما ينافي الأحدية، وكذلك قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص: ٣].

وأمّا قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤] فصريح في نفي موجود على هذه الصفة سواء، صدّق ذلك قوله الحق: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ [يس: ٣٦] وقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] أنّ الواحد حقيقة هو الله تعالى.

وإن أطلق الواحد على غيره فإنما هو مجاز[2]؛ لأنّ الموجود الحادث إمّا جوهر وإمّا عرض، ثمّ كلّ واحد منهما يستحيل وجوده منفرداً، وتلزمه خواص شاملة، ووجوده مثله ومثله لغير نهاية؛ فهو تعالى الواحد في الذات، الواحد في الصفات، الواحد في الأفعال، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١].

تنبيه: إنّ الله تعالى لا يتعدد، وإنّ كلّ من يتعدد فليس بإلاه. وقد

---

(١) سقط من «ب»: (قال فنفى . . . والأضداد).

(٢) في «أ»: (فهو محال).

أرشد الله تعالى العقول إلى معرفة ذلك، فقال: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١] وقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] فنبهك تعالى أنّ هذه الموجودات تشهد وتنادي بلسان حالها بوجوب انفراد خالقها بالوحدانية وصفات الألوهية؛ ولو قدّر عدد لزم منه فسادها وتلاشيها وعدم استمرار وجودها، وانقلاب الممكن محالاً والواجب جائزاً؛ ولأنّه لا عدد بأولى من عدد، فيلزم التخصيص، وعدد غير متناه محال، فالقول بالعدد باطل على كل تقدير. وبسط هذه الدلالات بالأمثلة يخرج عن المقصود، ولكن نذكر منها واحداً يستدل به على غيره.

قال الإمام أبو المعالي[1]: «لو قدّرنا اثنين، وفرضنا جسماً أراد أحدهما تحريكه والآخر أراد تسكينه، فإمّا أن ينفذ ما أرادا معاً، أو لا ينفذ، أو ينفذ[2] مراد أحدهما دون الآخر:

- ونفوذ إرادتهما معا يؤدّي إلى اجتماع النقيضين، وهو محال.
- وعدم نفوذ ذلك يؤدّي إلى ارتفاع النقيضين.
- ونفوذ مراد أحدهما يلزم منه تعجيز الثاني، وإله عاجز محال.

فالإله واحد ضرورة.

ويلزم من تقدير الموافقة ما يلزم من تقدير المنازعة؛ لأنّ الموافقة إمّا اختيارية أو اضطرارية؛ والاختيارية حكم جائز فكما جاز أن يختار يجوز أن لا يختار، وتقدير [عدم] الاختيار محال، فيضطر إلى الاختيار فيلزم العجز قطعاً، ويلزم من ذلك عموم تعلق قدرة الواحد الحق بجميع المقدورات لتساويها في معقولية الإمكان؛ ولأنّ العجز عن مقدور واحد عجز عن الكلّ والقدرة على كل

---

(١) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين. ولد سنة ٤٢٩، وتوفي سنة ٤٧٨هـ. من مصنفاته في أصول الدين: «الشامل في أصول الدين، الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد (الأعلام: ٤/ ١٦٠).

(٢) سقط من «أ»: (أو ينفذ).

واحد قدرة على الكل للزوم الاستغناء المطلق له تعالى إذ هو منتهى الحاجات ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النجم: ٤٢] فثبت بذلك وجوب انفراده بالخلق، وثبوت وحدانيته تعالى قال الله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦] أي إنّه الموصوف وحده بصفة العزّ والاقتدار وكل من سواه مقهور بقدرته في قبضة الذل والصّغار.

[نفي المماثلة في ذات الله تعالى وصفاته ـ ونفي المشاركة له في أفعاله]

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذلك: «لا إلٰه غيره» تأكيد ومبالغة في ثبوت الوحدانية ونفي إلٰه آخر؛ لأنّ صيغة النفي والإثبات أبلغ في نفي الكلمة المتصلة والمنفصلة. وقد اختلف العلماء هل الأفضل للمكلف عند التلفّظ بلا إلٰه إلّا الله مدّ الألف من «لا» النافية، أو القصر؛ فمنهم من اختار المدّ ليستشعر المتلفظ بها نفي الألوهية عن كلّ موجود سوى الله تعالى، ومنهم من اختار القصر لئلّا تخترمه[1] المنِية من قبل التلفظ بذكر الله تعالى. وفرق الفخر الرازي[2] بين أن تكون أول كلمته فيقصر، أو لا فيمد.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا شريك له).

أي لا شبيه له في ذاته، ولا نظير له في صفاته، ولا شريك له في أفعاله.

[صفتا القدم والبقاء]

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ليس لأوّليته ابتداء، ولا لآخريّته انقضاء).

يريد أن يفسر قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ﴾ [الحديد: ٣] ومعناه أوّل

---

(١) في «أ»: (لتخترمه).

(٢) فخر الدين الرازي، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، الإمام المفسر، أوحد زمانه في المنقول والمعقول وعلوم الأوائل. أصله من طبرستان، ومولده في الري، ويقال له: ابن خطيب الري. له مصنفات عديدة في التفسير وعلم الكلام وأصول الدين والفرق والبلاغة. توفي سنة: ٦٠٦هـ. (الأعلام: ٦/ ٣١٣).

بلا ابتداء وآخر بلا انتهاء. فتلك الأولية التي تعطي قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ غير مسبوقة بعدم، وكذلك الآخرية غير مختومة بعدم؛ فيندفع بهذا المعنى قول من ألزم المصنف التناقض؛ لأنه بيان الآية.

وهذا هو معنى القدم والبقاء؛ لأنه تبارك وتعالى لو كان له أوّل مفتتح لكان جائزاً، ولافتقر إلى مرجّح، ولتسلسل القول، ويلزم منه نفينا مع وجودنا، وهو محال؛ فهو تعالى الواجب الوجود، والواجب الوجود[1] هو المحال العدم، فلا يقبل العدم السابق ولا اللاحق؛ فيعبّر عن انتفاء السابق بالأول وبالقديم، ويعبّر عن انتفاء اللاحق عنه بالآخر وبالباقي.

واختلف الأئمة لماذا يرجع معنى القدم والبقاء؟ فقال أبو العز المقترح[2] في شرح الإرشاد: هما سلب، أي نفي العدم السابق واللّاحق. وخالف هذا في عقيدته وقال: هما صفتا نفس على ما ذهب إليه القاضي أبو بكر وغيره من المحققين. وذهب الشيخ أبو الحسن إلى أنّ القدم[3] صفة نفس والبقاء صفة معنى، قال القاضي[4]: ولا يصح ذلك؛ لأنّ البقاء لو كان صفة معنى[5] لكانت الذات باقية ببقاء الصفات؛ والصفات بقاؤها إمّا أن يكون هو بقاء الذات أو بقاء قائم بها؛ ويلزم على الأول إيجاب الحكم لِمَا لا يقوم به الموجب، ويلزم على الثاني قيام الصفة بالصفة، وكلّ ذلك مستحيل. قال: ولأن الباقي إمّا أن يحتاج في بقائه إلى سبق غيره أوْ لا، والأوّل هي الممكنات تبقى بإبقاء الحق تعالى لها؛ لأنّه يمدّها بصفاتها في كلّ زمن فرد، إمّا بأمثال ما فيهما أو بأضداده. وأمّا إن لم يحتج في بقائه إلى غيره فكان باقياً من صفة نفسه[6]، وذلك هو بقاء الحق تعالى، فهو

---

(١) سقط من «ب»: (والواجب الوجود).

(٢) هو مظفر بن عبد الله بن علي بن الحسين، أبو الفتح، تقي الدين، المعروف بالمقترح: فقيه شافعي مصري، برع في أصول الدين والخلاف. ولد سنة: ٥٦٠ وتوفي سنة ٦١٢هـ. من كتبه: شرح الإرشاد في أصول الدين (الأعلام: ٧/ ٢٥٦).

(٣) سقط من «أ»: (إلى أن القدم).

(٤) سقط من «أ»: (القاضي).

(٥) سقط من «أ»: (معنى).

(٦) سقط من «أ»: (نفسه).

المستغني[1] بنفسه الغناء المطلق الذي لا يتقيّد بالزمان ولا يتخصص بالمكان.

[نفي العلم بحقيقة صفاته تعالى]

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولا يبلغ كنه صفته الواصفون).

لمّا ذكر معنى ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ أراد أن يبيّن معنى قوله: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] فهو تعالى الظاهر تعالى بآياته عن أن تكيّفه العقول أو تلحقه الأوهام، لا يبلغ كُنْه ـ أي حقيقة ـ صفته وصف واصف؛ لأنّه لو كلّف العاقل الدراك أن يصف كنه ذرّة[2] لعجز عن ذلك، فعجزه عن كنه من أنشأها ولا له شبيه ولا يضاهى أولى وأحرى. وهذا هو معنى قول الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «العجز عن درك الإدراك إدراك» فكنه عظمة الله تعالى لا ينتهي إليها ولا يبلغ. وهذا أمر متفق عليه بين الأئمة إطلاقاً واعتقاداً. فأمّا ما ورد عن بعض[3] الأئمة، من إطلاق الأئمة القول بالاختلاف في ثبوت العلم بالحقيقة أو نفيه، فليس بقادح في هذا ولا مخالف له؛ لأن المراد بهذا نفي الإحاطة والتحديد، ونفي العلم ـ مثلاً ـ بوجه تعلق علم الله تعالى بما لا يتناهى على التفصيل. ولم يختلف أنّ العقول عاجزة قاصرة عن إدراك ذلك. ولم ينص أحد من أهل الحق ممّن أثبت العلم الحادث بالحقيقة إلى أنّ المراد بها هذا[4]، بل نص على استحالة ذلك كله.

وإنّما الخلاف في هل يتعلق العلم الحادث بحقيقة الذات أم لا؟ وهل وقع ذلك للبشر أم لا؟ ويفهم من كلام المصنف أن مذهب نفي العلم بالحقيقة، واختاره جماعة من المتقدمين. وأطلق الجنيد[5] رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه «لا

---

(١) سقط من «أ»: (المستغني). (٢) في «أ»: (ذاته).
(٣) سقط من «ب»: (ولا يبلغ ... عن بعض).
(٤) في «ب»: (بهذا).
(٥) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز، أبو القاسم. صوفي من العلماء بالدين، وعدّه العلماء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنّة، ولكونه مصوناً من العقائد الذميمة. له رسائل. توفي سنة: ٢٩٧هـ (الأعلام: ٢/ ١٤١).

يعرف الله إلا الله»، واختاره أكثر المتأخرين وهو مذهب الأستاذ أبو الحجاج الضرير[1] رحمه الله، وكان من المحققين. وأنكر القاضي أبو بكر رضي الله عنه هذا القول ورده وتبعه عليه الإمام أبو المعالي في طائفة وقالوا: الباري تعالى يعلم والعلم يتعلق بالمعلوم على ما هو به، فلو تعلق العلم به على خلاف ما هو به لكان العلم جهلاً[2]؛ وقد أجمعت الأمة على وجوب معرفة الله تعالى ولو كانت مستحيلة لما اجتمعت عليه الأمة، وقد قال عليه[3] السلام: «من عرف نفسه عرف ربه»[4] أي إنّه من عرف نفسه بالافتقار والذل والصغار نفى عنها العز والاقتدار؛ عرف ربه موصوفاً بالكمال، منفرداً بالعزّ والجلال، منزّهاً عن لحوق التغيّر والزوال، متعالياً عن الأين والكيف والمثال. وهذا كلّه علم به على ما هو عليه.

وقال بعضهم: هذا كلّه يوافق عليه من نفى العلم بالحقيقة من أئمة الدين، ولا يلزمه الجهل بربّ العالمين، قال: وخلاف الأئمة في هذه المسألة هو عندي خلاف في حال؛ فإن من أثبت العلم بالحقيقة مقرّ بأنّه تعالى لا يحاط به وبأنّ جلاله وعظمته وكبرياءه لا يلحقه وهم ولا يقدره فهم، وأنّ العقول قاصرة عاجزة عن إدراك ذلك الجلال.

ومن نفى العلم بالحقيقة مقرّ بأنّه تعالى عرفه العارفون بدلالة الآيات، وتحقّقوا اتصافه تعالى بواجب الصفات، وتيقنوا تنزيهه عن التشبيه بالمحدثات، وتقديسه عن الحدوث والكيفيات، وعلموا أنّه المستبدّ بإبداع الكائنات، فهو تعالى الملك المطاع الذي عزه لا يرام وسلطانه لا يضام. قال

---

(١) يوسف بن موسى الكلبي السرقسطي المراكشي، أبو الحجاج الضرير. عالم بالنحو والتوحيد، من أهل سرقسطة، وتوفي بغرناطة سنة: ٥٢٠هـ. قال ابن بشكوال: له تصانيف حسان وأراجيز مشهورة، منها أرجوزته التي ذكر الشارح منها مقاطع المسماة «التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد» (الأعلام: ٨/ ٢٥٤، الصلة: ٦٢١، بغية الوعاة: ٤٢٤، الغنية: ٢٢٦).

(٢) سقط من «أ»: (جهلاً).

(٣) سقط من «ب»: (الأمة . . . عليه).

(٤) قال السخاوي: لا يعرف مرفوعاً، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازي، وكذا قال النووي: (المقاصد الحسنة: ٦٧٥).

الأستاذ أبو الحجاج الضرير مقرّراً لنفي العلم بالحقيقة مثبتاً للعلم به تعالى من هذه الطريقة:

ولا يحيط عارف بذاته علماً كما قال ولا صفاته
ولو رءاه خلقه تعالى لأكثروا الإعظام والإجلالا

فدل ذلك أنّه على صفة من الجلال والكمال لم تنلها معرفة إلى أن قال بعد ذلك:

والفكر في عجائب الخليقة من أفضل الطاعات في الحقيقة
لأنه به تكون المعرفة وإنما يخافه من عرفه
والعلم بالمهيمن القهار وبحسب الفكر والاعتبار
والفكر في بديع مصنوعاته لا في صفاته ولا في ذاته
إذ ليس ينتهى لِكُنْهِ العظمة جل الإله ربّنا ما أعظمه

وعلى هذا درج أكثر المحققين. قال: «وإنما أنكر القاضي قول من قال: الله كيفية لا يعلمها إلّا هو، وقول ضرار: لله ماهية لا يعلمها إلّا هو، ولا جرم أنّ هذا باطل على كلّ قول، والله تعالى يعلم أنه لا كيفية له، وإنه منزّه عن الكيفيات».

وقوله رحمه الله: **(ولا يحيط بامره المتفكرون).**

الإحاطة تشعر بتحديد المحاط به.

و«أمره» أي شأنه، لا يحاط به لأن التفكر في ذاته تعالى محرّم لما يؤدي إليه من التجسيم والتعطيل والتقدير والتشكيل. ويتعالى الله رب العالمين عن الأوهام، وكلّ ما خطر بالبال فالله تعالى بخلافه.

[لا طريق للعلم بالله تعالى إلّا بالنظر]

وقوله رحمه الله: **(يعتبر المتفكرون بآياته، ولا يتفكرون في مائية ذاته).**

الاعتبار والتفكر والاستبصار والتذكر، كلّها متقاربة المعنى، والمراد بذلك النظر في هذه الموجودات، وما اشتملت عليه من لطائف الصنع وعجائب الصفات؛ فيعلم بذلك ما يجب لخالقها وما يستحيل عليه، وبحسب

الفكر في ذلك بتفاوت العارفين، إذ لا طريق لهم إلى العلم بالخالق تعالى إلا بالنظر فيها والاعتبار بها.

[منع التفكر في ماهية ذات الله تعالى]

ولهذا قال ﷺ: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق»[1] فحسب المتفكر إذاً التفكر في آياته ومخلوقاته، والهرب من التفكّر في ذاته وصفاته.

والماهية والمائية بمعنى الحقيقة، وإن كان إطلاق المائية عليه ممتنعاً لعدم الإذن بذلك، ففيه مسامحة لضيق العبارة في هذه المجال، والله أعلم، ولأنّها أيضاً غير مقصودة الإطلاق، وإنما المراد بها إفهام المعنى خاصة.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا يحيطون بشيء من علمه إلّا بما شاء).**

أي بشيء من معلوماته، دلّ على صحّة[2] ذلك حرف الاستثناء، والبعضية والكلية لا تعقل بالنسبة إلى العلم، فتعين حمله على متعلّق العلم، وإطلاق العلم على المعلوم كثير. وقد ورد عن الصحابة ﷺ: اللهم اغفر لنا علمك فينا، أي معلومك. وفي قصة الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «وما نقص علمي وعلمك من علم الله» يريد من معلوم الله، وهذا لا خفاء به.

[معنى الكرسي والعرش]

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾).

الكرسي مخلوق عظيم من مخلوقات الله تعالى، والعرش أعظم منه، والسماوات والأرض في جنبه كحلقة في فلاة، كما ثبت في الصحيح. وقيل: كرسيه علمه، والكرسي العلم في اللغة. والظاهر الأول.

ومعنى ﴿وَسِعَ﴾ على ذلك أي إنّه لم يضق عن السماوات والأرض

---

(١) الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب، من حديث ابن عمر مرفوعاً. وأسانيدها ضعيفة، لكن اجتماعها يكسب قوة، والمعنى صحيح. (المقاصد الحسنة، للسخاوي، ص٢٦٠).

(٢) سقط من «أ»: (صحة).

لسعته، فما ظنّك بسعة علم خالقه. فهو تخييل للعظمة.

ومعنى ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾ أي لا يثقله. وهذه مناسبة ظاهرة؛ لأنّ النفوس أبداً تجد من التعظيم والهيبة عند سماع الأشياء المحسوسة الدالة على الكبرياء ما لا تجده عند ذلك، فالمراد بذكر الكرسي وذكر العرش الذي هو أعظم منه استشعار النفوس عند سماعها عظمة الحق تعالى وكبريائه وعزه واقتداره؛ لا أنّهما محلّان للاستقرار تنزه الخالق تعالى عن التحيّز والافتقار إلى المحامل، ولهذا ختم الآية الكريمة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ اسمان من أسماء الله تعالى يدلان صريحاً على تنزيه الحق تعالى وتقديسه عن المكان والجهة، وعلى ثبوت العلى والعظمة فهو العلي بذاته المنزّه في كبريائه إزاره العظمة ورداؤه الكبرياء. وكلّ مخلوق وصف بالعظمة والمجد والشرف فليس ذاتياً له، وإنما هو بتشريفه تعالى إياه. وآنس بهذا المعنى إلى أن تصل إلى قوله: «وأنّه فوق عرشه المجيد بذاته» فتفهم أن مجد الحق تعالى إنما هو بذاته، وليس مستفاداً من غيره.

[معنى: العالم، الخبير، المدبّر، القدير، السميع، البصير، العلي، الكبير]

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (العالم الخبير).

هذان اسمان للحق تعالى، ويدلان صريحاً على صفتين لله تعالى وهما العلم والإخبار إن فسرنا الخبير بمعنى المخبر، وفعيل بمعنى مفعل كثير. وإن فسرنا الخبير بمعنى العليم فيكون أفاد مبالغة، إمّا في تعلق العلم بالخفيات لأن الخبرة علم الخفي أو في كثرة المعلومات؛ لأن فعيلاً أبلغ من فاعل، وأيّاً ما كان فليس فيه ترادف.

[حكم تسمية الله تعالى بغير ما ورد في الشرع]

وأمّا قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (المدبّر).

لم يرد في الأسماء الحسنى، وورد في القرآن فعلاً، قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة: ٥] والأصل في هذا أنه لا يسمّى تعالى إلّا بما سمّى به نفسه أو سمّاه به رسوله أو أجمعت عليه الأمة.

واختلف فيما ورد في أسمائه بخبر الآحاد، فمنعه الشيخ أبو الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وحجّته قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وخبر الواحد لا يحصّل علماً. وأجازه الجمهور، قالوا: لأنّه من باب العمل والعمل يكتفى فيه بخبر الواحد.

فإذا تقرّر هذا فمن أطلق عليه ما لم[1] يرد فيه إذن أو اشتق له من أفعاله اسماً، فلا يخلو إمّا أن يكون موهماً أَوْ لَا؛ والموهم ممنوع بالإجماع؛ وإن لم يوهم وكان يدل على كمال وأجري وصفاً، فأجازه القاضي ومنعه غيره طرداً للقاعدة. فقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المدبر» يحتمل أحد معنيين، إمّا أنه العالم بمآل الأمور وعواقبها وما خفي منها، من قول العرب: لطيف التدبير في صنعته، معناه عالم بخفيات معانيها؛ وإمّا أن يكون بمعنى المريد المنفذ لما أراده على غاية الإحكام والإتقان، فيفيد معنى إبرام الأمر وإحكامه ـ والله أعلم ـ فخرج الاسم على هذا مخرج الوصف من غير قصد تسمية له تعالى بذلك، ليشعر بعموم تعلق علمه تعالى بالجزئيات.

وأما قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(القدير، السميع، البصير، العليّ، الكبير).**

فأسماء ثابتة بالقرآن والسنة والإجماع. وتدلّ صريحاً على إثبات القدرة له تعالى والسمع والبصر.

وقدرته تعالى متعلقة بجميع المقدورات، عامة في تعلّقها. وهو الموصوف بها تعالى. نصّ على ذلك القرآن في قوله: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠] وقد شهدت الأفعال بوجوب اتصافه تعالى بالقدرة.

وأمّا سمعه وبصره، فقد نصّ عليهما القرآن قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقال تعالى مخبراً عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ [مريم: ٤٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] وقد شهدت الأفعال بوجوب اتصافه تعالى بالكمال، والسمع والبصر من

---

(١) سقط من «ب»: (لم).

صفات الكمال فوجب اتصافه تعالى بهما على ما يليق بكماله وجلاله. وكما أنّ ذاته تعالى لا تشبه الذوات، فكذلك صفاته لا تشبه الصفات، إذ الموصوف بالقدم يستحيل اتصافه بما يدلّ على حدوثه.

[معنى قول المصنف: وأنّه فوق عرشه المجيد بذاته]

وقوله رحمه الله: (وأنّه فوق عرشه المجيد بذاته. وهو في كلّ مكان بعلمه).

روي «المجيد» بالرفع، على أنّه خبر مبتدأ. وروي بالخفض، على النعت للعرش.

هذا ممّا انتقد على المصنّف رحمه الله. وإذا فهم معناه فليس بمنتقد.

اعلم أوّلاً أن هذا الكلام وهذا الإطلاق ليس من إطلاق المصنّف، وإنما هو إطلاق السلف الصالح والصدر الأول؛ نصّ على ذلك الإمام أبو عبد الله بن مجاهد(١) في رسالته إلى أهل باب الأبواب(٢)، قال فيها ما نصّه: «وممّا أجمعوا على إطلاقه أنّه تعالى فوق سماواته، على عرشه، دون أرضه» يريد إطلاقاً شرعياً، ولم يرد في الشرع أنه في الأرض، فلهذا قال: دون أرضه. وهذا مع ثبوت علمهم باستحالة الجهة عليه تعالى، فليس هذا عندهم مشكلاً؛ لعلمهم بفصاحة العرب واتساعهم في الاستعارات. ونقل هذا الكلام بعينه الشيخ أبو محمد(٣) في مختصره(٤)، وغيّر لفظه هنا(٥)، قصداً للتقريب على المبتدي.

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مجاهد الطائي البغدادي، الإمام الفقيه الأصولي العالم النظار المتكلم، صاحب الإمام الأشعري. له كتب حسان في أصول الفقه والعقيدة. توفي سنة: ٣٧٠هـ. (شجرة النور: ٩٢).

(٢) كذا في «أ»، وفي «ب»: (أهل باب من الأبواب).

(٣) هو ابن أبي زيد القيرواني.

(٤) عنون ابن أبي زيد هذا المختصر بـ«كتاب الجامع في السنن والآداب والحكم والمغازي والتاريخ وغير ذلك» وألحقه بعنوان آخر هو «مختصر من السماعات عن مالك ومن الموطأ وغيره مضاف إلى مختصر المدونة» أمّا الكلام الذي أورده ابن أبي زيد في المختصر فهو كالآتي: «وأنّه فوق سماواته على عرشه دون أرضه، وأنّه في كل مكان بعلمه» (كتاب الجامع: ص١٤١). فقد أسقط في الرسالة لفظ «بذاته».

(٥) في «أ»: (هذا) والمراد بـ«هنا» أي الرسالة.

فإذا تقرر هذا فالناس عالة على الصدر الأول. وإذا كان إطلاقهم هذا، فيتعيّن تفهمه بالتمثيل والبسط، إذ غلبت العجمة على القلوب حتى ظنّت أنّ هذا الإطلاق يلزم منه ثبوت الجهة في حق المنزّه عنها تعالى وتقدس.

فأما لفظ الفوقية فمشترك بين الحسّي والمعنوي، والقرينة تخصّص المراد منها؛ أو يكون من باب الحقيقة والمجاز، فهو حقيقة في الأجرام مجاز في المعاني. وكم من مجاز يترجّح على الحقيقة.

وأما العرش فهو اسم لكلّ ما علا وارتفع. والمراد به هنا مخلوق عظيم هو سقف الجنة، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: ٢٦].

وأما المجد فهو الشرف والرفعة.

فإذا تقرر هذا فمحمل «فوق» على الحسّ معلوم الاستحالة بالدلائل اليقينية، لتقدسه تعالى عن الجواهر والأجسام. ومعلوم ذلك من سياق كلام المصنف، بحيث لا يوهم على قارئه أنّه أراد الحس[1].

فهو تعالى فوق العرش فوقية معنى وجلال وعظمة.

ثمّ الفوقية المعنوية من حيث هي فوقية، إمّا أن تكون واجبة بالذّات، أو مستفادة من حكم الغير لا ترجع لمعنى في الذات.

وفوقية كلّ من سوى الله تعالى لا ترجع لمعنى في الذّات، وإنما ذلك بحكم الله تعالى وتشريفه، فهو تعالى وصف العرش بالمجد والعظم، وجعله أعظم المخلوقات.

وعلوّ الله ومجده ليس كعلوّ غيره، بل هو مخالف لكل المخلوقات مخالفة مطلقة؛ فمجده تعالى وعظمته وعلياؤه حكم واجب له بذاته، لا يشارك فيها. وسواء قلنا على هذا إنّ العرش نعت بالمجد، أو المجد خبر مبتدأ، فأراد المصنّف أن يبيّن أنّ ذلك العلوّ والمجد والجلال الذاتي ليس[2] إلّا لله

---

(١) سقط من «ب»: (ومعلوم ذلك . . . الحس).

(٢) سقط من «أ»: (ليس).

رب العالمين، كأنه يقول: هو العليّ المجيد بذاته، ليس ذلك مستفاداً من غيره.

وإن قلنا «بذاته» متعلق بـ«فوق»، والمجد نعت للعرش؛ فكأنه يقول: هو فوق أعظم المخلوقات وأرفعها فوقية وعظمة وجلالاً بذاته، لا بتشريف مشرّف ولا بتخصيص مخصّص، بل بذاته العليّة المقدّسة عن الاحتياج.

و«فوق» بمعنى «علا» مشهور، وهما لفظان مترادفان يستعمل أحدهما في موضع الآخر.

وخصّ العرش بالذكر دون غيره من المخلوقات؛ لأنّه الذي ورد به الإطلاق الشرعي، ولأنّه من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى، فأراد أن يوفّق بين ما يجب اعتقاده وبين ما يصحّ إطلاقه.

واعلم أنّ الصيغ التي تطلق في هذا المعنى أربعة أقسام:

- فمنها ما يصحّ إطلاقاً واعتقاداً. ومثاله قوله: «وإنّه في كلّ مكان بعلمه».

- ومنها ما يمتنع إطلاقاً واعتقاداً. ومثاله أن تقول: إنّه في كل مكان بذاته.

- ومنها ما يصحّ إطلاقاً، ويعتقد منه ما يجب من الكمال وينفي ما يؤدّي إلى المحال. ومثاله: «وأنّه فوق عرشه».

- ومنها ما يمتنع إطلاقاً، ويجوز اعتقاداً بالمعنى الذي جوّزناه في قوله: «وأنّه فوق عرشه». ومثاله أن تقول: إنّه فوق كرسيه.

واعلم أنّه لا نصّ في الشرع في محال؛ فكلّ ما ورد من ذلك فغايته أن يكون ظاهراً؛ فما ظاهره المحال فلا خلاف بين أهل السنة في طرح ذلك الظاهر؛ ثمّ ينظر فيما يحتمله ذلك اللفظ بعد الطرح، فإن احتمل واحداً تعيّن الحمل عليه، ولا خلاف بينهم في هذا أيضاً، وإن احتمل أكثر من واحد فهنا اختلف السلف والخلف.

فجمهور السلف وقف في ذلك لأنّه صار من قبيل المجمل، ولا سبيل

لتعيين أحد المحامل إلّا من جهة الشرع؛ فصار متشابهاً فوجب الوقف، وعن هذا قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ لمن سأله عن آية الاستواء: «الاستواء معلوم» أي معلوم محامله في اللّسان. و«الكيف غير معقول» أي وما يؤدي إليه الظاهر من الكيف غير معقول؛ لأنّه مستحيل. «والسؤال عن هذا بدعة» أي والسؤال عن تعيين أحد المحامل في اللفظ المتشابه بدعة، فمشى في ذلك على طريق جمهور السلف.

وأمّا الخلف فقالوا: الوقف في زماننا يؤدّي إلى طعن المبتدعة في الدين، وتوهيمهم على الضعفاء من المسلمين؛ فأوّلوها على الأوجه الصحيحة، وفرّقوا بين الغثّ والسمين[١]، واعتضدوا بذلك بقول رسول الله ﷺ: «يحمل هذا العلم من كلّ خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين، وتأويل المبطلين»[٢] وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين»[٣]. فهذا هو الباعث للخلف على التأويل، والله سبحانه أعلم.

[علم الله تعالى وتعلقاته]

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه).

«خلق» يكون بمعنى أوجد، ويكون بمعنى التقدير، وظاهره هنا الإيجاد.

والمراد بالإنسان الجنس. ويحتمل أن يراد به آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وضعّفه بعضهم، وقال: هو عام في غير الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لأجل ذكر وسوسة النفس؛ لأنّهم معصومون من ذلك.

---

(١) سقط من «ب»: (فأولوها . . . والسمين).

(٢) أخرجه البزار، وفي سنده عمرو بن خالد القرشي، كذبه يحيى بن معين وأحمد بن حنبل ونسبه إلى الوضع (مجمع الزوائد، كتاب العلم، باب أخذ الحديث من الثقات).

(٣) أخرجه أبو داود في السنة، باب شرح السنة؛ والترمذي في الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة وقال: حسن صحيح؛ ولفظه: «افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة».

والوسوسة هو ما يختلج في النفس. واستعمالها في الغالب في غير الخير، ولهذا أضيفت النفس، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣] إلى غير ذلك.

وتطلق النفس[١] ويراد بها حقيقة الشيء وذاته؛ ويراد بها أيضاً الروح؛ وأيضاً قد يسمّى القلب نفساً إلى غير ذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهو أقرب إليه من حبل الوريد).

«الوريد» عرق في العنق. وإضافة الحبل إليه من باب إضافة الجنس إلى نوعه، نحو قولهم: لا يجوز حيّ الطير بلحمه[٢].

وقرب الحق تعالى من الإنسان قرب إحاطة، لا قرب مسافة. أي إنّه لا يغيب عنه من أمره شيء، وإنّه تعالى المطّلع على الجليّ من أمره والخفي.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها).

تنبيه على تعلّق علمه تعالى بالخفيات.

و«الورقة» قيل: أيّ ورقة كانت في جميع أقطار الأرض. وقيل: المراد به ورقة شجرة تشبه الرمّان تحت ساق العرش، فيها أوراق على عدد أرواح الخلائق، مكتوب في كل ورقة اسم صاحبها، وملك الموت ينظر إليها، فإذا اصفرّت منها ورقة علم قرب أجل صاحبها، فيوجه إليه أعوانه، فإذا سقطت قبض روحه. وفي بعض طرق هذا الأثر أنّ سقوطها على ظهرها علامة على حسن العاقبة، وسقوطها على بطنها علامة على سوء العاقبة والعياذ بالله.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين).

المراد بالحبّة هنا أقل قليل، عبّر عنه بالحبّة تقريباً للأفهام. ولو حمل ذلك على حبّة يتأتّى قسمتها لبقي في الآية السؤال: هل هي معلومة لله أم لا؟ ويبطل معنى الآية على ذلك، فتعين ما قلناه. وذلك الأقل هو المسمّى في الاصطلاح بالجوهر الفرد الذي لا يقبل القسمة.

---

(١) سقط من «ب»: (قال الله . . . النفس).

(٢) في «أ»: (لا يحول حتى الطير بلحمه).

والرطب واليابس، قيل: هما على ظاهرهما؛ وقيل: الرطب قلب المؤمن، واليابس قلب الكافر.

والكتاب المبين، هو اللوح المحفوظ. أخبر تعالى أنّ فيه علم كلّ شيء تقريباً للأفهام، فإنّ الشيء المكتوب لا ينسى فيما يعتاده الخلائق؛ وإلّا فعلمه تعالى متعلق بجميع المعلومات على التفصيل. قال تعالى مخبراً عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ﴾ [طه: ٥٢] ثم نفى ما يستحيل من ذلك من توقّع نسيان وضلال فقال: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

وقوله رحمه الله: (على العرش استوى).

قد تقدّم ما يغني عن الكلام عليه.

ومعنى [قوله] (وعلى الملك احتوى).

أي إنّ كلّ شيء في قهره وقبضته، فهو مملوك له، فيلزم من ذلك استغناؤه تعالى عن كلّ شيء الغناء المطلق. إذ هو منتهى الحاجات، وكلّ من سواه فقد أحاطت به[1] قدرته ونفذت فيه ميشئته.

[أسماء الله الحسنى وأقسامها من حيث مدلولاتها]

وقوله رحمه الله: (وله الأسماء الحسنى، والصفات العلى، لم يزل بجميع صفاته وأسمائه).

«الأسماء» جمع اسم، وهو مأخوذ من السموّ، دليله الجمع والتصغير. وقالت المعتزلة: من السمة، وهو باطل.

و«الحسنى» أي المستحسنة. والحسن ما حسّنه الشرع، فلا أثر للاشتقاق، فلهذا يجوز عالم[2] ولا يجوز عارف، فأسماؤه تعالى توقيفية. وقد تقدّم من ذلك شيء.

والاسم يطلق تارة ويراد به المسمّى، ويطلق ويراد به التسمية. واختلف

(١) سقط من «ب»: (الغناء . . . أحاطت به).
(٢) سقط من «أ»: (عالم).

هل هو حقيقة في المسمّى[1]، مجاز في التسمية أو العكس، أو حقيقة فيهما؟ فبالأول قال الجمهور، وبالثاني قالت المعتزلة، وبالثالث قال الأستاذ أبو منصور[2] من أئمتنا.

وممّا يدلّ أن الاسم يراد به المسمّى قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١] وقوله تعالى: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءً سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ [يوسف: ٤٠].

وممّا يدلّ أنّ الاسم يراد به التسمية قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وقوله ﷺ: «إنّ لله تسعة وتسعين اسماً»[3].

فإذا تقرّر هذا، فالأسماء في دلالتها على مدلولاتها ستة أقسام:

- فمنها ما يدلّ على الذات وما وجب لها دلالة مطلقة، كاسمه تعالى «الله».
- ومنها ما يدلّ على صفة نفس الذات، كالأوّل والآخر.
- ومنها ما يدلّ على صفة إثبات الذات، كالعالم، القادر.
- ومنها ما يدلّ على صفة فعل، كالخالق، الرازق.
- ومنها ما يدلّ على نفي النقائص، كالقدّوس، السلام.
- ومنها ما يحتمل في دلالته الصفة الثانية أو الأفعال، كمؤمن يكون بمعنى مصدق، وهو خبره، وخبره كلامه، وكلامه صفته؛ ويكون بمعنى خالق الأمن، وهو فعله.

والقول الجامع في ذلك أن يقال:

كلّ ما دلّ من هذه الأسماء على الذّات، فالاسم هو المسمّى[4]. ثم

---

(١) سقط من «ب»: (ويطلق ويراد . . . في المسمى).

(٢) هو عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي، أبو منصور. عالم من أئمة الأصول. كان صدر الإسلام في عصره، ولد ونشأ في بغداد، ورحل إلى خراسان. كان يدرس سبعة عشر فنّاً. وكان ذا ثروة. له تصانيف هامّة، في علم الكلام وأصول الفقه والتفسير والفرق. توفي بأسفرايين سنة: ٤٢٩هـ (الأعلام: ٤/٤٨).

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، باب إنّ لله مائة اسم إلا واحدة؛ ومسلم في الذكر، باب في أسماء الله تعالى.

(٤) أي مدلول الاسم الذات فقط.

التسمية إن كانت بكلام الله تعالى فلا هي المسمّى ولا غيره[1]. وإن كانت بكلامنا هي غيره[2].

وكلّ ما دلّ على الصفات، فالاسم لا هو المسمّى، ولا هو غيره[3]. ثم التسمية إن كانت بكلام الله تعالى فلا هي المسمّى، ولا هي الاسم[4]، ولا هي غيرهما[5]. وإن كانت بكلامنا[6] فهي غير الاسم و[7]غير المسمى.

وكلّ ما دلّ على الأفعال، فالاسم غير المسمّى[8]. ثمّ التسمية إن كانت بكلام الله تعالى فلا هي المسمّى ولا غيره، وهي غير الاسم. وإن كانت بكلامنا فهي غير المسمّى[9].

قال الأستاذ أبو إسحاق[10]: وقد يكون الاسم والتسمية والمسمّى واحداً، كإخباره تعالى عن كلامه بالصدق، فالتسمية والمسمّى والاسم هو الكلام لا غير.

ومن أصحابنا من قال: المراد بالاسم المسمّى عن كل حال، وسواء دلّت التسمية على الذات، أو أشعرت بصفة الذّات، أو فعل؛ قال في «الخالق»: اسم للذّات لا للخلق، و«العالم»: اسم للذات لا للعلم. وعلى التفسير الأول درج الجمهور. وأمّا المعتزلة فالاسم غير المسمّى عندهم على كل حال، قالوا: والمراد به التسمية حيث وقع.

---

(١) أي أن التسمية التي هي كلامه تعالى ليس هو عين الذات ولا هو غيرها.

(٢) أي إن كانت التسمية بكلامنا فهي قول الواحد منها، وهي غير الذات، وهو واضح.

(٣) مثال ما دل على الصفات لفظ العالم، فالاسم هنا علمه والمسمى ذاته، والعلم لا هو ذاته تعالى ولا هو غيره.

(٤) في «ب»: (ولا هي غيره).

(٥) سقط من «ب»: (ولا هي غيرهما).

(٦) سقط من «أ»: (بكلامنا).

(٧) سقط من «ب»: (غير الاسم و).

(٨) مثال ما دل على الأفعال لفظ الخالق.

(٩) سقط من «ب»: (وكل ما دل . . . المسمى).

(١٠) الأسفرايني، هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحاق: عالم بالفقه والأصول، كان يلقب بركن الدين. توفي سنة: ٤١٨هـ. من مصنفاته: الجامع في أصول الدين. وله مناظرات مع المعتزلة (الأعلام: ١/ ٦١).

وسبب الخلاف بيننا وبينهم أنّا نقول بإثبات الكلام القديم، وهم نافوه، وكذلك سائر الصفات، فلم تثبت لله تعالى على زعمهم أسماء في أزله ولا صفات. وقد شهدت قضايا العقول ودلائل الشرع المنقول بوجوب اتصاف الحقّ تعالى بصفات[1] الكمال، وقضت باستحالة النقص وكلّ ما ينافي الجلال. ولهذا أكّد المصنّف رحمه الله تعالى هذا لفصل بـ:

قوله: (تعالى أن تكون صفاته مخلوقة وأسماؤه محدثة).

أي إنّ صفاته تعالى يجب أن تكون قديمة لاستحالة قيام الحوادث به تعالى، وكذلك أسماؤه؛ لأنّها ثابتة بكلامه القديم.

[صفة الكلام]

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كلّم موسى بكلامه الذي هو صفة ذاته).

بيّن لك أنّ الكلام الذي كلّم به موسى هو صفته الموجودة بذاته. ثم أكّد ذلك بـ:

قوله: (لا خلق من خلقه).

لأنّ الكلام كلّه يضاف لله تعالى، فإن كان مخلوقاً فهي إضافة ملك، وإن كان قديماً فإضافته إضافة صفة. ولو كان موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إنّما سمع كلاماً مخلوقاً في الشجرة أو في غيرها كما تقول المعتزلة، لم يختصّ باسم الكليم، ولبطل معنى قوله تعالى: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]؛ إذ كلّ من سمع كلاماً أيّ كلام كان فيصدق عليه أنّه سمع كلام الله سبحانه، فأيّ مزية لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في ذلك على غيره، وأيّ معنى يبقى لقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، أو أيّ فائدة تثبت لقوله: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فلا بدّ وأن يكون اختص بسماع الكلام الذي هو صفة الحق تعالى المنزّه عن الحرف والصوت، فسمعه بأذنيه وفهمه بقلبه وعلم بضرورته أنّ الله تعالى يكلّمه من غير واسطة. قال القاضي أبو بكر بن

---

(١) سقط من «ب»: (وقد شهدت . . . بصفات).

فورك[١]: وعلى هذا إجماع المسلمين. وما ذكر عن عبد الله بن سعيد[٢] هنا فتؤوّل عنه. واعلم أنّ الله تعالى جعل هذا العالم سلّماً للعلم به تعالى، بالنظر فيه يرتقى إلى العلم بما يجب لله تعالى وما يستحيل عليه. وليس ذلك على معنى المقايسة[٣] والمشابهة، بل على معنى الترقي، فحينئذ تقول: الكلام عند أهل الحقّ صفة تقوم بنفس المتكلّم تدل عليه العبارات وما يصطلح عليه من الإشارات، واحتج على ذلك بقول الأخطل:

إنّ الكلام لفي الفؤاد وإنّما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ومذهب جمهور المتأخرين[٤] وذلك هو المعبّر عنه بالكلام النفسي. فإذا تقرر هذا فحينئذ نقيم الدلالة على وجوب اتصاف الله تعالى بالكلام فنقول: الباري تعالى ملك مطاع ﷻ، آمر وناه. والأمر والنهي يرجعان إلى الكلام، ويستحيل أن يقوم أمره ونهيه بغيره، فلا بدّ وأن يتّصف بالكلام ضرورة. أمّا إنّه تعالى آمر وناه فمن المعلوم الثابت؛ وأمّا إنّ الأمر والنهي يرجعان إلى الكلام فلما تقرر أنهما نوعان من أنواع الكلام؛ وأمّا استحالة قيامهما بغيره فلأن الصفة إنما يوجب الحكم لما تقوم به. وأيضاً فلما يلزم عنه من تجديد الأحكام على القديم، وهو محال إلى غير ذلك.

أو تقول: الباري تعالى عالم، والعلم يلازمه الخبر عن المعلوم

---

(١) سقط من «أ»: (بن فورك) وابن فورك هو: محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، أبو بكر، واعظ، عالم بالأصول والكلام، من فقهاء الشافعية. له تصانيف في أصول الدين وأصول الفقه ومعاني القرآن والحديث. توفي سنة: ٤٠٦هـ (الأعلام: ٦/ ٨٣).

(٢) في النسخة المخطوطة: «بن مسعود» والتصحيح من شرح القلشاني. وعبد الله بن سعيد هو الإمام أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان، إمام متكلمي أهل السنة في عهد أحمد بن حنبل. وكان ممن يرافق الحارث بن أسد. وهو أخو يحيى بن سعيد القطان إمام الجرح والتعديل. وانظر ما ذكره في صفة الكلام حتى قال الشارح: فمتأوّل عنه، فيما كتبه محمد زاهد الكوثري في تعليقاته على كتاب تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري: ص٢٩٨.

(٣) في «أ» و«ب»: (المقاسمة) والصواب ما أثبتناه.

(٤) سقط من «ب»: (عبد الله بن مسعود . . . المتأخرين).

ضرورة. والخبر من أنواع الكلام؛ فالباري تعالى متكلم.

أو تقول: قد شهدت الأفعال بكمال خالقها، والكلام من صفات الكمال ضرورة؛ لأنّ ضدّه نقص؛ فلا بدّ وأن يتّصف بالكلام.

أو نقول: المعجزات دلّت على صدق الأنبياء ﷺ وعلى تصديقهم؛ فلا بدّ وأن يقوم التصديق بالمصدّق؛ وليس إلّا الكلام الذي هو صفة المصدّق، إذ يستحيل أن يرجع إلى الفاعل من فعله صفة، إذ يلزم على مقتضاه أن يكون موصوفاً بالحركة والسكون عندما يخلقها في محلّ. وكذلك سائر الأفعال، وهو محال بالبديهة، إلى غير ذلك من الدلالة، فهو تعالى متكلّم بكلام هو صفته لا مفتتح لوجوده، ولا غاية لمتعلقاته، وهو واحد لا يتعدد بتعدد المتعلقات، كما إنّ العلم واحد ولا يتعدد بتعدد المعلومات، وكذلك القول في سائر الصفات؛ قضت بذلك كلّه بدائه العقول، وثبت علمه من الشرع المنقول. والله تعالى قادر على أن يخلق السمع لكلامه لمن شاء من عباده، فخلقه لموسى إجماعاً. ولنبيّنا ﷺ على قول الأكثر، وسيخلقه الله تعالى لعباده المؤمنين عموماً في الآخرة.

[معنى تجلّي الله تعالى للجبل]

وقول المصنف: (وتجلّى للجبل فصار دكّاً من جلاله).

أي ظهر، وظهوره عبارة عن خلق الرؤية في محلّ من تجلّى له فرآه بها. قال القاضي أبوبكر: «خلق الله تعالى للجبل حياة وعلماً وإدراكاً فرأى الله تعالى فتدكّ وذاب من جلال الحق تعالى. وكذلك رفع المانع من بصر موسى ﷺ فرأى الله تعالى[1] فخرّ صعقاً». قال: «وصعقه ليس لتدكّ الجبل، وإنّما هو لما تدكّ الجبل له، ولهذا أعطفه بالواو المشتركة في المعنى»، قال: «والدليل على صحة ذلك أنّه ﷺ لمّا سأل الرؤية قيل له: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي لن تراني

---

(١) سقط من «ب»: (فتدك . . . تعالى).

مطلقاً، ولكن انظر إلى هذا الذي هو أشد بنية منك، فإن أطاق رؤيتي فستقع لك الرؤية في المستقبل، وإن لم يطق فتقع الآن وأنت غير مطيق» قال: «ولو حملناه على نفي الرؤية حالاً ومآلاً، مطيقاً وغير مطيق، لزم عروّ الاستدراك عن الفائدة، إذا نفيها استفيد من قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ وعروّه عن الفائدة مستحيل، فلا بدّ وأن يحمل قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ على نفي مقيد، لا على النفي المطلق».

أورد بعضهم على هذا سؤالاً فقال: قد أطلقت الأمّة أنّ الله خصّ نبينا ﷺ برؤيته وموسى عليه السلام بسماع كلامه[1]؛ وأي خصوصية تبقى مع هذا التقدير؟ ثم قال مجيباً عن ذلك: نبينا عليه السلام رأى ولم يصعق، وموسى عليه السلام رأى وصعق، فالخصوصية ثابتة والحمد لله.

وذهب جمهور العلماء أنّ الإيمان بالتجلّي للجبل واجب، وهل هو بخلق الرؤية للجبل حتى رأى الله تعالى، أو أراه من عظمته وسلطانه ما تدكدك من أجله، والله أعلم بذلك[2]. وكلّ ما ذكره القاضي في ذلك فليس بقاطع، وغايته أن يكون ظاهراً والله أعلم.

[معنى القرآن لغة وشرعاً، وأنّه كلام الله تعالى، وأنّه غير مخلوق]

قوله رحمه الله: (وإنّ القرآن كلام الله).

القرآن[3] لغة هو المجموع. ومنه قولهم: قرأت الماء في الحوض، إذا جمعته؛ وقرأت الناقة لبنها في الضرع إذا جمعته. وقيل: ليس بمشتق من شيء، وإنّما هو توقيف.

ويطلق تارة[4] ويراد به الكلام القديم؛ ويطلق تارة ويراد به العبارة عنه التي هي قراءة الخلق؛ ويطلق على المكتوب أيضاً. ولشهرته في الكلام القديم فلا يفهم عند الإطلاق إلّا هو؛ فلهذا امتنع إطلاق القول بـ«القرآن مخلوق». واختلف العلماء إذا كان الإطلاق مقيداً مثل أن يقول: كلامي بالقرآن مخلوق،

---

(١) سقط من «ب»: (أنّ الله . . . كلامه). (٢) سقط من «أ»: (بذلك).
(٣) سقط من «أ»: (القرآن). (٤) سقط من «أ»: (تارة).

أو نطقي، أو ما أشبه ذلك من الصيغ التي ينتفي معها الإيهام؛ فذهب الإمام أبو عبد الله البخاري وعبد الله بن سعيد إلى جواز ذلك، وهو مذهب أكثر المتأخرين[1]. وذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى الامتناع من ذلك مطلقاً، كان اللفظ مطلقاً أو مقيّداً. وأمّا الإمام مالك رحمه الله لم يسمع عنه في ذلك شيء. قال بعضهم: والصحيح ما قاله البخاري ومن تبعه في ذلك؛ لأنّ الحكم إذا علّل بعلة فإنه ينتفي بانتفائها، قال: وإنّما امتنع الإمام أحمد من ذلك لأنّه امتحن على أن يقول بخلق القرآن فأبى، فقيل له: قل لفظي بالقرآن مخلوق، فقال: ولا أقول ذلك، ولا يسمع مني التلفّظ بالخلق مع ذكر القرآن، مع ما في ذلك اللفظ من معنى المج والطرح، فاتقى رضي الله عنه أن توهم المبتدعة على السامعين القول بخلق القرآن، ويتوصلون بذلك إلى غرضهم، فامتنع من كلّ إطلاق يؤدي إلى ذلك حسماً للذريعة، وصبر على ما أوذي في الله تعالى. ثم حدثت فرقة أخرى بعد وفاته رحمه الله، وقالوا: إنما امتنع من ذلك لأنّه يقول بقدم الحروف، فاعتقدوا ذلك ونسبوه إليه وتسمّوا بالحنابلة، وحاشاه منهم، والله حسبهم.

وقوله رحمه الله: (ليس بمخلوق فيبيد، ولا صفة لمخلوق فينفد).

لمّا أن كان الموجود الحادث إمّا جوهراً وإمّا عرضاً؛ وكلّ جوهر فهو فانٍ أو بصدد الفناء فعبّر عن ذلك بقوله: «فيبيد». وكلّ عرض فهو مستحيل البقاء، فليس له في الوجود إلّا زمن واحد، فعبّر عنه بقوله: «فينفد». وكلّ مخلوق فلا يخرج عن الوصفين؛ وقد خرج القرآن عنهما، فليس بمخلوق. وروي عن النبي ﷺ أنّه قال: «القرآن كلام الله ليس بمخلوق»[2] وقال السيد علي رضي الله عنه بمحضر الجمهور من الصحابة: «أتظنّون أنّي حكّمت مخلوقاً؟ والله ما حكّمت مخلوقاً، وإنّما حكّمت القرآن»[3]. وسمع ابن عباس رضي الله عنه رجلاً يقول: يا رب القرآن فنهاه، وقال له: «القرآن غير مربوب، وإنّما المربوب

(١) سقط من «ب»: (الإمام أبو عبد الله .... المتأخرين).
(٢) لا يعرف مرفوعاً إلى النبي ﷺ ولا إلى أحد من أصحابه.
(٣) البيهقي في الأسماء والصفات؛ وابن أبي حاتم في السنة. (جامع الأحاديث والمراسيل: ١٨/٢٤٨).

المخلوق»[1]. وقال الأستاذ أبو الحجاج الضرير في هذا المعنى:

قراءة الخلق صفات لهم ... فواجب حدوثها مثلهم
وقوله المقروء من صفاته ... فواجب قدمه كذاته
وهو الذي سمعه الكليم ... وهو كلام ربنا القديم
ليس له شبه ولا مثال ... ولا له عن ذاته انتقال
وهذه الرسوم والأصوات ... دليل عليه موضوعات
كما يدلّ الذكر والكتاب[2] ... عليه جلّ الملك الوهاب
ثمّ القراءة[3] ذوات غاية ... وليس للمقروّ من نهاية
فنوعت القرآن بالكتاب[4] ... وليس للمقروّ من إيعاب
كما أتى في محكم القرآن ... في آخر الكهف وفي لقمان

يريد قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ الآية [الكهف: ١٠٩]، وقوله تعالى في لقمان: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ الآية [لقمان: ٢٧].

[الإيمان بالقدر]

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والإيمان بالقدر خيره وشرّه حلوه ومرّه).**

القدر: الإرادة. والخير: الطاعة. والشر: المعصية. والحلو: لذّة الطاعة. والمرّ: مشقة المعصية. وألم عقابها.

وقيل: الخير والحلو لفظان مترادفان، وكذلك الشرّ والمرّ.

والإيمان بالقدر واجب، لا يصحّ الإيمان بدونه. وقد تبرّأ عبد الله بن عمر ممّن أنكر القدر، وقال: لا يتقبل الله منهم. وعنه عليه الصلاة والسلام أنّه قال: «لعنت القدرية على لسان سبعين نبيّاً، آخرهم أنا»[5]، وقال: «القدرية

---

(١) البيهقي في الأسماء والصفات ص:٢٤٢. وإسناده ضعيف.
(٢) في «ب»: (الكتب). (٣) في «أ»: (القرآآت).
(٤) في «أ»: (فتوعب القراءة بالكتاب).
(٥) أخرجه الدّارقطني في العلل عن علي، بدون جملة «آخرهم أنا» (جامع الأحاديث والمراسيل: ٦/ ٣٧).

مجوس هذه الأمة»[1]. والقدري هو مدّعي القدر لنفسه. وقد ورد عن علي رضي الله عنه أنه قال لقدري: أتقدر بالله، أم مع الله، أم دون الله. فإن قلت بالأول فأنت مؤمن، وإلا ضربت عنقك. وقال لآخر: أخلقك كما شاء أو كما شئت؟ قال: كما شاء؛ قال: ويصرفك فيما شاء أو فيما شئت؟ قال: فيما شاء؛ قال: ويصيّرك إلى ما شاء أو إلى ما شئت؟ قال: إلى ما شاء[2]؛ قال: إذا ليس لك من الأمر شيء؛ فتباً لطائفة يقولون: إنّ الله تعالى يخلق الخير، ولا يخلق الشرّ، ولا يقع بإرادته، ويجعلون لله شريكاً في ملكه ويتعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

[روى] مسلم[3]: جاء مشركو العرب يخاصمون النبي ﷺ في القدر، فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٧ ـ ٤٩].

وفيه سؤال عمران عن القدر، وجوابه ﷺ للرجلين من مزينة بكل شيء قضى عليهم ومضى فيهم. قال: وتصديق ذلك من كتاب الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: ٧ ـ ٨] الحديث[4].

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة، باب القدر؛ والحاكم في الإيمان، باب القدرية مجوس هذه الأمة، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، إن صح سماع أبي حازم من ابن عمر، ووافقه الذهبي.

(٢) سقط من «ب»: (أو فيما شئت . . .).

(٣) أخرجه مسلم في القدر، باب كل شيء بقدر.

(٤) مسلم في القدر، باب كل شيء بقدر. عَنْ أَبِي الأَسْوَدِ الدِّئلِيِّ قَالَ: قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ: أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَىٰ عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرِ مَا سَبَقَ؟ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ وَثَبَتَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ، وَمَضَىٰ عَلَيْهِمْ. قَالَ: فَقَالَ: أَفَلَا يَكُونُ ظُلْماً؟ قَالَ: فَفَزِعْتُ مِنْ ذٰلِكَ فَزَعاً شَدِيداً. وَقُلْتُ: كُلُّ شَيْءٍ خَلْقُ اللهِ ومِلْكُ يَدِهِ. فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ. فَقَالَ لِي: يَرْحَمُكَ اللهُ إِنِّي لَمْ أُرِدْ بِمَا سَأَلْتُكَ إِلَّا لأَحْزِرَ عَقْلَكَ. إِنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ مُزَيْنَةَ أَتَيَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ، وَيَكْدَحُونَ فِيهِ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَىٰ فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ، أو فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ، وَثَبَتَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ: «لَا. بَلَ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَىٰ =

وفيه: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة» الحديث[1].

وفيه: «كل شيء بقضاء وقدر، حتى العجز والكيس»[2].

وفيه: «إنّ الله تعالى كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض»[3].

[صفة الإرادة وقدم اتصافه تعالى بها]

قال القاضي أبو بكر[4] وغيره من أئمّة الدين: والقدر في جميع هذه الأحاديث المراد به الإرادة. قال بعض الأئمّة: أجمعوا أنّ قدرة الله تعالى هي عين إرادته. واختلفوا في قضائه فمنهم من ردّه إلى الإرادة، ومنهم من ردّه إلى الفعل. فالله تعالى مريد بإرادة موجودة بذاته لا مفتتح لها لاستحالة قيام الحوادث بذاته. وهي متعلقة بجميع المتعلقات. فالكائنات كلّها خيرها وشرّها، حلوها ومرّها، عرفانها وذكرها، إيمانها وكفرها؛ خلق الله تعالى

= فِيهِمْ. وَتَصْدِيقُ ذٰلِكَ فِي كِتَابِ الله ﷻ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾».

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب خلق آدم وذريته؛ ومسلم في القدر، باب كيفية خلق الآدمي؛ عَنْ عَبْدِ اللهِ، قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ، وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً. ثُمَّ يَكُونُ فِي ذٰلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذٰلِكَ. ثُمَّ يَكُونُ فِي ذٰلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذٰلِكَ. ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ. وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ. فَوَالَّذِي لَا إِلٰهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ. فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ. فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ. فَيَدْخُلُهَا. وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ. حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ. فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ. فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَيَدْخُلُهَا».

(٢) أخرجه مالك في القدر، باب النهي عن القول بالقدر؛ ومسلم في القدر، باب كل شيء بقدر؛ عن عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كُلّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ، أَوِ الْكَيْسِ وَالْعَجزِ».

(٣) أخرجه مسلم في القدر، باب حجاج آدم وموسى ﵉. عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ».

(٤) هو الإمام الباقلاني.

مرادة له، فلا رادّ لأمره، ولا معقّب لحكمه، يفعل في ملكه ما يريد، ويحكم في خلقه ما يشاء نصّ على جميع ذلك القرآن، وأجمع عليه السلف الصالح ومن تبعهم من الخلف، وشهدت له قضايا العقول.

قال الله تعالى: ﴿خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢] وقال: ﴿هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١] وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦] وقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣] إلى غير ذلك ممّا لا يحصى كثرة.

وأما الدلائل العقلية على ذلك؛ فما من موجود في أقطار السمٰوات والأرض إلّا وهو ينادي بعموم تعلق قدرة الله تعالى وإرادته، وأنه لا يشذ شيء عن مشيئته؛ لأنّ هذا المقدور الواقع[1] إما أن يقع بقدرة الله تعالى ومشيئته، أو بقدرة غير الله، أو بقدرة الله وبقدرة غيره، أو لا بقدرة الله ولا بقدرة غيره.

والأقسام الثلاثة الأخيرة باطلة؛ فوقوعه[2] إذاً إنّما هو بقدرة الله تعالى، فهو مراد له ومعلوم؛ إذ لو لم يكن مراداً لما يترجح وجوده لتساوي المقدورات في معقولية الإمكان؛ ولو لم يكن معلوماً له لاستحال القصد إليه، فيلزم منه [عدم][3] تعلق علمه تعالى بالجزئيات.

وبيان بطلان الأقسام الثلاثة المذكورة؛ أنّ وقوعه بغير قدرة الله:

- يلزم منه التخصيص والاحتياج، وهو محال في حق ذي الجلال.
- ويلزم منه تناهي المقدورات، وهو محال.
- ويلزم منه انقلاب حقيقة الممكن، وهو محال.
- ويلزم منه قيام العجز بذات القادر، وهو محال، إلى غير ذلك.

وأمّا وقوعه بقدرة الله تعالى وقدرة العبد:

---

(١) في «ب»: (الموقع). (٢) في «ب»: (فرجوعه).

(٣) غير موجودة في النسختين، ولعلها سقطت عند النسخ، وإضافتها ضرورية لتصحيح معنى الجملة.

ـ فيلزم منه أثر بين مؤثرين، وهو محال.

ـ ويلزم منه التمانع على ما تقدم بيانه، وهو محال.

وأمّا وقوعه لا بقدرة الله تعالى ولا بقدرة غيره، فيلزم منه ترجيح الممكن بنفسه، وهو محال.

ولم يبق من الأقسام إلّا الرابع، وهو عموم تعلّق قدرة الله تعالى وإرادته بكلّ ممكن.

وقوله: (وكلّ ذلك قد قدّره الله ربّنا) تأكيد للجملة الأولى وتحقيق لصحّة معناها.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ومقادير الأمور بيده، ومصدرها عن قضائه)** أي إنّ سائر الموجودات مقدّرة بمقادير مخصوصة، معدودة، محصاة له، فلا يصدر منها شيء إلّا عن قضاءه وقدره. قيل لبعضهم: ما حكم الله تعالى أزلاً[1]، وما حكمه الآن، وما حكمه في المستقبل؟ فقال: أما حكمه أزلاً[2] فقدّر مقادير الأشياء، فلا يقع الآن شيء إلّا وقد قدّر وقوعه في الأزل في وقته الخاص وصفته الخاصة، لا يتقدم شيء عن ذلك ولا يتأخر ولا يتبدل ولا يتغير؛ وأما حكمه الآن فيقضي ما قدره في أزله شيئاً بعد شيء، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] أي كلّ زمن فَرْدٍ ينفذ تعالى ما سبق به قدره، من عزّ وذلّ، وحياة وموت، وغنى وفقر، وإعطاء ومنع، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦]؛ وأما حكمه في المستقبل فهو قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

[قدم علم الله تعالى وجريان إرادته على وفق علمه]

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(علم كلّ شيء قبل كونه، فجرى على قدره)**.

أي ما من شي يكون ويقع في هذا العالم إلّا وقد علمه تعالى وأراد وقوعه؛ فجرى ذلك الواقع على حسب ما أراده وعلمه.

ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا مسألتين، يجب الاعتناء بهما.

ـ **إحداهما**: أنه تعالى عالم بما سيكون قبل أن يكون.

---

(١) في «أ»: (الآن).

(٢) في «أ»: (الآن).

ـ **الثاني**: أنّه ما علم أن سيكون فإنما يقع على قدره ومشيئته.

فأمّا الأولى، فنقول: قد ثبت بالدلائل اليقينية وجوب اتصاف الحق تعالى بالعلم المتعلّق بجميع المعلومات؛ ووجوب قدمه، لاستحالة قيام الحوادث بذاته؛ ووجوب بقائه لاستحالة عدم القديم.

فإذا تقرر هذا فيستحيل أن يتحقق حقيقة ولم[1] يتعلق بها علمه؛ لأن تعلقه بما يتعلق به هو حقيقة، فلو قدّرت معلوماً واحداً لم يتعلق به[2] علمه للزم منه إبطال حقيقة علمه؛ لأنه عام في تعلّقه فالمعلوم بالعلم تختلف أحواله، والعلم يكشفه في جميع أحواله، فتارة يكون عدماً، وتارة يكون وجوداً، وتارة يستمر وجوده، وتارة ينقطع.

فإذا كان المعلوم عدماً يسمّى نفياً[3]؛ وإذا كان وجوداً يسمّى ذاتاً وحادثاً. فإذا استمرّ وجوده سمّي باقياً. والعلم يتعلق به في جميع أحواله، ولا يلزم من اختلافها اختلاف في العلم ولا تجدد. والذي يقرّب الذهن في ذلك أنّا لو فرضنا قيام العلم ـ مثلاً ـ بزيد أنّ عمْراً يموت عند غروب الشمس، وقدّرنا استمرار ذلك حتى غربت الشمس[4]، فمات عمرو، لقطعنا أنه لم[5] يحدث في زيد حادث، ولم يتجدد عليه أمر؛ لأن علمه كشف له حالتين من أحوال عمرو، حالة هو فيها حي وحالة هو فيها ميت، وكلّ حالة مختصة[6] بوقتها، فتعلق العلم بوجوده حيّاً قبل الغروب وبأن موته منتف معدوم، وتعلق علمه بأن سيوجد موته عند الغروب وتنتفي حياته، فإذا وجد موته عند الغروب وانتفت حياته فقد وقع الشيء على وفق العلم، ولم يحدث للعالم بذلك أمر لم يكن فيه، فالاختلاف معقول متصوّر في المعلوم، وهو منتف في العلم. والأمثلة تقريب للأفهام وتشحيذ[7] للأذهان.

(١) في «ب»: (حقيقة لم).
(٢) سقط من «ب»: (هو حقيقة . . . به).
(٣) في «ب»: (يسمى بقيامه).
(٤) سقط من «ب»: (وقدرنا . . . الشمس). (٥) سقط من «ب»: (لم).
(٦) في «ب»: (محتمة). (٧) في «أ»: (تشريح).

وإذا جاز هذا في العلم الحادث مع تقدير بقائه، وإن كان مستحيل البقاء، فأحرى ثبوته في حق القديم الواجب البقاء؛ فالباري سبحانه عالم بما سيكون قبل أن يكون، وعالم بما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون؛ فالمعلومات مقيدة بالأزمان فيقدّر فيها اختلاف أحوالها وتجدد ألقابها وأسمائها؛ ومن لا يتقيّد بالزمان فلا تتجدد عليه الأحوال ولا تحدث له الأسماء.

وأمّا المسألة الثانية، فما علم تعالى وقوعه فلا بدّ أن يقع؛ لاستحالة انقلاب العلم جهلاً؛ وحينئذٍ إمّا أن يقع مراداً له أوْ لا؛ وتقدير وقوعه غير مراد له يلزم منه أن لا يكون فَعَله، وقد سبق بالدلائل أن لا فاعل إلّا الله، وإذا كان فَعَلَه فلا بدّ أن يكون مقصوداً، والقصد والتخصيص حقيقة الإرادة، فَعَلِمَ تعالى كلّ شيء قبل كونه، فجرى على قدره.

وقوله رحمه الله: **(لا يكون من عباده قول ولا عمل إلّا وقد قضاه، وسبق علمه به)**.

لمّا عمّ جميع المخلوقات بقوله: «علم كلّ شيء قبل كونه فجرى على قدره» أراد أن ينصّ على أقوال العباد وأعمالهم ويفردها بالذكر؛ لأنّها محلّ دعوى المعتزلي، ليخرج بذلك من مذهبه. وقد تقدم الدليل على ذلك كله.

وقوله رحمه الله: (﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ **[الملك: ١٤]**).

أي ألا يعلم الخالق خلقه، أيصدر مخلوق قبل أن يعلمه خالقه. فـ«من» في موضع رفع بحق الفاعلية؛ والمفعول محذوف. ولا يصح أن يكون في موضع نصب إلّا بتكلّف، فتأمّله[1] لأنه يلزم عليه الاعتزال.

و«اللطيف» اسم من أسمائه ﷻ الحسنى، وهو إمّا بمعنى ملطف فيكون من أسماء الأفعال، أو بمعنى الباطن، وهو الذي لا يتصور في الأوهام ولا يتخيل في الضمائر والأفهام، فيكون من أسماء التنزيه. ويحتمل أن يكون بمعنى العليم أي إنّه تعالى يعلم الخفيات ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] فيكون مبالغة في تعلق العلم[2]، فيكون من أسماء الصفات.

وأمّا «الخبير» فقد تقدم معناه.

---

(١) سقط من «أ»: (فتأمله).

(٢) في «أ»: (العالم).

[خلق أفعال العباد]

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (يضلّ من يشاء فيخذله بعدله، ويهدي من يشاء فيوفّقه بفضله، فكلّ ميسّر بتيسيره إلى ما سبق من علمه وقدره، من شقيّ أو سعيد).

قد تقدم في تفسير هذا شيء في الخطبة، وأنّ الهداية حقيقة هي خلق القدرة والمقدور موافقاً لأمر الله؛ وأن الضلال[1] خلق القدرة والمقدور مخالفاً[2] لأمر الرب. وضابط هذا كلّه أنّه لا خالق إلّا الله سبحانه، وكلّ مخلوق فعن قدرته حدث وعن إرادته تخصّص؛ والهدى والضلال مخلوقان من جنس الكائنات، فهما مقدوران له. وقد صرّح القرآن العظيم بهذا الإطلاق، فقال: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ٢٧] وقال: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] وقال: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧] إلى غير ذلك من الآيات.

فإن قلت: فما معنى إذاً قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥] و﴿بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨] و﴿بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨] إلى غير ذلك من الآيات التي فيها إضافة الفعل للعبيد؟

قلت: قد ورد أيضاً: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦] وورد: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢] وورد: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣] وقام البرهان على أن لا خالق إلّا الله؛ فتعيّن[3] حمل ما ظاهره مخالف لذلك على المجاز، فإضافة الفعل إلى العبد إضافة مجاز؛ لأنّه لمّا أن كان من كسبه وفي محلّه وهو موصوف بالاستطاعة عليه فأضيف إليه.

فإن قلت: هذا غير معقول؛ لأنّه إذا انتفى الخلق عن العبد لم يبق إلّا أنه مجبور، إذ الواسطة غير[4] معقولة، وعلى هذا قال الفخر ابن الخطيب رَحِمَهُ اللَّهُ[5]: والحق الجبر؟.

---

(١) في «أ»: (الضلالة).
(٢) في «أ»: (مخالفة).
(٣) في «أ»: (فتفرق).
(٤) في «ب»: (إذا ليس غير).
(٥) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين =

قلت: ليس الأمر كذلك، فإنّ الجبر[1] حقيقة خلق المقدور في محل العبد من غير خلق قدرته[2] عليه؛ والكسب خلق القدرة والمقدور معاً. وبالضرورة نجد الفرق بين حركة المرتعش وغير المرتعش؛ فهو منزلة بين منزلتين، وهو معنى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥]. وسئل الحسن[3] فقيل له: أجبر الله عباده؟ فقال: الله أعدل من ذلك؛ فقيل له: فهل فوّض إليهم؟ فقال: الله أعزّ من ذلك؛ ولو جبرهم لما عذّبهم، ولو فوّض إليهم لما كان للأمر معنى، ولكنّها منزلة بين منزلتين أبعد ما بين السماء والأرض، ولله سبحانه فيه سرّ لا تعلمونه. وقد صرّح القرآن العظيم بحقيقة هذه المنزلة، فقال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ نفي للخلق والإيجاد، وقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ إثبات للكسب والاستطاعة، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ إثبات الخلق والاختراع له ﷻ.

فإن قلت: هذا كلّه يؤول إلى تكليف ما لا يطاق؟

قلت: قال الشيخ أبو الحسن الأشعري: تكليف ما لا يطاق له صور أربع؛ فيقال: «ما لا يطاق» لما استحال وجوده في نفسه، كفرض اجتماع الضدّين؛ ويقال لما هو ممكن في نفسه، إلّا أنه ليس من جنس مقدور البشر كالألوان والجسوم[4]؛ ويقال لما هو من جنس مقدورهم إلّا أنّهم لم تخلق لهم القدرة عليه كالمشي على الماء والطيران في الهواء؛ ويقال لما جرت العادة[5]

= الرازي: الإمام المفسر. أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل. ولد سنة: ٥٤٤ وتوفي سنة: ٦٠٦هـ. من أهم كتبه في أصول الدين: كتاب الأربعين، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الفلاسفة والمتكلمين، معالم أصول الدين وغيرها (الأعلام: ٦/٣١٣).

(١) في «ب»: (ليس الأمر في الجبر). (٢) في «ب»: (قدرة).

(٣) أبو سعيد الحسن بن يسار البصري، مولى زيد بن ثابت الأنصاري، وشبّ في كنف علي بن أبي طالب، من علماء التابعين بالقرآن والفقه والأدب، ومن عباد البصرة وزهادها. توفي سنة: ١١٠هـ (الأعلام: ٢/٢٢٦).

(٤) في «ب»: (والجشوم).

(٥) سقط من «أ»: (العادة).

بخلق القدرة عليه إلّا أنّه حالة الأمر لا قدرة له[1] عليه كالأمر بالصلاة وسائر أفعال العباد. فهذه صور أربع، والقدر المشترك فيها نفي الطاقة. وكما أنّ المستحيل غير مقدور فبقية الأقسام كذلك. فأمّا الصورة الرابعة من هذه الصور فقال الشيخ أبو الحسن: التكاليف كلّها وقعت على مقتضاها؛ لأنّ قدرة العبد لا تؤثّر ولا تتقدم على المقدور ولا تصلح للضدين فيتوجه التكليف على المكلّف ولا قدرة له على الفعل؛ ولا معنى لما لا يطاق إلّا هذا. وأيضاً فقد كلّف الله تعالى بالإيمان من علم أنه لا يؤمن، ووقوع خلاف علمه مستحيل، فقد كلفه بالمستحيل وهو لا يطاق. وأمّا الصور الثلاثة الأول، فنقل الشيخ أيضاً القول[2] بجواز التكليف بها، واختلف عنه في الوقوع والأكثر على عدم الوقوع، احتج على جواز التكليف بذلك بقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قال: ولو لم يكن التكليف بذلك جائزاً لما سألوا رفعه بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦] أي ما هو في طاقتها وقدرتها. واحتج من قال بوقوع ذلك بقصة أبي لهب، فإنه كلّف أن يصدّق النبي ﷺ فيما أخبره به، ومن جملة ما أخبره أنّه لا يصدّقه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد: ١] فكان فيه الجمع بين الضدّين، وهذا فيه نظر لأنه في الحقيقة عائد إلى الصورة الرابعة، والله أعلم.

وقوله رحمه الله: **(تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد، أو يكون لأحد عنه غنى، أو يكون خالق لشيء إلا هو).**

أي تنزّه ربّ الأرباب وتقدّس، جبّار السماوات والأرض، أن يقع غير مراده، أو أن يستغني مخلوق عنه. ولو استغنى مخلوق واحد للزم استغناء جميع المخلوقات، ولا انقلب الجائز واجباً، وصار المحتاج غنياً إلى غير ذلك من المحالات.

فالعالم كلّه علويه وسفليه محتاج إلى الحق تعالى، الغنيّ على الإطلاق

---

(١) سقط من «ب»: (له).

(٢) في «ب»: (فنقل الشيخ أيضاً لمعنى للعلم للزم إلا أن يتغير فليس بعلم بيانه أن صيغة افعل للأمر والنهي والندب والإباحة إلى غير ذلك القول).

في أن يمدّه بصفاته وشروط بقائه في كلّ زمن فرد: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر: ٤١] وقال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر: ١٥] فتأمل مناسبة قوله: ﴿ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ في هذا الموضع، وسرّ الفصل بـ«هو» بينها وبين اسمه تعالى (الله) يلحْ لك نور الهداية، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]. أشرق الله قلوبنا بنور اليقين، ولطف بنا بما لطف[1] به لأوليائه المتقين. ذُكر أنّه اجتمع عبد الجبار الهمداني[2] يوماً مع الأستاذ أبي إسحاق الأسفرائيني، فقال عبد الجبار: سبحان من تنزّه عن الفحشاء. ففهم عنه الأستاذ أنّه يريد عن خلقها، فهي كلمة[3] حق أريد بها باطل. فقال الأستاذ: سبحان من لا يقع في ملكه إلّا ما يشاء. فالتفت إليه عبد الجبار وعلم أنّه فهم عنه، فقال له: أفيريد ربّنا أن يعصى؟ فقال له الأستاذ: أفيعصى ربّنا قهراً؟ فقال له عبد الجبار: إن منعني الهدى وقضى عليّ بالردى، أحسن إليّ أم أساء؟ فقال له الأستاذ: إن كان منعك ما هو لك فقد أساء، وإن كان منعك ما هو له فيختصّ برحمته من يشاء. فانصرف الحاضرون وهم يقولون: ليس عن هذا والله جواب.

مسألة: اختلف العلماء هل يجوز إطلاق القول بأنّ الله تعالى أراد الكفر والمعصية أم لا؟ فقال عبد الملك بن سعيد القلانسي: لا يجوز إطلاق ذلك وإنّ صحّ في الاعتقاد؛ لأنّ الإطلاق يلزم فيه الأدب مع الله تعالى؛ ولأن ذلك يوهم أن تكون المعصية حسنة مأمور بها، كما تقول: الأفعال كلها لله ولا تقول: الولد والصاحبة لله. وقال غيره: يجوز ذلك، وليس ما مثّل به مطابقاً؛ لأنّ الإيهام في مثل هذا قوي، والإيهام في الأول ضعيف، اللهم إن كان ذلك

---

(١) سقط من «ب»: (بما لطف).

(٢) هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الخليلي، القاضي الأصولي، شيخ المعتزلة في عصره. توفي سنة ٤١٥هـ. من مصنفاته المطبوعة «المغني في أبواب التوحيد والعدل» (الأعلام: ٣/ ٢٧٣).

(٣) سقط من «أ»: (كلمة).

من باب لزوم الأدب فيمكن أن يقع. قال ابن العربي، قال شيخنا: والصحيح جواز ذلك كلّه حيث لا إيهام، ومنعه حيث الإيهام، كقولنا خلق الله الكفر والمعصية وأرادهما معصيتين لغيره لا له، يكون[1] ذلك الغير عاصياً مذموماً بارتكاب المعصية فتكون منه قبيحة غير حسنة، وهو مزجور عنها متوعد عليها بالعقوبة، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١] الآية.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ربّ العباد وربّ أعمالهم، والمقدّر لحركاتهم وآجالهم).

«الرب» هو المصلح للمربوب، القائم بأموره، الخالق له منافعه، الدافع عنه[2] مضارّه. وإذا أطلق أو أضيف إلى العالم كله أو إلى مشرف من العالم، فالمراد به الحقّ تعالى، كما تقول: سبحان الربّ، وسبحان رب العالمين، وسبحان رب الملائكة والنبيين. وقد يطلق لفظ «رب» مع الإضافة إلى بعض المخلوقات التي ملكها تعالى لعباده، على غير الله كما تقول: ربّ الدار وربّ الدابة. وعلى هذا جاز أن تقول: ربّ الأرباب.

وكما هو ربّ العباد فكذلك ربّ أعمالهم؛ لأنه خالقها. والربّ هو الخالق، وهو تعالى المقدّر لحركاتهم وآجالهم.

والمراد بالآجال الأوقات. وأجل كلّ شيء وقته المقدّر له. والوقت عبارة عن مقارنة موجودين حادثين حسّاً أو تقديراً فحقيقتـ[ـه] نسبة بين منتسبين. فلكلّ شيء وقت مقدّر معلوم لله تعالى، لا يزيد ولا ينقص، ولا يتقدم عنه ذلك الشيء ولا يتأخر، فمن مات حتف أنفه أو مات مقتولاً أو غريقاً أو بغير ذلك من الأسباب؛ فهو وقته المقدّر له لا يتأخر عنه ولا يتقدم. وقول المعتزلة: من مات مقتولاً فقد قطع القاتل أجل المقتول، وحال بينه وبين الوصول إليه قول باطل؛ لأنّ الله تعالى علم كلّ شيء قبل كونه، فهو جار على قدره، فوقت القتل هو الأجل المقدّر له لا يتأخر عنه ولا يتقدم طرفة عين ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل

(١) في طرة «ب»: (أيكون).
(٢) سقط من «أ»: (عنه).

عمران: ١٥٤] وأقلّ ما يلزمهم على ذلك انقلاب[1] علمه تعالى جهلاً وهو محال؛ وقيام العجز بذاته تعالى وهو محال؛ إلى غير ذلك. وما هذَوْا به من أنّه لو مات المقتول بأجله ومراد ربه لما وجب القصاص على قاتله، ولكان من ذبح شاة لغيره بغير إذنه فقد أحسن إليه؛ لأنها كانت تموت لو لم يذبحها؛ فليس بشيء وفساده بيّن بأدنى تأمّل، والقصاص والضمان حكم شرعي يثبت مع التعدّي ويسقط مع عدمه مع[2] اتحاد الفعل فيهما فليس للعقل[3] في ذلك مجال.

[تعريف الرسول والنبي]

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الباعث الرسل إليهم لإقامة الحجّة عليهم).**

«الباعث» اسم من أسمائه تعالى، ومعناه هنا إبعاث الرسل بالأمر والنهي إلى المكلفين من عباده. والأمر والنهي يرجعان إلى كلامه ﷻ، فيكون الاسم على هذا من أسماء الصفات.

والرسول هو المبلّغ عن الله تعالى أمره ونهيه بإذن إليه ووحيه إليه. والرسول بمعنى مرسل. واشتقاقه من الرَّسَل وهو اللبن يتتابع درّه. ويقال لمن أراد أن يفارق حالته الأولى: على رسلك، أي تابع ما كنت فيه، فسمّي الرسول بذلك؛ لأنه مأمور بتتابع التبليغ، ولأنه متتابع عليه فضل الله تعالى ورحمته، ولأن الخلائق مأمورون باتباعه.

والنّبوة مشتقة من النبأ وهو الخبر؛ لأنه مخبر عن الله. وقيل: مشتقة من النبوءة وهو الارتفاع. فيصح على هذا إطلاق الرسول على من أخبر عن الله تعالى، وإن لم يؤمر بالتبليغ؛ ولكن أجمعت الأمة على أنّ كلّ رسول نبي، وليس كلّ نبيّ رسولاً، وأنّ الرسول من أمر بالتبليغ ووجب له الاتّباع، ذكر هذا الإجماع الإمام أبو المعالي والقاضي أبو بكر ابن العربي وغيرهما من أئمة الدين.

---

(١) في «أ»: (إتلاف).

(٢) في «أ»: (من).

(٣) سقط من «أ»: (للعقل).

والنبوّة والرسالة عبارتان عن إيصال[1] خطاب الله بالنبي والرسول، وليسا بصفتين ذاتيتين، خلافاً للمبتدعة والفلاسفة في قولهما هما معنيان قائمان بالنبيء والرسول بناء منهما على قاعدة التحسين والتقبيح. والحق أن ذلك فضل الله تعالى يختص برحمته[2] من يشاء من عباده، وقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] وقال تعالى آمراً لنبيه ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠] فالوحي إذاً هو بمنزلة الرسالة وهو الخطاب المتصل بالمرسل.

[بعث الرسل للعباد وكونه من أحكام الله تعالى الجائزة لا الواجبة]

وابتعاث الرسل عليهم الصلاة والسلام من أحكام الله تعالى الجائزات؛ فكلّ من أظهر الله تعالى على يديه آية دلّت على صدقه فهو رسول الله حقاً.

[شرط المعجزة للنبي]

ومن شرط الآية التي تظهر على يديه أن تكون: فعلاً خارقاً للعادة، مقروناً بالتحدّي، مع عدم المعارضة، موافقة لدعوى المتحدّي. وزاد القاضي أبو بكر: في زمن تصحّ فيه، تحرّزاً من زماننا؛ لأنّ النبوة قد ختمت.

فإذا استجمعت هذه الشروط، فيضطرّ المشاهدون لها إلى أنّ الله تعالى صدّق بها من ظهرت على يديه، فتتنزل منزلة «صدق عبدي أنا أرسلته». ثم ينقل ذلك الجمّ الغفير الذي يستحيل عليهم الكذب لمن بعدهم، فيحصل العلم بصحّة الرسالة؛ فيجب السمع لهم والطاعة، وامتثال ما أمروا به واجتناب ما نهوا عنه، وتصديقهم في كلّ ما أخبروا به من أحوال المعاد والجنّة والنار وسائر مخبراتهم؛ لوجوب عصمتهم من الخلف في أقوالهم وأفعالهم.

---

(١) في «أ»: (إرسال).

(٢) في «ب»: (به).

[حكمة بعث الرسل]

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(لإقامة الحجّة عليهم)** تنبيه على فائدة البعثة، وهو المعني بقوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

وقالت المعتزلة: ابتعاث الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ حكم واجب بالعقل، بناءً منهم على التحسين والتقبيح، والصلاح والأصلح، وهو باطل. وقال البراهمة[١]: ابتعاث الرسل محال ولا فائدة في ذلك؛ فالمعتزلة أفرطوا وتحكموا على العزيز وهو تعالى وهو الحليم الذي لا يعجل، والبراهمة فرّطوا فجهلوا أمر ربّهم وجحدوا ما علم وقوعه بضرائر العقول[٢]، ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، فقالوا: الباري متفضّل بإرسال الرسل منّة منه تعالى على عباده ونعمة.

[ختم النبوة بمحمّد ﷺ وحكمة إرساله]

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ثمّ ختم الرسالة والنذارة والنبوة بمحمد ﷺ)**.

الختم هو الطبع لغة. وخاتم الشيء آخره. فالمعنى أنّ الله تعالى ختم هذا الحكم الذي كان جائزاً، استمرار وقوعه بمحمّد ﷺ، وطبع على النبوّة فلا يفتح لأحد بعده.

ويلزم من ختم النبوّة ختم الرسالة، ولا ينعكس. فلهذا قال: «ختم الرسالة والنذارة والنبوة» ولو قدّم النبوّة في صدر كلامه لم يمكنه أن يقول بعدها: والرسالة والنذارة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

---

(١) البراهمة: فرقة ضالّة كافرة لا يجوّزون على الله تعالى بعثة الرسل. وهم قبيلة بالهند، نسبتهم إلى رجل منهم يقال له: برهام، قد مهّد لهم نفي النبوات وقرر استحالة ذلك في العقول. ومن الناس من يظنّ أنّهم سمّوا براهمة لانتسابهم إلى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا خطأ فادح، فإنّ هذه الفرقة هي المخصوصة بنفي النبوات أصلاً فكيف يقولون بإبراهيم (انظر: الملل والنحل: ٣/٧٠٦ ـ ٧٠٩).

(٢) في «أ»: (العقل).

وختم النبوّة بسيّدنا محمد ﷺ معلوم بنصّ التنزيل وبالإجماع. وقد علم من الدين أيضاً بالضرورة.

فإن قلت: لم لم يقل ختم[1] الرسالة والنذارة والبشارة، فاقتصر على النذارة؟ قلت: يحتمل الوجهين؛ أحدهما: أنّ النذارة تستلزم البشارة؛ لأنّه من أنذرك بالعقوبة على فعل شيء فقد بشّرك بالسلامة من ذلك مع الترك؛ والوجه الثاني: أن يكون مراعاة لظاهر قوله ﷺ: «ذهبت النبوّات وبقيت المبشّرات»[2] يريد الرؤيا، والله أعلم.

فإن قلت: قد علم أنّ نبينا محمداً ﷺ آخر الأنبياء، فهل يعلم أوّلهم؟ قلت: ورد في حديث أبي ذرّ بيان ذلك كله: قلت يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً» قلت: يا رسول الله، كم المرسلين من ذلك؟ قال؟ «ثلاث مائة وثلاثة عشر، جمّ غفير» قلت: كثير طيب؛ قلتُ: من كان أوّلهم؟ قال: «آدم عليه السلام» قلت: يا رسول الله، أنبي مرسل؟ قال: «نعم خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وسوّاه قبلاً». ثم قال: «يا أبا ذرّ أربعة سريانيون: آدم وشيث وأخنوخ، وهو إدريس، وهو أول من خطّ بقلم، ونوح؛ وأربعة من العرب: هود وشعيب وصالح ونبيك. يا أبا ذر، أوّل أنبياء بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى، وأوّل الرسل آدم ﷺ، وآخرهم محمد ﷺ».

والحديث طويل جداً أخرجه أبو بكر الآجري[3] في أربعينه[4].

---

(١) في «ب»: (لم لم يختم).

(٢) أخرجه ابن ماجه في تعبير الرؤيا؛ والدارمي في الرؤيا، باب ذهبت النبوة وبقيت المبشرات؛ عَنْ أُمِّ كُرْزٍ الْكَعْبِيَّةِ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «ذَهَبَتِ النُّبُوَّةُ وَبَقِيَتِ الْمُبَشِّرَاتُ». إسناده صحيح رجاله ثقات وله شاهد من حديث أبي هريرة رواه البخاري في صحيحه «أنَّ أبا هريرةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: لم يَبقَ من النبوَّةِ إلَّا المبشِّرات. قالوا وما المبشرات؟ قال: الرُّؤيا الصالحة»، كتاب التعبير، باب المبشرات؛ ومسلم في الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع.

(٣) الآجري، أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله البغدادي، الإمام، المحدث، القدوة. مصنف كتاب الشريعة في السنة، والأربعين، توفي سنة: ٣٦٠هـ بمكة. (تذكرة الحفاظ، للذهبي: ٣/١٤٨).

(٤) اختلفت الروايات في عدد الأنبياء والرسل، فأخرج أحمد في مسنده ٥/٢٦٦ عن أبي =

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: (فجعله آخر المرسلين بشيراً، ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً).

قال القاضي أبو بكر: فوائد الرسالة خمس، وتلا الآية؛ فالشهادة عامة فيشهد ﷺ على الخلائق يوم القيامة، مؤمنهم وكافرهم؛ والبشارة خاصّة للطائعين، وهي حيث كانت غير مقيّدة فالمراد بها الخير، فإن قيّدت فبحسب ما قيدت له[1]؛ والنذارة خاصة للعاصين؛ والدعوة عامّة لكلّ مكلّف؛ والاستنارة خاصة أيضاً للمؤمنين. وقيل: «شاهداً» أي شاهد لنا، فلا يرى إلّا إيانا؛ و«مبشّراً» أي للمحسنين برضانا عنهم، «ونذيراً» أي للمذنبين من عقابنا، و«داعياً إلى الله» أي وداعياً الخلق إلى بابنا، و«سراجاً منيراً» أي حجة قائمة ظاهرة بيّنة، وقيل: «وسراجاً منيراً» أي وهادياً إلى أنوار الأنس، و«منيراً» أي ظلمة النفس. وقيل: «وسراجاً منيراً» أي وذا سراج منير وهو القرآن، وشبّهه بالسراج لأنه يؤخذ من نوره فيستضاء به في الظلمات، بخلاف نور الشمس والقمر فإنه لا يؤخذ منهما. قال بعضهم: السراج يزيل الظلمة الحسية ويظهر الموجودات الخفية للأبصار، ونوره ﷺ يزيل ظلمة الجهل والغفلة، ويظهر المعاني الخفية للبصائر.

[القرآن الكريم معجزة محمد ﷺ، ووجوه إعجازه]

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأنزل عليه كتابه الحكيم).

أي القرآن المحكم قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ

= أمامة قال: قلت: يا نبي الله كم وفى عدة الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً؛ الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر، جمّاً غفيراً. وأخرج الحاكم في المستدرك ٢/٢٨٨ من الحديث عدد الرسل، عن أبي أمامة قال: قالوا يا رسول الله كم كانت الرسل؟ قال: ثلاثة مائة وخمس عشرة، جمّاً غفيراً. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وأخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر قال: قلتُ: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وعشرون ألفاً. قلت: يا رسول الله كم الرسل من ذلك؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر، جمّاً غفيراً؛ في باب استحباب الاجتهاد في أنواع الطاعات، في ذكر الاستحباب للمرء أن يكون له من كلّ.

(١) في «ب»: (به).

﴿حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]. فهو حكيم بمعنى محكم أحكمت فيه علوم الأولين والآخرين، وأحكم على وجه لا يقع فيه اختلاف ولا اختلال ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وهو آية من آيات سيدنا محمد ﷺ العظمى؛ تحدّى بجميعه العرب فانقطعوا. وأقصر سورة في القرآن هي ثلاث آيات فكلّ ثلاث آيات منه معجزة. قال الشيخ أبو إسحاق: القرآن ستة آلاف آية ومائة[١] آية ونيّف، والتحدّي منه بثلاث آيات، فهو ألفا معجزة ونيّف. وجعله الله تعالى معجزة باقية مستمرة إلى قيام الساعة، بخلاف غيره من المعجزات فإنّها تنقضي بانقضاء وقتها، تشريفاً منه لسيدنا محمد ﷺ، ودليلاً على مكانته وعلوّ منزلته. في حديث أبي هريرة عنه ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلّا وقد أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[٢] معنى هذا الحديث عند المحققين بقاء معجزته ما بقيت الدنيا، وسائر معجزات الأنبياء عليهم السلام ذهبت للحين ولم يشاهدها إلا الحاضر لها، ومعجزة القرآن يقف عليه قرن بعد قرن عياناً لا خبراً، إلى يوم القيامة.

وقد اشتمل على أوجه كثيرة من الإعجاز:

ـ فمنها حسن تأليفه، والتآم كلمه، وجودة[٣] إيجازه، وفصاحته وبلاغته، فبلاغته بهرت العقول وفصاحته ظهرت على كلّ مقول[٤].

ـ ومنها صورة نظمه العجيب، وأسلوبه الغريب الذي حارت فيه عقولهم، وتولّهت دونه أحلامهم، حتى كانوا يقولون: والله ما هو بكهانة وما هو بزمزمته ولا سجعه؛ ولا هو بمجنون ما هو بخنقه ولا وسوسته؛ ولا هو بشعر ما هو بزجره ولا قريضه ولا هجره ولا مبسوطه؛ ولا هو بسحر ما هو

---

(١) في «ب»: (مائتا).

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب كيف نزول القرآن وأول ما نزل؛ ومسلم في الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ.

(٣) في «ب»: (وجذوة).

(٤) في «أ»: (معقول).

بنفثه ولا عقده؛ والله ما نقول من هذا شيئاً إلّا ونحن عالمون ببطلانه.

فهذان نوعان من إعجاز القرآن العظيم، كل واحد منهما إعجاز على التحقيق، لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منهما:

ـ إمّا لأنّه ليس من جنس[1] مقدورهم على قول[2] الجمهور.

ـ وإمّا لأنّه لم تخلق القدرة عليه، على أحد قولي الشيخ أبي الحسن الأشعري، فلم يكن[3] ذلك ولا يكون[4]، قال: وهو أبلغ في التعجيز وأحرى بالتقريع.

ـ ومن وجوه إعجازه أيضاً، وهو لم يدخل تحت مقدور البشر إجماعاً، ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات[5] ممّا لم يقع، فوقع على النحو الذي أخبر به سواء سواء.

ـ ومنها كونه آية باقية مستمرّة، فلا يزال غضّاً طريّاً.

ـ ومنها الروعة[6] التي تدرك سامعه، والهيبة.

إلى غير ذلك من الوجوه[7] التي لا تحصى كثرة. فهذا ما اشتمل عليه وصف القرآن الحكيم.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وشرح به دينه القويم).**

وشرح أي وسّع وفهّم. والضمير فيه يعود على النّبيّ ﷺ. ويصحّ عوده على القرآن الحكيم. والأوّل أظهر لأنّه لو أراد الكتاب لقال: بشرح، بالباء.

والدين لفظ مشترك في الجواب وفي السيرة والعادة وفي الإسلام، إلى غير ذلك. والمراد به هنا الإسلام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

---

(١) سقط من «ب»: (جنس).
(٢) سقط من «أ»: (قول).
(٣) في «أ»: (فلا يكون).
(٤) في «ب»: (ولم يكن).
(٥) في «أ»: (من الأقدار فالمعنيات).
(٦) في «ب»: (الدعوة).
(٧) إلى هنا تنتهي نسخة «ب»، وسنعتمد فيما يأتي لكشف الغموض أو إضافة النص على شرح القلشاني.

والقويم أي المستقيم، قال الله تعالى: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ﴾ [البقرة: ١٣٥] وقال فيه: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًاۖ﴾ [آل عمران: ٦٧] وقال فيه: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ﴾ [النحل: ١٢٣] فالدين المراد به الإسلام.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهدى به الصراط المستقيم).**

و«هدى» أي أرشد. وهذا أحد محامله. وأصله أن يتعدى باللّام أو بـ«إلى» ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. ثمّ خرج ها هنا عن أصله وعامله معاملة ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] والضمير في «به» مثل قبله.

و«الصراط» والطريق والسبيل بمعنى واحد. والمراد به هنا طريق الحق، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣] قال القاضي أبو بكر بن الطيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: الصراط صراطان حسّي ومعنوي، فالمعنوي في الدنيا والحسّي يوم القيامة، فمن مشى على المعنوي هنا وفّق للحسّي هناك.

[الإيمان بيوم القيامة وعلامات الساعة]

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ **[الحج: ٧]**).

أي وممّا يجب الإيمان به أنّ الساعة آتية لا ريب، بلا امتراء ولا شك. نصّ على ذلك القرآن، وأجمعت عليه الأمة، وعلم من الدين ضرورة.

و«الساعة» عبارة عن الآخرة، أو عن أوّل ساعتها.

ومعنى قوله: «لا ريب فيها» الريب هو الشك، وحقيقته قلق النفس. والمراد بذلك نفي الريب عند القلب بوجود الصدق فيه. بإتيانها حتى تسكن النفس ويتنزل ذلك منزلة رأي العين من قوة الإيمان بها، وثلج الباطن. ولهذا قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى: ١٨].

فأمّا وقت إتيانها لا يعلمه إلّا الله تعالى ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أي ثقل علمها، وفي حديث جبريل عليه السلام: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»[١] ولكن لها علامات مقرّبة لوقت إتيانها، وبعضها أشدّ من بعض في التقريب. ففي حديث جبريل من أشراطها: «أن تلد الأمة ربّتها، وترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان» الحديث[٢]. وفي حديث سلمان: «إذا فعلت أمتي خمسة عشرة خصلة حلّ بها البلاء؛ إذا كان زعيم القوم أرذلهم، وشربت الخمور، ولبس الحرير، واتخذت القيان والمعازف» الحديث بطوله[٣]. وقد ظهرت هذه الأشراط ولم يبق إلّا الآيات التي [هي] متّصلة بقيام الساعة. فعند آخر آية تقوم الساعة، وهي خروج الدجّال، ونزول عيسى عليه السلام، وطلوع الشمس من مغربها، ورفع القرآن من الصدور، وما أشبه هذه الآيات التي إذا ظهرت واحدة منها تلا بعضها بعضاً. وفي مسلم: «إن أوّل طلوع الشمس من مغربها ويغلق عند ذلك باب التوبة على المؤمن والكافر»[٤] قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن؛ باب «إن الله عنده علم الساعة»؛ ومسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان.

(٢) هو نفس التخريج السابق.

(٣) أخرجه الترمذي في الفتن، باب ما جاء في علامة حلول المسخ والفسخ. ولفظه: «إِذَا فَعَلَتْ أُمَّتِي خَمْسَ عَشَرَةَ خَصْلَةً حَلَّ بِهَا الْبَلَاءُ. قِيلَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: إِذَا كَانَ الْمَغْنَمُ دُوَلاً، وَالأَمَانَةُ مَغْنَماً، وَالزكَاةُ مَغْرَماً، وَأَطَاعَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ وَعَقَّ أُمَّهُ، وَبَرَّ صَدِيقَهُ وَجَفَا أَبَاهُ، وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ فِي المَسَاجِدِ، وكانَ زَعِيمُ القَوْمِ أَرْذَلَهُمْ، وَأُكْرِمَ الرَّجُلُ مَخَافَةَ شَرِّهِ، وَشُرِبَتِ الْخُمورُ وَلُبِسَ الْحَرِيرُ، وَاتُّخِذَت القِيانُ وَالمَعَازِفُ، وَلَعَنَ آخِرُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَوَّلَهَا، فَلْيَرْتَقِبُوا عِنْدَ ذٰلِكَ رِيحاً حَمْرَاءَ، أَوْ خَسْفاً أَوْ مَسْخاً» قال أبو عِيسَى: هذا حديثٌ غريبٌ لَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بن أبي طالبٍ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْهِ.

(٤) أخرجه البخاري في التفسير، باب لا ينفع نفساً إيمانها؛ ومسلم في الإيمان، باب الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان؛ ولفظه عندهما: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسولُ الله ﷺ: لا تقومُ الساعةُ حتى تطلُعَ الشمسُ من مَغرِبِها، فإذا طَلَعَت ورآها الناسُ آمَنوا أجمعون، وذلك حينَ لا يَنفعُ نفساً إيمانُها. ثمَّ قرأ الآيَة».

﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] ثم تقوم الساعة فينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلّا من شاء الله.

وقد قال ابن عبّاس: المخلوقات التي لا تفنى سبعة؛ اللوح، والقلم، والعرش، والكرسي، والجنة، والنار، والأرواح.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: (وأنّ الله يبعث من يموت، كما بدأهم يعودون).

هذا هو معنى قوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] فهذا هو البعث الآخر، وهو أنّ الله تعالى يعيد الخلق بعد دثور صفاتهم وتبدد أجزائهم، يوم الفصل بين عباده، فيوجدهم بعد العدم، ويجمعهم بعد التفرق، ويحييهم بعد الموت. قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ [ق: ٤١] قيل: ينادي إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: أيّتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة؛ إنّ الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. فيعيدهم تعالى كما بدأهم أول مرة، قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فيعيد أجزاءهم بأعيانها، وصفاتهم بأعيانها.

دليله: أنّ هذا حكم جائز، أخبر الشرع بوقوعه، فيجب الإيمان به.

أمّا إنّه جائز فبدليل الابتداء؛ وحقيقة الإعادة كحقيقة الابتداء، إلّا أنّ الابتداء هو ترجيح وجود الممكن بدلاً من عدمه، والممكنات لا تتناهى، فترجيح ما يترجّح منها لا بدّ وأن يكون بقصد وإيثار، ويستحيل القصد لما لا يعلمه؛ فيتعلق علمه بالجزئي ليصح القصد إليه بالترجيح. فإذا عدم بعد وجوده عاد حكمه كما كان أوّلاً، وهو لا بد متميز في علم الفاعل، فيصحّ القصد إليه في ثاني حال بالضرورة، لاشتراكهما في معقول العدم، ولتعلق العلم بالجزء فلا فرق بينهما إلّا في الوقت خاصة. قال بعضهم: ويجوز ردّ الوقت بعينه حتى لا يبقى فرق ألبتة.

وأمّا خبر الشرع بوقوع ذلك، فقد صرّح به القرآن العظيم في غير ما آية وتواتر في السنة؛ ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] وقال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا

﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ﴾ [النور: ٢٤] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

وأجمع أهل الحق على الردّ بالجواهر بأعيانها، وإنّما اختلفوا في الأعراض بناءً على الإعادة تكون بمعنى أم لا؟ والجمهور على أنّها تعاد بأعيانها وأنّ الإعادة لا لمعنى، وإنّما هي بدأة وإنشاء؛ دليله: ما سبق من تساوي حقيقة الابتداء والإعادة.

فصل: واختلف هل كانت الجواهر أعدمت ثم أعيدت يوم القيامة، أم كانت متفرقة فجمعت؟ قال الإمام أبو المعالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم يقم قاطع على تعيين أحد هذين الجائزين، والظواهر تقتضي بالإعدام لا بالتفرقة. فإذا قلنا بالإعدام فترد بأعيانها كما سبق دليله. قال الأستاذ أبو الحجاج الضرير في هذا المعنى:

ورده بعض صريح العدم	إلى الوجود جائز في الحكم
فخالق الشيء كما ميزه	بالعلم أوّلاً فلن يعجزه
وكون الابتداء أو الإعادة	بالعلم والقدرة والإرادة

وأمّا إن قلنا بالتفريق فيجمع الجواهر وتخلق فيها الصفات بأعيانها، كما كانت أوّل مرة. وكلّ ما هو في مادة الإمكان فالقدرة صالحة لإيقاعه.

[مضاعفة الحسنات للمؤمنين]

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأنّ الله سبحانه ضاعف لعباده المؤمنين الحسنات).**

أي ضاعف لهم جزاء الحسنات.

والتضعيف الزيادة والتكثير. فتفضّل الحق تعالى على عباده بالتضعيف في الحسنات. قال القاضي أبو بكر بن العربي: التضعيف خمس مراتب:

أحدها: الحسنة بعشرة، قال الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

الثانية: بخمس عشرة، في الحديث أنه ﷺ قال لعبد الله بن عمرو بن

العاص: «صم يومين ولك ما بقي من الشهر»(١)، فالحسنة بخمس عشرة.

الثالثة: بثلاثين، الحديث بنفسه: «صم يوماً ولك ما بقي»(٢)، فالحسنة بثلاثين.

الرابعة: بخمسين، في الحديث أنه ﷺ قال: «من قرأ القرآن فأعربه، فله بكلّ حرف خمسون حسنة، لا أقول في «ألم» حرف، ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف»(٣).

الخامسة: بسبع مائة، قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١] الآية.

فهذه خمس مراتب، والتضعيف فيها مقدّر.

ومرتبة سادسة غير مقدّرة، وهي أجر الصابرين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وكذلك أجر الصائم «والصوم لي وأنا أجزي به»(٤). قال: وليس المراد بالحسنة أجزاء العبادة، فإنّ الصلاة مثلاً

(١) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﵄، أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ لَهُ: «صُمْ يَوْماً. وَلَكَ أَجْرُ مَا بَقِيَ» قَالَ: إِنِّي أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ. قَالَ: «صُمْ يَوْمَيْنِ. وَلَكَ أَجْرُ مَا بَقِيَ» قَالَ: إِنِّي أُطِيقُ أَكْثَر مِنْ ذٰلِكَ. قَالَ: «صُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّام. وَلَكَ أَجْرُ مَا بَقِيَ» قَالَ: إِنِّي أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ قَالَ: «صُمْ أَرْبَعَةَ أَيَّام. وَلَكَ أَجْرُ مَا بَقِيَ» قَالَ: إِنِّي أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ. قَالَ: «صُمْ أَفْضَلَ الصِّيَامِ عِنْدَ اللهِ. صَوْمَ دَاوُدَ ﵇ كَانَ يَصُومُ يَوْماً وَيُفْطِرُ يَوْماً». أخرجه مسلم في الصيام، باب النهي عن صيام الدهر.

(٢) التخريج السابق.

(٣) أخرجه بلفظ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفاً مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِف حَرْف، وَلَام حَرْفٌ، وَمِيم حَرْفٌ» الترمذي في فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر. ورواه الطبراني في الأوسط، بلفظ: «أَعْرِبُوا القُرْآن، فإنَّ مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ فَأَعْرَبَهُ فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وكَفَّارَةُ عَشْرِ سَيِّئَاتٍ ورَفْعُ عَشْرِ دَرَجَاتٍ». وفيه: نهشل، وهو متروك. (مجمع الزوائد، للهيثمي).

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد، باب ذكر النبي وروايته عن ربه؛ ومسلم في الصيام، باب فضل الصيام.

مشتملة على العبادة، كالقراءة والتسبيح والخشوع وغير ذلك. وإنما المراد الصلاة بكمالها هي حسنة، فمن أتى ببعض صلاة لم يدخل في هذا إجماعاً، فيضاعف له عشراً بالوعد الأصلي، فإن كانت في جماعة فبمائتي حسنة، وإن كانت في مسجد النبي ﷺ فبمائتي ألف وخمسين ألفاً، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم. ويظهر أثر هذا التضعيف مع الموازنة.

[حقيقة التوبة وشروط قبولها]

وقوله رحمه الله: (وصفح لهم بالتوبة عن كبائر السّيّئات).

الصفح التجاوز والعفو، وهو المحو والإزالة. وسببه[1] التوبة.

والتوبة في اللغة الرجوع، فمعناه رجوع العبد عن زلاته إذا تاب. ويقال: تاب فلان فتاب الله عليه، أي ردّ الله عليه نعمه وإحسانه، والله توّاب، مبالغة في كثرة عفوه عن المذنبين.

والتوبة واجبة على جميع المذنبين بإجماع المسلمين. ويندب إليها كل عاقل:

إن تغفر اللهم تغفر جمّاً وأيّ عبد لك ما ألمّا

والنظر في التوبة في مسائل:

ـ **أحدها**: في حقيقتها. قال أبو المعالي: حقيقتها الندم على المعصية لرعاية حقّ الله تعالى، في الحديث: «الندم توبة»[2]. فعلى ما أصّله الإمام من ترك المعصية من غير ندم فلا يكون تائباً. وقال بعضهم: حقيقتها نفرة النفس عن المعصية بحيث يحصل عنها الندم على الماضي؛ والعزم على الترك في المستقبل؛ والإقلاع في الحال، فيرد المظالم ويتحلّل، ويسلّم نفسه للقصاص إن أمكن ذلك؛ قال: ومعنى الحديث: «الندم توبة» أي معظمها الندم، كما قال عليه السلام: «الحجّ عرفات»[3].

---

(١) في «أ»: (شبه) والتصحيح من شرح القلشاني.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد، باب ذكر التوبة.

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة؛ والنسائي في مناسك =

ـ **المسألة الثانية**: إذا وقعت التوبة بشروطها مكمّلة، فهل يقطع بها أم لا؟ فمذهب القاضي أنّه لا يقطع بها، ومذهب الشيخ أبي الحسن القطع بها. فقيل للقاضي: ظواهر الآي والأحاديث مع الشيخ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣] وقال ﷺ: «التوبة تجبّ ما قبلها»[1] فأجاب: أنّ الآيات الواردات إنما هي ظواهر وليست بنصوص، فتفيد غلبة الظنّ وقوة الرجاء، وما كان من الأحاديث نصّاً فليس بمتواتر. فقيل له: إنّ الكافر يقطع بتوبته إجماعاً، فما بال المؤمن على شرف منزلته لا يقطع بتوبته؟ فقال: لوجود النصّ المتواتر ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [الأنفال: ٣٨] الآية؛ ولأنه إذا قطع بتوبة الكافر كان فتحاً لباب الإيمان وسوقاً إليه، وإذا لم يقطع بتوبة المؤمن وبقاء في الرجاء، كان ذلك سدّاً لباب العصيان ومنعاً منه، فافترقا.

ـ **المسألة الثالثة**: هل تصحّ التوبة سن بعض الذنوب أم لا؟. ولا خلاف بين أهل السنّة في صحّتها، وهي طاعة من الطاعات مكمّلة، ويطلب بالتوبة فيما بقي. وعلى هذا يسلم الكافر ويتوب من معصية الكفر فيصحّ إسلامه وتوبته، وإن كان يزني ويسرق، ويكون حكمه كحكم المؤمن العاصي. فأمّا التوبة من كلّ الذنوب فهي التوبة النصوح.

ـ **المسألة الرابعة**: إذا تذكّر الذنب هل يجب عليه تجديد الندم أم لا؟ فأوجبه القاضي أبو بكر، وقال إمام الحرمين: فيكفيه ألّا يبتهج ولا يفرح عند ذكره.

ـ **المسألة الخامسة**: من تاب ثم عاد، هل تكون المعاودة نقضاً أم لا؟ فمذهب القاضي إلى أنّها منقوضة؛ لأنّ من شرطها الندم ولا يتحقق إلّا بالاستمرار، واختاره ابن العربي. ومذهب إمام الحرمين أنّها صحيحة ماضية، وهذه معصية أخرى، واختاره المتأخرون.

= الحج، باب فرض الوقوف بعرفة؛ وأبي داود في المناسك، باب من لم يدرك عرفة.

(١) لم نقف عليه بهذا اللفظ. وقريب منه في المعنى: «الندم توبة، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له» أخرجه الطبراني (مجمع الزوائد في التوبة، باب التائب من الذنب كمن لا ذنب له).

ـ **المسألة السادسة**: هل توبة الكافر نفس إيمانه أم لا بدّ من الندم على الكفر؟ فأوجبه الإمام، وقال غيره: يكفيه إيمانه؛ لأنّ كفره ممحوّ بإيمانه وإقلاعه عنه، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

ـ **المسألة السابعة**: ما يتاب منه:

* إن كان حقاً لله فيكفي فيه الندم والإقلاع.

* وإن كان حقّاً لآدميّ وجب عليه ردّه إن كان مالاً، أو التحلل منه إن كان عرضاً، فإن لم يجد استغفر له وتصدّق عنه؛ وإن كان نفساً وجب عليه تسليم نفسه للأولياء إن أمكن ذلك؛ فإن لم يفعل مع الإمكان فهل توبته صحيحة أم لا؟ فصحّحها الإمام وقال: هذه معصية أخرى يجب عليه أن يتوب، وهو مذهب الجمهور. وقال الغير: لا تصحّ، وهو مرجوح.

ـ **المسألة الثامنة**: في وقتها. ولها وقتان:

● **الأوّل**: مهلة العمر، فهي مقبولة ما لم يغرغر، قال الله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية [النساء: ١٨].

* **الوقت الثاني**: ما لم تطلع الشمس من مغربها، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ الآية [الأنعام: ١٥٨] قالوا: المراد به طلوع الشمس من مغربها. ولمّا كان هذا الجنس على قسمين: مؤمن وكافر، والمؤمن طائع وعاصٍ، أخبر تعالى عمّن كان كافراً أنّه لا ينفعه إيمانه عند ظهور هذه الآية، ومن كان عاصياً لا ينفعه رجوعه وتوبته واكتسابه الخير عند ظهور هذه الآية؛ فحال كلّ واحد من الفريقين على ما كان عليه قبل ظهورها من طاعة أو عصيان أو نكر أو عرفان. تاب الله علينا أجمعين بفضله ورحمته، وردّنا إليه ردّاً جميلاً بعونه ومنته.

[تعريف الكبائر والصغائر]

وقوله رحمه الله: **(وغفر لهم الصغائر باجتناب الكبائر)**.

المغفرة الستر، ومنه المغفر والغفارة. قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ

كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١]. وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].

والكبيرة والصغيرة نسبة وإضافة، وإلّا فكلّ ذنب فهو كبير بالنظر إلى مخالفة ذي الجلال، قال ابن عباس: كلّ ما يعصى الله به فهو كبيرة. فتسمية بعض الذنوب بالصغائر إنّما هو لأنّها تكفر باجتناب الكبائر. وإن كانت كلّها كبائر فبعضها أكبر من بعض، ولهذا لم يأت في الشرع لفظ يحصرها في عدد معيّن، وإنّما ذلك ليكون الناس من اجتناب جميع المنهيات على حذر، لئلّا يواقعوها. وما ورد في الأحاديث تسميتها بالسبع الموبقات لا يدلّ على حصرها، ولهذا قال ابن عباس: «هي إلى السبعمائة أقرب منها إلى سبع». فقد ورد في حديث السبع الموبقات: «الشرك، والسحر، والقتل، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات»[١]. وورد في آخر: «عقوق الوالدين واستحلال بيت الله الحرام»[٢] وفي آخر: «وشهادة الزور»[٣] وفي آخر: «شتم الرجل والديه»[٤] فكان ﷺ إذا سئل عن الكبائر

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ﴾؛ ومسلم في الإيمان، باب الكبائر وأكبرها. بلفظ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِالله وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ».

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب عقوق الوالدين؛ ومسلم في الإيمان، باب الكبائر وأكبرها؛ عن أنسَ بن مالك ﷺ قال: «ذكرَ رسول الله ﷺ الكبائرَ ـ أو سُئلَ عن الكبائر ـ فقال: الشركُ بالله، وقتل النفس، وعُقوق الوالدَين. فقال: ألا أنبِّئكم بأكبر الكبائر؟ قال: قول الزور. أو قال: شهادة الزور. قال شُعبة: فأكثر ظنّي أنه قال: شهادة الزور». وأخرج أبو داود في الوصايا، باب ما جاء في التشديد في أكل مال اليتيم؛ عن عُبَيْدُ بنُ عُمَيْرٍ عن أبيهِ، أنَّهُ حَدَّثَهُ ـ وَكَانَ لَهُ صُحْبَةٌ ـ أنَّ رَجُلاً سَأَلَهُ فقال: «يا رَسُولَ الله ما الْكَبَائِرُ؟ قال: «هُنَّ تِسْعٌ فَذَكَر مَعْنَاهُ. زَادَ: وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ الْمُسْلِمَيْنِ، وَاسْتِحْلَالُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ قِبْلَتِكُمْ أحْيَاءً وَأمْوَاتاً».

(٣) التخريج السابق.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب، باب لا يسبّ الرجل والديه؛ ومسلم في الإيمان، باب =

يجيب السائل عن ذلك بقدر ما يعلم احتياج الناس إليه، فسمّى لهم من ذلك كبائر تدلهم على أمثالهم، فكأنّها أمّهات يقاس عليها.

قال بعضهم: كلّ ذنب ختمه الله بلعنته أو غضب أو عقاب ونحوه فهو كبيرة؛ فكلّ ما لم يرد في الأحاديث معيّناً فيعلم بهذه القاعدة.

وقال بعضهم: استقريت من مجموع الأحاديث أنّها ثماني عشرة كبيرة:

- أربعة في القلب: الشرك، والأمن من مكر الله، واليأس من رحمة الله، والإصرار على الذنب.

- وخمس في اللسان: الكذب، وشهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغموس، والغيبة.

- وثلاثة في البطن: أكل مال اليتيم، وأكل الربا، وشرب الخمر.

- واثنان في اليدين: البطش والسرقة.

- واثنان في الفرج: الزنا واللواط.

- وواحدة في الرجلين: الفرار يوم الزحف.

- وواحدة في جميع البدن: وهي العقوق.

وزاد بعضهم: السحر، ونقضُ العهد، وقطع الرحم، وترك الصلاة، ومنع الزكاة، والغلول، والحيف في الوصية.

وقال ابن مسعود وجماعة من السلف: هي من أوّل سورة النساء إلى قوله: ﴿إِن تَجۡتَنِبُوا۟﴾ [النساء: ٣١] الآية. والذي عوّل عليه الجمهور ما ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنه من أنّ كلّ ما يعصى الله به فهو كبيرة قالوا: ولا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار.

فإن قيل: فإذا قلتم: إنّ الكبائر جنس غير محصور عدده من الشرع، وإنّ

= في الكبائر وأكبرها؛ ولفظه عندهما: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أكبرِ الكبائر أن يَلعنَ الرجلُ والِدَيه». قيل: يا رسول الله، وكيف يَلعَنُ الرجل والِدَيه؟ قال: «يسُبُ الرجلُ أبا الرجل فيسبُّ أباه، ويسب أمَّه فيسب أمَّه».

الشرع إنّما نص على بعضها، فيعلم ما بقي منها بالقياس على المنصوص، فما مثال الصغائر التي تكفّر باجتناب هذه الكبائر حتى يعلم منها أيضاً ما يستدل به على ما بقي؟ قلت: قد سئل ابن عباس ﷺ عن ذلك فقال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم من قوله ﷺ: «إنّ الله ﷻ كتب على بني آدم حظّه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة؛ فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنّى وتشتهي، والفرج يصدّق ذلك أو يكذّبه» خرّجه مسلم[1]. وفي البخاري أنّ رجلاً قال: يا رسول الله عالجت امرأة فأصبت منها ما دون أن أمسّها، فلم يجبه رسول الله ﷺ. فقال له عمر: قد ستر الله عليك، لو سترت على نفسك، فانطلق الرجل برده عليه، وأنزل تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤][2]. ولا جرم أنّ الفعل محرّم بالإجماع غير أنّه بالنسبة إلى الفرج أصغر، فتسميته صغيرة بهذا الاعتبار. فهذا مثال من أمثلة ما يسمّى صغائر، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ﴾ [النور: ٣٠] ولا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار.

واعلم أنّه لا تعلم الصغائر والكبائر إلّا من جهة الشرع، ولا مجال للعقل في ذلك كلّه. فإن قلت: لم عبّر عن عدم المؤاخذة بالكبائر بالصفح، وعن ترك المؤاخذة بالصغائر بالمغفرة؟ قلت: قال بعضهم: لما فيه من عظيم الامتنان وسعة الجود والإحسان؛ لأنّ محو الكبائر أبلغ في دلالة الكرم من

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج؛ ومسلم في القدر، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا.

(٢) لم يخرجه البخاري، وإنما أخرجه مسلم في التوبة، باب ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي عَالَجْتُ امْرَأَةً فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ. وَإِنِّي أَصَبْتُ مِنْهَا مَا دُونَ أَنْ أَمَسَّهَا. فَأَنَا هٰذَا. فَاقْضِ فِيَّ مَا شِئْتَ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَقَدْ سَتَرَكَ اللهُ، لَوْ سَتَرْتَ نَفْسَكَ. قَالَ: فَلَمْ يَرُدَّ النَّبِيُّ شَيْئاً. فَقَامَ الرَّجُلُ فَانْطَلَقَ. فَأَتْبَعَهُ النَّبِيُّ رَجُلاً دَعَاهُ، وَتَلَا عَلَيْهِ هٰذِهِ الآيَة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا نَبِيَّ اللهِ هٰذَا لَهُ خَاصَّةً؟ قَالَ: «بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةً».

ستره وتغطيته، أسأل الله أن يعفو عنّا بجوده وكرمه.

[غفران الصغائر باجتناب الكبائر]

ونقل بعض أشياخ هذه العقيدة أنّ تكفير الصغائر باجتناب الكبائر ليس قطعياً، قال: والخلاف فيه كالخلاف في تكفير الكبائر بالتوبة، ولم يعز هذا النقل لأحد من أئمة الدين؛ وليس كلّ ما يوجد مقولاً في الأوراق يعتدّ به حتى يعزى لإمام من أئمة الدين، فحينئذ ينظر فيه إمّا بإبقائه على ظاهره أو بتأويله، والله الهادي إلى [سواء الـ] سبيل.

[حكم مرتكب الكبيرة]

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وجعل من لم يتب من الكبائر صائراً إلى مشيئته** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ **[النساء: ٤٨])**.

أي من مات من المؤمنين مصرّاً غير تائب، فهو في مشيئة الله تعالى، إن شاء غفر له وأدخله الجنة وإن شاء عذّبه ثم يخرجه من النّار بإيمانه، والدليل على صحة ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] فأخبر تعالى أنّ المشركين لا يغفر لهم، وهذا لا خلاف فيه. وأمّا ما دون الشرك فقيّده بالمشيئة. وأجمع أهل الحقّ على جواز المغفرة لعصاة الموحّدين، وأنّه جائز واقع. أمّا قبل دخول النار فالجواز ثابت بالنّسبة[1] إلى آحاد الأشخاص لا إلى جميعهم، لانعقاد إجماع أهل السنة على أنّه لا بدّ من دخول طائفة من عصاة الموحّدين النار؛ وأمّا بعد دخول النّار وأخذها منهم فالعفو عنهم واقع، ويخرجون بالشفاعة. وخالفت المبتدعة في هذا كلّه بناء منهم على وجوب الجزاء بالفعل. أمّا المرجئة[2] فقالوا: الإيمان مانع من دخول النار ابتداء وانتهاء. وأمّا المعتزلة فقالوا: المعصية مانعة من

---

(١) في «أ»: (بالسنة) والصواب ما أثبتناه.

(٢) المرجئة: هي فرقة من الفرق الإسلامية لا يحكمون على أحد من المسلمين بشيء، بل يرجئون الحكم إلى يوم القيامة، ومن قولهم: إنّه لا يضرّ مع الإيمان معصية، ولا تنفع مع الكفر طاعة. انظر: الفرق بين الفرق: ٣٣، ٣٤.

دخول الجنة ابتداء وانتهاء. فهؤلاء أفرطوا والآخرون فرّطوا وحكّموا عقولهم وقالوا ما لا يعلمون.

والحقّ الذي لا امتراء فيه أنّ ذلك كلّه جائز عقلاً، والشرع أخبر بوقوعه فوجب المصير إليه. وضابط ذلك أنّه لا معقّب لحكمه وأنّه يفعل في ملكه ما يريد. «هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي»(١) وعلى هذا درج السلف ومن تبعهم من الخلف، وهو المعلوم من دين النبيّ ﷺ، ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [القصص: ٤٩].

قال بعضهم: وأهل المشيئة خمسة:

- العاصي المعتقد تحريم المعصية.
- وأهل الفترة.
- ومن لم تبلغه الدعوى.
- ومن بلغ مطبقاً.
- وأولاد المشركين. وقد وردت في أولاد المشركين أحاديث منها مطلق ومنها مقيد؛ فإن صحّ المقيّد منها صير إليه. وهو أن تؤجّج لهم نار يوم القيامة، ويؤمرون باقتحامها، فمن اقتحمها كان علامة أنّه لو بلغ إلى زمن التكليف لكان طائعاً، ومن لم يقتحمها كان علامة على عصيانه(٢). والمراد

---

(١) أخرجه ابن حبان في باب استحباب الاجتهاد في أنواع الطاعات؛ عبد الرحمٰن بن قتادة السلمي، وكان من أصحاب النّبيّ، قالَ: سَمعتُ رسول اللهِ ﷺ يقول: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ، ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ، فَقَالَ: هٰؤلَاءِ فِي الجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَهٰؤلَاءِ في النَّارِ وَلَا أُبالِي». قَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَعَلَى مَاذَا نَعْمَلُ؟ قَالَ: «عَلَى مَوَاقِعِ الْقَدَرِ».

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، عن أبي هريرة والأسود بن سريع، قال النَّبيُّ: «أَرْبَعَةٌ يَحْتَجُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمُّ لَا يَسْمَعُ شَيْئاً، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ، وَرَجُلٌ هَرِم، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرَةٍ، فَأَمَّا الأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَب لَقَدْ جَاءَ الإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئاً، وَأَمَّا الأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَب جَاءَ الإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئاً وَالصِّبْيَانُ يَحْذِفُونَنِي بِالْبَعْرِ، وأَمَّا الْهَرِمُ فَيَقُولُ: رَب لَقَدْ جَاءَ الإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئاً، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ =

بذلك مشاهدة أهل الحشر لهذا الحكم، وإلا فهو تعالى علم ما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون. وفي مسلم أنّه ﷺ لمّا سئل عنهم قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[1] وفيه: «إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً، وخلق النار وخلق لها أهلاً»[2] وظاهر الآي والأحاديث تقتضي عدم تعذيبهم، قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨]، والأطفال لم يبلغوا سنّ ذلك، وهو تعالى يفعل في ملكه ما يشاء، فليس لنا الحكم على ما غاب عنّا إلّا من جهة الشرع، والظواهر لا توجب القطع، ولا نصّ يوجب أنّهم في المشيئة.

[الخروج من النار يكون بالإيمان]

وقوله: (ومن عاقبه بناره أخرجه منها بإيمانه فادخله به جنته؛ ومن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره).

أي ومن عاقبه من المؤمنين المذنبين بناره أخرجه منها بسبب إيمانه، بدليل قوله ﷺ عن ربّه: «أخرجوا من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حبّة خردل من إيمان»[3] وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾

= فَيَقُولُ: رَب مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ، فَيُرْسَلُ إِلَيْهِمْ أَنِ ادْخُلُوا النَّارَ فَمَنْ دَخَلَهَا كَانَتْ عَلَيْهِ بَرْداً وَسَلَاماً، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا سُحِبَ إِلَيْهَا».

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين؛ ومسلم في القدر، باب كل مولود يولد على الفطرة؛ عن أبي هريرةَ ﷺ يقول: «سُئِل النبيُّ ﷺ عن ذَرارِي المشركينَ فقال: اللهُ أعلمُ بما كانوا عامِلين».

(٢) أخرجه أبو داود في السنة، باب في ذراري المشركين؛ عن عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤمِنِينَ، قَالَتْ: «أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِصَبِيٍّ مِنَ الأَنْصَارِ يُصَلِّي عَلَيْهِ، قالَتْ قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله طُوبَى لِهَذَا، لَمْ يَعْمَلْ شَرّاً وَلَمْ يَدْرِ بِهِ فقالَ: أو غَيْرُ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ؟ إنَّ الله خَلَقَ الْجَنَّةَ وَخَلَقَ لَها أَهْلاً وَخَلَقَهَا لَهُمْ وَهُمْ في أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ النَّارَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلاً وَخَلَقَهَا لَهُمْ وَهُمْ في أَصْلَابِ آبَائِهِمْ».

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة؛ ومسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة؛ وفيه: «فَيُقَالُ لِيَ: انْطَلِقْ. فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ».

[الكهف: ٣٠] وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨] أي يرى جزاء[1] عمله والجزاء له داران إمّا الجنّة أو النار. فإذا عوقب هذا المؤمن على شرّ عمله بقي له ثواب خير عمله؛ فلو لم يقل بإخراجه لأدّى ذلك إلى أنّه لا يثاب، وهذا خلاف الآية. ولا نقول: إنه يثاب بالجنة ثم يخرج منها فيدخل النار؛ لأنّه تعالى قال: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨] ولا يعارض هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣] فإنّه محمول على معصية الكفر جمعاً بين الآي وإعمالاً لجميعها. ولو حملناه على غير معصية الكفر وقلنا بعدم خروجه لأدّى ذلك إلى إهمال قوله تعالى: ﴿خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ ولا سبيل إلى ذلك، ولبطل أيضاً معنى قوله: «أخرجوا من في قلبه» إلى غير ذلك. ولا خلاف بين السلف الصالح ومن تبعهم من الخلف في ذلك كلّه. وقالت المعتزلة[2]: من دخل النار فلا يخرج منها، بناءً على التحسين العقلي والتقبيح. وقد تبيّن أنّ العقل لا يحسّن شيئاً ولا يقبّحه، ولا يجب على الله تعالى شيء، فهو يفعل ما يشاء، فمن شاء أن يغفر له من عصاة الموحدين من قبل العقوبة عفا عنه وأدخله حضرة قدسه، ومن شاء أن يعاقبه بناره أخرجه منها بإيمانه فأدخله الجنة فضلاً منه ومنة. وأمّا الكافرون فلا يغفر لهم؛ لأنّه حكم بذلك، ولو شاء لغفر لهم فأدخلهم الجنة، فهو تعالى يفعل ما يريد، فلا رادّ لأمره ولا معقّب لحكمه، لكنّه أخبر أنّه لم يشأ ذلك للكافرين، وشاء ذلك للعصاة الموحّدين؛ فوجب التصديق والوقوف عند خبره.

---

(١) في «أ»: (يواجز) والتصحيح من شرح القلشاني.

(٢) المعتزلة: ـ ويسمّون أيضاً أهل العدل والتوحيد، ويلقبون بالقدرية ـ هم طائفة من الطوائف الدينية التي نشأت بالبصرة في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، على يد واصل بن عطاء، وقيل غير ذلك. وقد افترقت إلى عشرين فرقة، كلّ فرقة تكفّر الأخرى. وهي التي تقول بخلق القرآن، وأن الله تعالى لا يرى يوم القيامة، وأنّ المؤمن إذا ارتكب الكبيرة كان في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر، وغير ذلك من الأقوال التي خالفوا فيها أهل السنة. (انظر: الفرق بين الفرق: ٣٢، ١١٢ ـ ٢١٠).

[الشفاعة وأقسامها]

وقوله: (ويخرج منها بشفاعة النبيّ ﷺ من شفع له من أهل الكبائر من أمّته).

قال ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي»[1] وقد تضافرت الأحاديث بالشفاعة التي بلغت بمجموعها التواتر. وأجمع [على] ذلك سلف الأئمة، وأنكرها المعتزلة بناء منهم على ما تقدم من الوجوب العقلي. وقال بعض أئمتنا: وحقيق لمن أنكرها ألا ينالها. وتمسّكوا بظاهر قوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨] وبقوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: ١٠١].

قيل لهم: هذا المراد به الكافرون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] فأثبت الشفاعة لمن ارتضاه ونفاها عن غير المرتضى، فالكافرون لا تنفعهم الشفاعة، وبهذا المعنى يحصل [الجمع بين] الآي والأحاديث وينتفي التنافر. وضابط هذا كله ما تقدم من أنّ هذا جائز عقلاً، ثابت وقوعه شرعاً. على هذا درج السلف ومن تبعهم من الخلف.

قال القاضي أبو بكر ﷺ: «والشفاعة على ستة أقسام:

- **الأول**: الشفاعة الأولى لأهل الموقف، وهي خاصّة بنبينا محمد ﷺ، في البخاري ومسلم: «يجمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة» الحديث، وفيه التجاؤهم إليه ﷺ بعد تطوّفهم على جماعة من أنبياء الله الكرام، فكلّهم يصرفها عن نفسه ويقول: لست لها، فإذا انتهت إليه قال: «أنا لها»[2] وذلك هو المقام المحمود الذي وعده به ربّه، يغبطه فيه الأولون والآخرون، فيشفع لهم في تعجيل الحساب.

- **الثانية**: الشفاعة في قوم يدخلون الجنة بغير حساب. وهذه أيضاً خاصة به ﷺ.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة يوم القيامة، باب ما جاء في الشفاعة. وأبو داود في السنة، باب في الشفاعة. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾؛ ومسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

ـ **الثالثة**: الشفاعة في قوم استوجبوا النار فيشفع فيهم النبي ﷺ؛ ومن شاء الله من خواص عباده، فيدخلون الجنة.

ـ **الرابعة**: الشفاعة فيمن دخل النار من المذنبين، فقد جاء في مجموع الأحاديث إخراجهم من النار بشفاعته ﷺ وشفاعة غيره من النبيين والملائكة والمؤمنين، وفي هذه الأحاديث: «حتى لا يبقى إلّا من حبسه القرآن، فيقبض الله قبضة من أهل النّار لم يعملوا خيراً قطّ فيدخلهم الجنة»[1] ومعناه لم يعملوا شيئاً البتة من أعمال البرّ البدنية ولا النطقية، فأمّا التصديق بقلوبهم فلا بدّ من ثبوته، غير أنه ليس لهم عمل يدل عليه، فأمّا العلم بالسرائر فلا تخفى عنه خافية، ولا بدّ من حمل هذا على هذا الوجه؛ لأنّ الجنة محرّمة على الكافرين ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

ـ **الخامسة**: الشفاعة في زيادة الدرجات.

ـ **السادسة**: شفاعته ﷺ لعمّه أبي طالب».

وفي تسمية هذه السادسة نظر[2]. فهذه ست شفاعات تكون له ﷺ في الموقف، فمنها ما يختص به ومنها ما يشارك فيها كما تقدم بيانه.

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾؛ في حديث الشفاعة، وفيه فقال النبي ﷺ: «يخرجُ من النار من قال: لا إلٰهَ إلا اللهُ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرةً، ثم يخرج من النار مَن قال: لا إلٰه إلا اللهُ وكان في قَلبِهِ مِن الخيرِ ما يزِنُ بُرةً، ثم يخرجُ من النار من قال: لا إلٰه إلا الله وكان في قلبهِ ما يزِنُ من الخير ذَرَّةً». وأحمد في مسند أبي سعيد؛ وفيه: «فيقول الجَبَّارُ: بقيت شفاعتي فيقبضُ قبضةً من النار فيُخرجُ أقواماً قد امتُحِشوا فيلقَوْن في نهر بأفواهِ الجنَّةِ يُقال له: ماءُ الحياة فينبُتُون في حافَتَيْه كما تنبت الحَبَّةُ في حميل السَّيْل قد رأيتموها إلى جانب الصَّخرة وإلى جانب الشجرة فما كان إلى الشمس منها كان أخضرَ، وما كان منها إلى الظلِّ كان أبيضَ فيَخرجُون كأنهم اللؤلُؤ فيُجعَلُ في رقابهم الخواتيمَ فيدخلون الجنَّة فيقول أهلُ الجنةِ: هؤلاءِ عُتقَاءُ الرحمٰنِ أدخَلَهُم الجنة بغير عملٍ عملوه ولا خيرٍ قدَّموه، فيقال لهم: لكم ما رأيتمُ ومثلُه معه».

(٢) ورد في الطرة ما يلي: قلت: لا نظر؛ لأنه نقله من غمرات النار إلى ضحضاح كما قال في الحديث.

[الإيمان بخلق الجنة والنار وخلودهما وأنّ الله تعالى أعدّهما للثواب والعقاب]

وقوله: (وأنّ الله سبحانه قد خلق الجنّة فاعدّها دار خلود لأوليائه).

الجنة دار الثواب في الآخرة وهي مخلوقة، قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وقد وصفها ﷺ فقال: «لبنة من ذهب ولبنة من فضّة، ترابها المسك وحصباؤها اللؤلؤ»[١] وفي الحديث: «إن الله تعالى لما خلق الجنة، قال لجبريل: أدخل الجنة وانظر ما أعددت فيها لعبادي الصالحين، فلمّا رآها جبريل عليه السلام قال: يا ربّ ما يسمع بها أحد من عبادك إلّا ويدخلها. فلمّا حفّها بالمكاره قال جبريل: من ها هنا منع القوم»[٢] أو كما قال.

واعلم أنّه لا إحالة في خلق الجنة. وهو من الجائز الذي ورد الخبر بوقوعه، فوجب التصديق.

أما إنّه جائز فمعلوم. وأمّا ورود الخبر بوقوعه فقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٥] وفي الصحيحين: «عرضت عليّ

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة الجنة، باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها، وقال: هذا حديث إسناده ليس بذاك القوي، ولفظه: «لبنة ذهب، ولبنة فضّة، وملاطها المسك الأذخر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران».

(٢) أخرجه أبو داود في السنة، باب في خلق الجنة والنار، عن أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «لَمَّا خَلَقَ الله الْجَنَّةَ قَالَ لِجِبْرِيل: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ جاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا ثُمَّ حَفَّهَا بالمَكَارِهِ. ثُمَّ قال: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ. قَالَ: فَلَمَّا خَلَقَ الله تَعَالَى النَّارَ قال: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ جاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا، فَحَفَّهَا بالشَّهَوَاتِ. ثُمَّ قال: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُم جاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا».
ولم نقف عليه بلفظ: «من هنا منع القوم».

الجنّة فتناولت منها عنقوداً» الحديث[1]. وفيهما: «إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة» الحديث[2]، إلى غير ذلك من الآي والأحاديث المتفق على صحتها.
واتفق سلف الأئمة ومن تبعهم من الخلف على إجراء هذه الآي على ظواهرها من غير تأويل لها، وأجمعوا على أنّ تأويلها من غير ضرورة إلحاد في الدين.
وقالت المعتزلة بتأويل هذه الآي والأحاديث، وزعموا أنه لا فائدة في خلقها، وجعلوا ذلك موجباً لتأويلها. قال إمام الحرمين: وهذا انسلاخ عن إجماع المسلمين وأفعال الله تعالى لا تحمل على الأغراض، وهو تعالى يفعل ما يشاء.
قال بعضهم: ويقال لهم لم قلتم: إنه لا فائدة في خلقها، بل له فوائد فمنها الحث والحضّ والترغيب في الطاعات الموصلة إليها؛ ومنها أنّ أرواح السعداء يتنعّمون بها في البرزخ وأرواح الشهداء ترزق منها؛ ومنها أنّ الحور العين يتهيؤون فيها لأولياء الله المؤمنين ويتنعمون فيها، إلى غير ذلك؛ مع أنه تعالى يفعل ما يشاء بلا علة لصنعه. فإن عارضونا بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] فلو خلقت لهلكت، لكنّها لم تخلق، لم تهلك. قيل لهم: هو عموم مخصوص، والجنة أحد المستثنيات[3] التي خصّها الدليل، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] قال ابن عباس: الموجودات المحدثات التي لا تفنى سبعة: اللوح، والقلم، والعرش، والكرسي، والجنة، والنار، والأرواح. ومن هذه السبعة ما وافقت المعتزلة: كالعرش، والكرسي، والأرواح، واللوح، فلا حجة لهم في الآية.

[النظر إلى وجه الله الكريم وأدلّته]

وقوله: (وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم).

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان، باب رفع البصر إلى الأمام؛ ومسلم في الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف؛ ومالك في صلاة الكسوف، باب العمل في صلاة الكسوف.
(٢) أخرجه البخاري في الصوم، باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان؛ ومسلم في الصيام، باب فضل شهر رمضان.
(٣) في «أ»: (المسات) والتصحيح من شرح القلشاني.

«النظر» لفظ مشترك بين معانٍ:

- فإذا أريد به نظر البصر عدي بـ«إلى» كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣].

- وإذا أريد به الفكر عدي بـ«في» قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

- وإذا أريد به الانتظار كان بغير حرف جرّ قال تعالى: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

- وقد يراد به الجنان، ويعدّى باللّام وبـ«إلى».

وتأولت المعتزلة قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ وقالوا: إلى واحد الآلاء، فـ﴿نَاظِرَةٌ﴾ بمعنى منتظرة، قالوا: والضرورة دعت إلى ذلك؛ لأنّ رؤيته تعالى ممتنعة لما يلزم عليه من المقابلة واتصال الأشعة، وكلّ ذلك مستحيل.

واعلم أنّ الكلام أوّلاً في ثبوت رؤية الله تعالى بالأبصار في الآخرة فرع عن القول بجوازها؛ فلنقدم أولاً الكلام على الجواز، ثمّ على الوقوع؛ لأنّ المعتزلة قدحت في الجواز، ولهذا تأولوا ما ورد في الشرع دالاً على الوقوع فنقول:

العلم بالجواز له طريقان: العقل والشرع.

أمّا العقل فقد أجمعنا أنّ الرؤية لا تتعلق بالمعدوم، فلم يبق متعلقها إلّا الموجود؛ وقد تعلقت بالموجودات المختلفات، فحينئذ إمّا أن يكون المصحّح هو الوجود، أو زائد على الوجود، أو هما، ولا سبيل إلى الرابع؛ لأنها لا تتعلق بالمعدوم.

وكذلك لا سبيل أن يكون الزائد هو المصحّح؛ لأنه إمّا وجود فالمصحح الوجود، وإمّا ليس بوجود فهو عدم ونفي؛ والنسب والإضافة والوجوه والاعتبارات كلّها آيلة إلى النفي، وكذلك الأحوال على من يقول بها، فلم يبق إلّا الوجود وحده أو هما.

ولا سبيل أن يكون المصحّح هما، للزوم التركيب فالمصحّح.

لا يقال: إن التركيب المجتنب في ذلك هو وجودان، فإما وجود ووجه أو أحوال، فليس بتركيب.

[لأنا نقول][1]: بل يجتنب ذلك كله؛ لأن ذلك الوجه أو تلك الحال إن كان الوجود يتصور بدونه فهو زائد، وهو معقول التركيب، ويلزم منه إثبات القول بالواسطة وهو محال. وإن لم يتصور فهو جزء ماهية فليس بزائد فالمصحح إذا الوجود.

ولا يقال أيضاً: إن ذلك الزائد شرط في الوجود؛ لأن الشرط لا يستلزم وجود المشروط، ويلزم على مقتضاه[2] تعلق الرؤية بالعدم، وهو محال. وإن كان الوجود هو الشرط فالوجود هو المصحّح.

فخرج من مضمون ذلك على كلّ تقدير أنّ المصحّح هو الوجود، فبثبوته تثبت صحة الرؤية وبانتفائه تنتفي، والحكم إذا ارتبط بالشيء طرداً أو عكساً كان علّياً؛ فالوجود علّة في الرؤية.

فإذا تقرّر هذا، فالباري تعالى موجود فصحّت رؤيته.

فإن قلت: هذا معترض على القول بالأحوال وعلى القول بانتفائها؛ أما على القول بها فلأنّ العلة من شرطها قيامها بمحل توجب له حكماً، والوجود نفس الموجود على مذهب أهل السنة أو حال على مذهب الآخرين، وعلى كلّ تقدير فلا يكون علّة، والصحة حكم للذات والشيء لا يوجب حكماً لنفسه؛ وأما على القول بانتفائها فلأن الموجودات مختلفة بذواتها ووجود كلّ شيء مخالف لوجود الآخر، فلا يلزم من صحة رؤية موجود واحد صحة رؤية كلّ موجود لعدم الاشتراك ووجوب الاختلاف. وهذان الإلزامان ذكرهما أبو العز والفخر ابن الخطيب رحمهما الله تعالى، وهما من أقوى ما اعتمد عليه في الانتقاد على دلائل المتقدمين في أنّ المصحّح للرؤية الوجود.

واعلم أن المتقدمين عوّلوا على المصحّح للرؤية الوجود، لم يأت آخر

(١) الزيادة من شرح القلشاني.

(٢) في «أ»: (مقتضى) والتصحيح من شرح القلشاني.

هذه الأمة بأفضل ممّا كان عليه أوّلها، فحسب المتأمّل تدبّر كلامهم، فيلوح لنا الحق ويظهر له البرهان. وسأذكر لك إن شاء الله تعالى هنا قاعدتين، إن تأملتهما يلح لك بهما فساد الإلزامين المتقدمين، وتنفك بهما الاعتراضات التي ذكرها الفخر كلها على الجملة.

[القاعدة الأولى]: فاعلم أنّ التعليل يكون في المعاني العقلية ويكون في الموجودات. وتعقل ارتباطات بين المعقولات في أعمّ من الوجود. بيان ذلك أنّ الإمكان حكم مصحّح[1]، لتعلق قدرة القادر بالممكن، يلزم من ثبوته الثبوت ومن نفيه النفي، وهو ليس بمعنى زائد على الممكن اتفاقاً؛ فكذلك الوجود مصحح، لتعلق رؤية الرائي بالمرئي، ولا يلزم منه أن يكون الوجود زائداً على المرئي فيعلّل الحكم النفسي بالذات، والأحكام تتبع الذوات، والأعيان بمعقولياتها.

القاعدة الثانية: اعلم أن الوجود اسم للحقيقة المقابلة للعدم. ويعلم على الضرورة أنه ليس بين[2] الوجود والعدم رتبة. والموجودات مختلفة بذواتها، واختلاف حقائقها لا يخرجها من أن تكون موجودة. فاسم الموجود إذا وضع لإفادة الحقائق، فالجوهر حقيقة والعرض حقيقة، وهما مختلفان، غير أنهما متفقان في أنهما غير معدومتين، أو في استحقاق التسمية في الوضع بالموجود، والإدراكات متعلقة بالحقائق فوجب أن يكون لكل ذي حقيقة حقيقة مصححة لإدراكه، وتلك الحقيقة مخالفة للعدم المستحيل رؤيته، فثبت معها التصحيح وينتفي بانتفائها، فصحت رؤية كل موجود.

فبيان هذين القاعدتين أنّ التعليل يكون في أعمّ من الموجودات، وأنّ الحكم يتبع الذات لمعقوليتها. وبان أيضاً أن اختلاف الحقائق لا يخرجها من أن تكون موجودة.

فهذه طريقة العقل في العلم بجواز رؤية الله تعالى. ومعنى الجواز أنه تعالى الموصوف بالاقتدار عن خلق رؤية في العين يُرى بها، كما هو تعالى

---

(١) في «أ»: (صحيح) والتصحيح من شرح القلشاني.
(٢) في «أ»: (هذا) والتصحيح من شرح القلشاني.

[قادر][1] على خلق علم في القلب يعلم به. وليس للرؤية أثر في المرئي، لا في ذاته ولا في صفاته كالعلم؛ وإنما هو كشف مخصوص. وليس من شرط الرؤية مقابلة المرئي ولا انبعاث أشعة ولا بنية مخصوصة؛ لأن الرؤية معنى قائم بالمحل المدرِك يختص قيامه به، فلا يوجب حكماً لغيره وانضمام أجزاء أخرى لمحل الرؤية، وليس من خاصية المحل ولا من شرطه؛ لأنّ المحال متساوية في حقائقها. وإذا لم يجب تركيب المحل من أجزاء بطل ما ركب عليه من مقابلته وانبعاث أشعة. وممّا يبيّن ذلك مسألة المرأة، قال الشيخ أبو حامد: وهي من أقوى العمد في ذلك لمن تأمّلها، وإنما غرّ المعتزلة وقوفهم على المعتادات. قال الإمام أبو المعالي: الباري جل وتعالى يرى خلقه وليسوا في مقابلة، فكذلك يرونه وليس في مقابلة.

وأمّا طريقة العلم بجواز رؤية الله تعالى من السمع فكثير:

ـ فمن ذلك سؤال موسى عليه السلام، إذ لو كانت مستحيلة لما سألها عليه السلام، وقد أوجبت له العصمة العلم بالله تعالى وما يجب له ويستحيل عليه.

ـ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] وهو نفي الوقوع، والمستحيل لا ينفى وقوعه، وإنما ينفى جوازه.

ـ ومن ذلك تعليقها على جائز، وهو استقرار الجبل، والمستحيل وقوعه لا يعلّق على جائز؛ لأن فيه تجويز وقوعه، وكلام الله تعالى منزه عن ذلك؛ بخلاف الحكم الجائز إذا علّق [على مستحيل][2] فإنه يقتضي اليأس من وقوع ذلك الجائز، ألا ترى أنّ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف ٤٠]، ووُلُوجه لا يقع لاستحالته، فدخلوهم الجنة لا يقع لتعلقه على ما لا يقع.

ـ ومن ذلك إجماع السلف الصالح على الابتهال إلى الله عز وجل أن يريهم وجهه الكريم، ولولا علمهم بالجواز لما سألوا.

---

(١) سقطت الكلمة من «أ»، والإضافة من شرح القلشاني.

(٢) سقطت من «أ»، والإضافة من شرح القلشاني.

وإذا تقرر أنّ رؤية الله تعالى جائزة عقلاً وسمعاً لم يبق إلّا النظر في الوقوع، فمن الأدلة على وقوع هذا الجائز:

أ ـ قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] والنظر إذا عدّي بـ«إلى» فالمراد به الرؤية، فتأويل «إلى» بمعنى النعمة باطل؛ لأنّه خروج عن الظاهر، وقد أجمع السلف على بطلانه. وإنما قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فلا معارضة بينها وبين هذه الآية لأن تلك مطلقة وهذه مقيدة، ولأن تلك خرجت مخرج التمدّح بأنه تعالى قادر على منعهم من رؤيته ولا يقدرون على منعه من رؤيتهم، فكما هو قادر على المنع فهو قادر على رفعه؛ لأن القادر على الشيء يقدر على مثله وضدّه. وقد استدل به القاضي رضي الله عنه على جواز رؤيته تعالى بمحضر بعض من المعتزلة فأقرّ المعتزلي بذلك بعدما أبدى التعجب من استدلاله بها لأنها كانت أحد متعمداتهم.

ب ـ ومن الأدلة قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥] دليله أن المؤمنين غير محجوبين.

ج ـ ومنها قوله ﷺ: «ترون ربّكم كما ترون القمر»(١) والتشبيه بين المرئيين.

د ـ وقد أجمع السلف ومن تبعهم من الخلف على أن المؤمنين يرون ربّهم بأبصارهم في الآخرة في دار السلام. فأما رؤية الله تعالى في عرصات القيامة، ففي السنة ما يقتضي وقوعها للمؤمنين، وجوزها بعض المتأخرين للكافرين في العرصات وذلك باطل لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥] وتمسك بظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾؛ ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر؛ عن جريرٍ قال: «كنا جلوساً عند النبيّ ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدرِ قال: إنكم ستَرَونَ ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامُّون في رؤيته، فإن استطعتمُ أن لا تُغلبوا على صلاة قبلَ طلوع الشمس وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا».

﴿رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠] ولا حجة له في ذلك لأن المعنى: بين يدي ربهم. ولا حجة له أيضاً في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ [الملك: ٢٧] لأن الضمير في رأوه يحتمل عوده على النبي ﷺ، ويحتمل عوده على عملهم السيء، ويحتمل عوده على الحشر إلى غير ذلك، ولأنّ رؤية الله تعالى نعيم ورحمة، والكافرون أهل السخط والنقمة.

وممّا يتعلق بهذا الباب، هل رأى النبي ﷺ ربّه ليلة الإسراء أم لا؟

فمنهم من قال: رآه بعيني قلبه. قال الشيخ أبو الحسن الأشعري ﷺ: من قال: «بعيني قلبه» لم يرد به العلم؛ لأنّه ﷺ عالم بالله في كل زمن، ولا يمكن أن يحمل قول الصحابة الكرام: هل رأيت ربك؟ بمعنى هل علمت، فلا بدّ من حمله على القدر الزائد على العلم المسمّى رؤية. وليس من شرط الرؤية بنية مخصوصة على أصلنا، فتكون في القلب وتكون في العين، قال: فقد أجمعوا على حصول الرؤية، وإنما اختلفوا في المحمل، والظواهر تقتضي أنه رآه بعيني رأسه، والله أعلم.

ومما يتعلق بهذا الباب أيضاً، هل هو يطلق على أنه تعالى [يرى] بالبصر أم لا؟ فمنعه الشيخ، وقال: يرى ولا يدرك، ويعلم ولا يحاط. وعلى هذا أحمل الآيتين، قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] وما ذلك إلّا لما للفظ الإدراك والإحاطة من الإيهام، والله أعلم.

وبقي مما يتعلق بكلام المصنف ذكر الوجه. والمراد به الوجود والذات، هذا مذهب جمهور الأئمة. ومذهب الشيخ أبي الحسن أنّ الوجه صفة لله تعالى معلومة من الشرع، يجب الإيمان مع نفي الجارحة المستحيل، إذ كلّ ما ينافي الجلال فهو مستحيل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧] على أنّه نعت للوجه. وقرئت «ذي الجلال والإكرام» وأياً ما كان فذكر الجلال هنا مع ذكر الوجه يدلّ على التنزيه عن التشبيه بسمات الحدوث.

والجلال لغة كناية عن عظم الشيء ورفعته، فتأمل ذلك.

[جنة الثواب هي الجنة التي أهبط منها آدم]

وقوله المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهي التي أهبط منها آدم نبيه وخليفته إلى أرضه بما سبق في سابق علمه).

[قوله: أهبط منها] أي: الجنة التي وعد المتقون هي التي كان فيها آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهبط منها إلى الأرض، بما سبق في علمه تعالى. ولا خلاف في ذلك بين أهل السنة. وحكى ابن عطية في تفسيره أن منذر بن سعيد البلوطي خالف في ذلك وقال: ليست هي. قال: وهذه نكتة اعتزالية، وهو مسبوق بالإجماع ومحجوج به. قال بعضهم: كان لما رحل إلى المشرق خالط بعض المعتزلة فدسّ له ذلك.

[خلق النار ولمن أعدّت]

وقوله: (وخلق النار فاعدّها دار خلود لمن كفر به، وألحد في آياته، وكتبه، ورسله).

اعلم أن القائل قائلان؛ إما قائل بخلقهما معاً أو بنفيهما معاً. فأما القول بخلق واحدة منهما فليس مذهباً لأحد. فكلّ ما استدل به على الجنة فهو دليل على النار. وقد قال تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] وقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «اشتكت النار إلى ربها»[١] إلى غير ذلك.

وقوله: (لمن كفر به وألحد في آياته).

الكفر التغطية والجحد. والإلحاد الزيغ والخروج. ويكون الإلحاد في الآيات والكتب بالتكذيب وبالإعراض عنها، ويكون بتأويلها وحملها على غير محملها[٢] فتتناول المبتدعة، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب صفة النار؛ ومسلم في المساجد، باب استحباب الإبراد؛ عن أبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: قال رسولُ الله ﷺ: «اشتَكَتِ النارُ إلى ربِّها فقالت: ربِّ أكلَ بعضي بعضاً، فأذِنَ لها بنَفَسينِ: نَفَسٍ في الشتاءِ ونفَسٍ في الصيف، فأشدُّ ما تجدونَ منَ الحرّ، وأشدُّ ما تجدون من الزَّمْهَرير».

(٢) في «أ»: (محلها) والتصحيح من القلشاني.

[منع الكافرين من رؤية الله تعالى]

وقوله: (وجعلهم محجوبين عن رؤيته).

أي: ممنوعين. والمنع صفة تقوم بالممنوع تضادّ الرؤية. وتسمية الحائط والحجب الكثيفة والبعد المفرط[1] مانعاً مجازاً، إذ المانع حقيقة قائم بالعين.

[معنى مجيء الله تعالى وإتيانه يوم القيامة]

وقوله: (وأنّ الله تبارك وتعالى يجيء يوم القيامة والملك صفاً صفاً).

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢] وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠] والمجيء والإتيان على ظاهرهما يستحيلان على الله تعالى، فيتعين طرح هذا الظاهر، وقطعنا أنه غير مراد؛ ثم نظرنا بعد ذلك فوجدناه:

- يحتمل أن يكون من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه.
- ويحتمل أن يكون المراد به الظهور عبّر عنه بالمجيء.
- ويحتمل أن يفعل فعلاً سماه مجيئاً.

وتعيين واحد من هذه المحتملات يفتقر إلى دليل، والأصل عدمه، فوجب الوقف، هذا مذهب السلف رضي الله عنهم.

وقوله: ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ عطف الملك على اسم الله تعالى كما هو في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] والملك اسم جنس الملائكة، وفي الحديث: «تنزل ملائكة السماوات فيحدقون بالعالم صفاً بعد صف» قال تعالى: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ [الحاقة: ١٧] والأرجاء الجوانب.

وقوله: (لعرض الأمم وحسابها وعقوبتها وثوابها).

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨] والعرض إحضار المعروض وتمييزه عن غيره، فيسأل ويحاسب، ثم يثاب أو

---

(١) في «أ»: (المفرد)، والتصحيح من شرح القلشاني.

يعاقب، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦] وقال: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

[الإيمان بالميزان ووجوده الحسّي]

وقوله: (وتوضع الموازين لوزن أعمال العباد).

أي: تنصب. وهو جمع ميزان. وأجمع أهل الحق على وجود ميزان حسّي له كفتان ولسان، فتوزن به أعمال العباد؛ أي: صحف أعمالهم، ليظهر الرجحان والخسران، وهو تعالى يخلق الثقل في كفّة الميزان فيعلم أهل المحشر عند ذلك الرابح من الخاسر.

واختلف هل هو ميزان واحد أو موازين، فبعضهم تمسّك بظاهر الآية وقال بالتعدد، وليس في الآية دليل، إذ يصحّ حملها على الموزون وغير ذلك. وأنكرت المعتزلة الميزان وقالوا: المراد به معادلة الأعمال بالحق، فهو وزن معنوي، قالوا: لتعذر وزن الأعمال حقيقة. قيل لهم: توزن صحائف، قالوا: مجاز، ولا مجازكم بأولى من مجازنا. قيل لهم: هذا استعمال للحقيقة وضمّ مجاز إليها، وما ذكرتموه ترك الحقيقة، فكان قولنا أولى، ويؤيده أنه سئل عليه الصلاة والسلام عن ذلك: «فقال: توزن صحائف الأعمال» والحمل على ما نص عليه أولى من الحمل على غيره. وقد أجمع السلف الصالح على ذلك، وليست المسألة عقلية، وإنما مأخذها الخبر، فالرجوع في ذلك إليه.

والموازين ثلاثة:

ـ فوزن يظهر عنه الإيمان أو الكفر. وهو علامة على الخلود في الجنة أو النار، بدليل قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣] وقال بعضهم: الكافر لا يوزن له بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] وجوابه: لا نقيم لهم وزناً نافعاً، جمعاً بين الآيات.

ـ والوزن الثاني فيما بين العباد من المظالم والحقوق، ففي مسلم:

«أتدرون من المفلس» الحديث وفيه: «فإن فنيت حسناته قبل أن يفرغ ما عليه أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه فطرح في النار»[1].

فإن قيل: هذا معارض بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] قيل: لا معارضة، فإن الآية في شخصين لا حقّ لواحد منهما عند الآخر؛ وأما هذا فبذنبه أخذ وبكسبه عوقب.

فإن قيل: فإن لم يكن للمظلوم سيئة كالأنبياء عليهم السلام، ولا للظالم حسنة كالكافرين، فما الحكم؟ قيل: يعطى المظلوم من الثواب بقدر ما يستحقه على الظالم، ويزاد في عقوبة الظالم بقدر ما كان يأخذ من المظلوم أن لو كان ثمّ ما يأخذ؛ فلو أسلم لسقط عنه العقاب إجماعاً، وبقي المظلوم على مقدار ثوابه من فضل الله تعالى ورحمته.

فإن قيل: المظلوم ذمياً والظالم مسلماً؟ قيل: قال بعض أهل العلم: يسقط حقه كالحربي. وقال آخرون: صار حقاً للنبي ﷺ يطلب به، لقوله عليه السلام: «من آذى ذمياً كنت خصيمه يوم القيامة»[2] والله أعلم.

ـ [الوزن الثالث فيما بين العبد وربّه][3]. وروي عن عائشة رضي الله عنها: «الدواوين ثلاثة؛ ديوان لا يغفره الله أبداً وهو الشرك، وديوان لا يتركه الله أبداً وهو حق العباد، وديوان إن شاء غفره وإن شاء عذب عليه وهو ما بين العبد وبين ربه»[4].

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب تحريم الظلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ. فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَىٰ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ. فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ. أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ. ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي، عن ابن مسعود، ولفظه: «من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة» (جامع الأحاديث والمراسيل: ٦/ ٤٨١).

(٣) سقط من أ، والإضافة من شرح القلشاني.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله: «الدَّواوينُ =

وقوله: (﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾).

أي: رجحت صحائف ميزانه. والفلاح الفوز بالبغية.

[صحف الأعمال وكيفية أخذها]

وقوله: (ويؤتون صحائفهم باعمالهم).

أي: يعطونها فيقرؤونها، قال الله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وقوله: فَ﴿مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾.

أي: سهلاً هيناً لا يناقش فيه كما يناقش غيره. وعن النبي ﷺ أنه قال: «من يحاسب يعذب» فقيل: يا رسول الله، فقوله سبحانه: **(حساباً يسيراً)**؛ فقال ذلك العرض، ومن نوقش الحساب عذّب[1].

واعلم أن المؤمنين على قسمين؛ طائع وعاص. فالطائع يأخذ كتابه بيمينه بنص التنزيل وبالإجماع، وأما العاصي فأكثر أهل العلم على أنه يأخذه بيمينه، ووقف بعضهم في ذلك وقال: الله أعلم. وقال الأستاذ أبو الحجاج الضرير في هذا المعنى:

والمذنب الفاسق ذو الإيمان   من آخذين الكتاب بالأيمان

= ثلاثَةٌ: فَديوانٌ لا يَغْفِرُ الله مِنْهُ شَيْئاً، وَديوانٌ لا يَعْبأُ الله بِهِ شَيْئاً، وَديوانٌ لا يَتْرُكُ الله مِنْهُ شَيْئاً، فَأَمّا الدّيوانُ الّذي لا يَغْفِرُ الله مِنْهُ شَيْئاً فَالإِشْراكُ بِالله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وَأَمّا الدّيوان الّذي لا يَعْبأُ الله بِهِ شَيْئاً قَط فَظُلْم العَبْدِ نَفْسَه فِيما بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، وَأَمّا الدّيوانُ الّذي لا يَتْرُكُ الله مِنْهُ شَيْئاً فَمظالِم العِبادِ بَيْنَهُمْ القِصاصُ لا محالَةَ». قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (المستدرك: ٤/٦١٩).

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾؛ ومسلم في الجنة، باب إثبات الحساب؛ عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحَد يحاسَب إلا هَلَك، قالت: قلت: يا رسول اللهَ جَعلني الله فِداءَك، أليس يقول الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾، قال: ذاكَ العَرْض يُعْرَضون، ومن نوقش الحسابَ هَلَك».

وقيل إن حكمه موقوف ولم يرد في أمره توقيف

وقوله: **(ومن أوتي كتابه وراء ظهره فأولئك يصلون سعيراً)**.

قيل: تغل شمال الكافر إلى عنقه، ويجعل خلف ظهره، فيأخذ بها كتابه جزاءاً على نبذه كتاب الله وراء ظهره. وقيل: بل يثقب صدره فيدخل شماله منه فيأخذ بها كتابه من وراء ظهره، والعياذ بالله من سخطه.

[الإيمان بالصراط]

وقوله: (وأن الصراط حق).

أي: ثابت موجود يوم القيامة على متن جهنم. والإيمان به واجب. وقد فسره ﷺ: «هو جسر ممدود على متن جهنم أرقّ من الشعرة وأحدّ من السيف، يرده الأولون والآخرون»[1] قال الله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤﴾ [الصافات: ٢٣، ٢٤] وفي الصحيحين، قيل: يا رسول الله ما الجسر؟ قال: «دحض مزلة، فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة»[2] وفي مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض؟ قال: «على الجسر»[3] إلى غير ذلك من الأحاديث.

وقد أجمع على ذلك السلف الصالح ومن تبعهم من الخلف رضي الله عنهم. وأنكرت المعتزلة، وتأوّلوه على المعنوي، قالوا: لأنه لا يمكن المشي على ما هذا صفته؛ وهذا من جهلهم بأمر ربّهم، ووقوفهم على معتادهم. وقد سئل ﷺ، كيف يمشي الكافر على وجهه؟ قال: «إن الذي أمشاه على رجله

---

(١) أخرجه أحمد في مسند عائشة.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾؛ ومسلم في الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية.

(٣) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب في البعث والنشور، بلفظ: قالت عائشة: سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فأين يكون الناس يومئذٍ يا رسول الله؟ فقال: «على الصراط». وبلفظ: «على جسر جهنم» أخرجه الترمذي في التفسير، باب سورة الزمر.

قادر على أن يمشيه على وجهه»[1]. قال الضرير في هذا المعنى:

والـرب لا يـعـجـزه إمـشـاؤهـم ... عـلـيـه إذ لـم يـعـيـه إنـشـاؤهـم
تـبّـاً لـقـوم ألـحـدوا فـي أمـره ... مـا قـدروا الله حـق قـدره

وقوله: **(يجوزه العباد بقدر أعمالهم، فناجون متفاوتون في سرعة النجاة عليه من نار جهنّم، وقوم أوبقتهم فيها أعمالهم).**

العابرون على الصراط ناجون من النار وموبقون فيها.

والناجون يتفاوتون في سرعة النجاة؛ فمن جائز عليه كالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل، وجرياً، ومشياً، وحبواً، وعلى البطن؛ فناج مسلّم، ومخدوش مرسل، ومكدّس في النار، ومختطف بالكلاليب كشوك السعدان، كما فسره ﷺ في الحديث.

والموبقون أيضاً متفاوتون كما في الحديث: «فمنهم الموبق بعمله، ومنهم المجازى حتى ينجو. حتى إذ فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ممّن أراد الله ﷻ أن يرحمه ممّن يقول لا إله إلّا الله، فيعرفونهم في النار بأثر السجود» الحديث[2]. قال القاضي: وفي هذه

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة بني إسرائيل، عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رَسولُ الله: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَة ثَلَاثَةَ أَصْنَاف: صِنْفاً مُشَاةً وَصِنْفاً رُكْبَاناً وَصِنْفاً عَلَى وُجُوهِهِمْ». قِيلَ: يَا رَسُولَ الله وَكَيْفَ يَمْشُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ؟ قال: إنَّ الَّذي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَقْدَامِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيهِمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَمَا إِنَّهُمْ يَتَّقُونَ بِوُجُوهِهِمْ كُلَّ حَدَبٍ وَشَوْكَةٍ.

(٢) بعض سياقات الحديث أخرجه البخاري في الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، بلفظ: «ويُضرَبُ جسرُ جهنم، قال رسولُ الله ﷺ: فأكون أولَ من يُجيز، ودُعاءُ الرسل يومئذٍ: اللهمَّ سلِّمْ سلِّم، وبه كلاليبُ مثل شَوكِ السَّعدان، أما رأيتم شوكَ السَّعدان؟ قالوا: بلى يا رسولَ الله، قال: فإنها مثل شوكِ السعدان، غيرَ أنها لا يَعلمُ قدرَ عِظَمِها إلّا الله، فتَخطفُ الناسَ بأعمالهم: منهمُ الموبَقُ بعمله، ومنهم المُخرْدَل ثم ينجو»؛ وأيضاً في التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ بلفظ: «قلنا يا رسول اللهِ وما الجَسر؟ قال: مَدحَضَةٌ مَزلةٌ عليه خَطاطيف وكلاليبُ وحسكةٌ مفلطَحَةٌ لها شوكةٌ =

الأحاديث تفصيل صور الناجين في السرعة والسلامة، ثم من نصيبه الخدش وتشفعه النار، ثم الموبق فيها والمكردس الملقى، نعوذ بالله من ذلك.

ومعنى أوبقتهم؛ أي: أهلكتهم. والبائقة والداهية والفليقة بمعنى.

[الإيمان بحوض النبي ﷺ]

وقوله: (والإيمان بحوض رسول الله ﷺ ترِدُه أمّته، لا يظمأ من شرب منه، ويذاد عنه من بدّل وغيّر).

أي: ومن الواجبات أيضاً الإيمان بحوض رسول الله ﷺ. وقد تواترت الأخبار بثبوت حوضه ﷺ، ترده أمته، لا يظمأ من شرب منه أبداً، ويذاد عنه من بدل وغيّر. آنيته من فضة، عدد نجوم السماء، له ميزابان، يجريان فيه من الجنة، ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن وألين من الزبد وأبرد من الثلج، طوله ما بين عمان إلى أيله.

وقد خرّج أحاديث الحوض أهل الصحة، البخاري ومسلم وغيرهما.

وأجمع عليه السلف الصالح رضي الله عنهم وأطبقوا على الابتهال إلى الله سبحانه أن يسقيهم منه. أسأل الله البرّ الرحيم أن يسقينا منه ويجعلنا عليه من الواردين بفضله ورحمته. ذكر الشيخ أبو القاسم السهيلي[1] في «الروض الأنف» عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «إن الله أعطاني نهراً يقال له الكوثر، لا يشاء أحد من أمتي أن يسمع خريره إلّا سمع» فقلت: يا رسول الله وكيف؟ قال: «أدخلي إصبعيك في أذنيك وشدي» قالت: ففعلت، قال: «هذا الذي تسمعي هو من خرير الكوثر»[2].

= عُقيفاء تكون بنَجْد يقال لها السعدانُ، المؤمن عليها كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والرِّكاب فناجٍ مُسَلَّم وناجٍ مخدُوشٌ ومكدوسٌ في نار جهنَّم حتى يَمرَّ آخرُهُم يُسحب سحباً».

(١) عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي السهيلي المالقي. حافظ، عالم باللغة والسير، ضرير. توفي بمراكش سنة ٥٨١هـ (الأعلام: ٣/ ٣١٣).

(٢) أخرجه الدارقطني جامع الأحاديث والمراسيل: ١/ ١٧٤.

واختلف هل لكلّ نبي حوض أو هو حوض سيدنا عليه السلام؟

احتج من قال بالعموم بما خرّجه أبو عيسى الترمذي، أنّه ﷺ قال: «إن لكلّ نبي حوضاً وإنهم يتباهون أيّهم أكثر واردة، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة» قال أبو عيسى: هذا حديث غريب[1]، فالله أعلم.

واختلف أيضاً هل هو قبل الصراط أو بعده؟

واستدلّ كلّ واحد من الفريقين بظواهر لا تفيد قطعاً، والله أعلم. وقد سئل أبو الوليد الباجي عن ذلك فقال: الله أعلم.

ومعنى لا يظمأ من شرب منه؛ أي: لا يعطش. فإن قلت: فإذا كان لا يعطش فما فائدة شراب الجنة؟ فالجواب: إن شرب أهل الجنة وطعامهم إنما هو للتلذذ لا لإزالة ألم الجوع والعطش؛ لأنهما آفتان ولا آفة في الجنة ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝﴾ [طه: ١١٨، ١١٩].

ومعنى يذاد؛ أي: يطرد عنه من بدّل أو غيّر. وظاهره في العقائد لقوله عليه الصلاة والسلام: «فأقول سحقاً سحقاً»[2]، قال الداودي: ويحتمل أن يكون في الأعمال أو في بدعة لا تخرج عن الإسلام، فيكون ذلك في وقت دون وقت، وأحوال القيامة مواطن مختلفة، كما قال الله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝﴾ [الرحمن: ٣٩] وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝﴾ [الأعراف: ٦] وقال أبو عمر ابن عبد البر: كلّ من أحدث في الدين فهو من المطرودين عن الحوض كالخوارج[3]

---

(١) كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في صفة الحوض.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، باب في الحوض؛ ومسلم في الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة.

(٣) الخوارج، ويقال لهم: الحرورية والمحكّمة والنواصب والشراة: هم طائفة من الطوائف الإسلامية، خرجوا على الإمام علي رضي الله عنه في صفّين بعد التحكيم، وهم الغلاة في بغضه وبغض عثمان وعائشة والحكمين وأصحاب الجمل رضوان الله عليهم. وقد انقسم الخوارج إلى عشرين فرقة بادت جميعها ما عدا بعض الأزارقة والإباضية الذين لا زالوا إلى يومنا هذا. (انظر: الفرق بين الفرق: ص٧٨ ـ ١١٢).

والروافض[1] وأصحاب الأهواء، وكذلك الظلمة المعلنون بالكبائر، فكلّ هؤلاء يخاف عليهم أن يكونوا ممّن عنوا بهذا الخبر. وقيل: المراد به أهل الردة، والله أعلم.

[حقيقة الإيمان والإسلام]

قوله: (وأنّ الإيمان قول باللسان، وإخلاص بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بزيادة الأعمال، وينقص بنقصها، فيكون فيها النقص وبها الزيادة).

قد تقدّم أنّ حقيقة الإيمان التصديق بالقلب؛ وحقيقة الإسلام الانقياد بالجوارح.

فالإيمان محلّه القلب، والإسلام محلّه الجوارح.

ثم يطلق كلّ واحد منهما على الآخر، إذا كانا مجتمعين، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦] وفي حديث وفد عبد القيس تفسير الإيمان بالإسلام[2]، وذلك باعتبار كمال القول به؛ لأنّهم مصدقون بقلوبهم. فأمّا إذا لم يكن تصديق في الباطن فلا يصدق على الظاهر إيماناً، قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ ثم قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] فبيّن تعالى أنّ محلّه القلوب، وكذلك فسرّه عليه السلام في

---

(١) الروافض أو الرافضة: فرقة من الشيعة، وهم الذين يرفضون إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وأوّل من تسمّى بذلك الذين تركوا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بعد ما بايعوه، وذلك أنهم طلبوا منه أن يتبرّأ من أبي بكر وعمر، فأبى وقال: كانا وزيري جدّي ﷺ فلا أبرأ منهما، فتركوه ورفضوه. (انظر: الفرق بين الفرق: ص٣٩ ـ ٧٨).

(٢) أخرجه البخاري في العلم، باب تحرض النبي وفد عبد القيس؛ ومسلم في الإيمان، باب الأمر بالإيمان، وفيه: «أمرهم بالإيمان باللهِ عزّ وجلّ وحدَهُ، قال: هلْ تَدْرونَ ما الإيمانُ باللهِ وحدَه؟ قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلمُ. قال: شهادةُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ. وَإقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وصومُ رَمضانَ، وَتُعطوا الخُمُسَ مِنَ المَغْنَم. ونهاهم عن الدّبّاء، والْحَنْتَم، والمُزَفَّتِ ـ قال شُعبةُ: رُبَّما قال النَّقِير، وربّما قال المُقَيَّر. قال: احفظوه وأخبِروه مَنْ وراءَكم».

حديث جبريل عليه السلام[1].

فالإسلام أعمّ والإيمان أخصّ، فيحصّل الأخصّ الأعمّ ولا ينعكس؛ فكلّ مؤمن مسلم، وليس كلّ مسلم مؤمناً.

[زيادة الإيمان ونقصانه]

وباعتبار حصول أركان الإسلام يكون كمال الإيمان ونقصانه، فلهذا قال: «يزيد بزيادة الأعمال وينقص بنقص الأعمال».

وقد اختلف هل تطلق الزيادة والنقص في الإيمان أم لا؟ فقيل: يطلق، وقيل: لا يطلق ذلك، وقيل: يقال يزيد ولا ينقص.

فمن قال: لا يزيد ولا ينقص، اعتبر حقيقة التصديق القائم بالمحل، وهو عرض فلا يزيد ولا ينقص، اللهم إلّا أن يقال زيادته باعتبار كثرة متعلقاته، وكثرة أدلته، وانتفاء الغفلات، وتولّي ذلك من غير فتون فممكن، والله أعلم.

وقال آخرون: يزيد وينقص، وذلك باعتبار الأعمال وتسميتها إيماناً، كما سبق.

وقال آخرون: يزيد ولا ينقص، مراعاة الإطلاق الشرعي في ذلك، وقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤] ولم يرد نقصتهم في الشرع، وهو قول مالك رحمه الله. وله قول آخر أنّه يزيد وينقص، وعليه عوّل المصنف رحمه الله.

قوله: (ولا يكمل قول الإيمان إلّا بالعمل).

تصريح بأنّ التصديق من غير قول لا يكون إيماناً. وقد تقدم أنّ مذهب الجمهور اشتراط النطق من التصديق في الإيمان الشرعي، خلافاً للقاضي أبي بكر حيث قال: النطق عمل من جملة الأعمال، وركن من أركان الإسلام، فينفعه تصديقه بقلبه عند الله، وهو نصّ حديث جبريل عليه السلام حيث جعل النطق من أركان الإسلام.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب سؤال جبريل النبي عن الإيمان؛ ومسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، بلفظ: «جاء ليعلمكم».

قوله: (ولا قول وعمل إلّا بنيّة).

النية هي القصد إلى الشيء، والعزيمة عليه، وتمييزه عن غيره. فكأنه يقول: القول والعمل إذا لم يكن منوياً مخلصاً لله، فلا ينتفع به صاحبها، كما قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»[1] وقال ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وقال بعضهم ممّن تكلّم في شرح هذه العقيدة: مراده بالنية الإيمان، فكأنه قال: ولا نطق باللسان ولا عمل بالجوارح إلّا بشرط الإيمان بالقلب. وهذا يلزم منه أن يسمّى التصديق بالقلب من غير نطق إيماناً؛ لأنّ الشرط يغاير المشروط، ولا يتم هذا إلّا على ما ذهب إليه القاضي في ذلك.

قوله: (ولا قول وعمل ونية إلا بموافقة السنّة).

أي سنّة النّبي ﷺ. وروي عنه ﷺ أنّه قال: «وستفترق هذه الأمة على ثلاثة وسبعين فرقة كلّها في النّار إلّا واحدة» قالوا: ومن الواحدة يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[2] وعنه ﷺ أنّه قال: «إياكم ومحدثات الأمور، فإنّ كلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»[3] وعنه ﷺ أنّه قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضّوا عليها بالنواجذ»[4] وقال الحسن: عمل قليل في سنّة، خير من عمل كثير في بدعة.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي؛ ومسلم في الإمارة، باب «إنما الأعمال بالنيات».

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة؛ وأبو داود في السنة، باب شرح السنة.

(٣) أخرجه النسائي في صلاة العيدين، باب كيف الخطبة، ولفظه: «... إنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ». وأخرجه بدون جملة «وكل ضلالة في النار» في السنة، باب في لزوم السنة، ولفظه: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». وأصله في مسلم في الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، ولفظه: «أَمَّا بَعْدُ. فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ الله. وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَىَ مُحَمَّدٍ. وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا. وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

(٤) أخرجه الترمذي في العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة؛ وابن ماجه في كتاب =

قال بعضهم: أبواب الخير كلّها مسدودة إلّا من قصدها من باب محمد ﷺ، فالسنّة شرط في صحّة كلّ عمل.

[المذنبون من أهل القبلة لا يكفرون بذنوبهم]

قوله: (وانّه لا يكفُر أحد بذنب من أهل القبلة).

لمّا تقدّم له أنّ الإيمان قول وإخلاص وعمل، اقتضى ذلك أنّ من يعمل وكان مذنباً ألّا يكون مؤمناً، فأخبرك أنّ الذنب لا يضادّ الإيمان فيكفر بذنبه، وأنه كلّ من عمل ذنباً من أهل القبلة فليس بكافر.

وقد أوتي النبي ﷺ برجل شرب الخمر ليقيم عليه الحدّ، فقام رجل فقال: ما أكثر ما يؤتى به لعنه الله، فقال ﷺ: «لا تلعنه فإنه يحبّ الله ورسوله»(١).

وقد أجمع السلف ومن تبعهم من الخلف على عدم التكفير بالذنب.

وقالت المعتزلة: من مات غير تائب فهو مخلّد في النّار، ولا يطلق عليه اسم مؤمن ولا كافر، وإنّما يسمّى فاسقاً.

وقالت الخوارج: مرتكب الكبيرة كافر.

وقالت المرجئة: لا تضرّ الذنوب مع الإيمان، ولا يدخل النار من كان في قلبه الإيمان.

وقد تقدم أنّ ذلك كلّه بناء منهم على التحسين والتقبيح، وهو باطل. وقد خالفوا في ذلك كله كتاب الله الكريم وسنة محمد ﷺ. وقد تقدم بيان ذلك كلّه، والحمد لله.

[حقيقة الشهيد وأحواله]

قوله: (وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون).

المراد بالشهداء هنا المقتول في سبيل الله، وإلّا فالشهداء سبعة سواه،

= النبي ﷺ، باب اتباع سنة الخلفاء. قال الترمذي: حسن صحيح.

(١) أخرجه البخاري في الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر؛ بلفظ: «لا تلعنوه فوالله ما علمت إلّا أنه يحب الله ورسوله».

لكن أراد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠] أنّهم هؤلاء وسمّوا شهداء إمّا من الشهادة أو من المشاهدة.

ـ فإن كان من الشهادة، ففعيل بمعنى مفعول؛ أي: مشهود عليه ومشهود له بالجنة.

* أما مشهود عليه، فلأنّ رسول الله ﷺ قال: في قتلى أحد: «هؤلاء الذين أشهد عليهم»[1]؛ أي: أشهد عليهم بالوفاء لله، وقال: «عليهم» ولم يقل «لهم» لأن معنى الكلام: أجيء شهيداً عليهم، وهي ولاية وقيادة، فوصلت بـ«على»[2]. ويجوز أن تكون من الشهادة وتكون فعيلاً بمعنى فاعل؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨] وهذا وإن كان عاماً في الأمة فالشهداء أولى بهذا الاسم. فهذان وجهان إن جعلت الشهيد مشتق من الشهادة.

ـ وإن كان من المشاهدة، فهو فعيل بمعنى فاعل أيضاً؛ لأنّه يشاهد من ملكوت الله تعالى ويعاين من ملائكته ما لا يشاهده غيره. ويكون أيضاً بمعنى مفعول؛ أي: إنّ الملائكة تشاهد قبض روحه وتعرج بها، قال الشيخ أبو القاسم السهيلي: وأولى أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول، فيكون معناه مشهود له بالجنة،

---

(١) أخرجه مالك في الجهاد، باب الشهداء في سبيل الله، عَنْ أَبِي النَّضْرِ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ، أَنَّهُ بَلَغَهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ لِشُهَدَاءِ أُحُدٍ: «هٰؤُلَاءِ أَشْهَدُ عَلَيْهِمْ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: أَلَسْنَا يَا رَسُولَ اللهِ إِخْوَانَهُمْ أَسْلَمْنَا كَمَا أَسْلَمُوا، وَجَاهَدْنَا كَمَا جَاهَدُوا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: «بَلَىٰ، وَلٰكِنْ لَا أَدْرِي مَا تُحْدِثُونَ بَعْدِي». فَبَكَىٰ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ بَكَىٰ، ثُمَّ قَالَ: أَئِنَّا لَكَائِنُونَ بَعْدَكَ؟. قال ابن عبد البر: مرسل عند جميع الرواة، لكن معناه يستند من وجوه صحاح كثيرة، منها ما أخرجه البخاري في الجنائز، باب من يقدم في اللحد، عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنهما «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يَجمعُ بين الرجُلينِ مِن قَتلى أُحُدٍ في ثوبٍ واحدٍ، ثمَّ يَقول: أيُّهم أكثَرُ أخذاً للقرآنِ؟ فإذا أُشيرَ لهُ إلى أحدِهما قَدَّمَهُ في اللَّحدِ وقال: أنا شهيدٌ على هؤلاء. وأمَرَ بدفنِهم بدِمائهم، ولم يُصلِّ عليهم، ولم يُغَسِّلْهم».

(٢) في «أ»: (بإلى)، والتصحيح من شرح القلشاني.

أو يشهد عليه النبي ﷺ كما تقدم، قال: «أنا شهيد على هؤلاء»[1]. ويقوّي هذا المعنى أنه ﷺ لما ذكر الشهداء قال: «والمرأة تموت بجمع شهيد»[2] ولم يقل شهيدة، وفعيل إذا كان صفة لمؤنّث كان بغير «هاء» إذا كان بمعنى مفعول، نحو: امرأة قتيل وجريح. وإذا كان في معنى فاعل، كان بـ«الهاء» كقولهم: امرأة عليمة ورحيمة، فدلّ على أنّ الشهيد مشهود له ومشهود عليه، والله أعلم.

واختلف العلماء ﷺ في معنى هذه الحياة المسندة إليهم مع الإجماع على تزويج نسائهم وإرثهم وتنفيذ وصاياهم.

- فقيل: هذه حياة غير مكيّفة ولا معقول للبشر يجب الإيمان بها بظاهر النص، ويكفّ عن كيفيتها، إذ لا طريق للعلم بها إلّا من الخبر؛ فيجوز أن يجمع الله تعالى جملة من أجزاء الشهيد، فيحييها فتتنعم بالأكل والشرب أو على ما أراده الله ﷻ من ذلك.

- وقيل: هي حياة مجازية، بأن فضلّهم الله تعالى بدوام حالهم التي كانت في الدنيا من الرزق وأجر الثواب عليهم، كالأحياء بخلاف أرواح سائر المؤمنين، فلمّا أشبهوا الأحياء في ذلك وصفوا بالحياة.

قال بعض العلماء: أجمعوا على أنّ أرواحهم لا تعود إلى أجسادهم على ما كانت عليه في الدنيا، إلّا إذا كان يوم القيامة فحينئذٍ. وأجمعوا أنّ لهم مزية وزيادة على غيرهم من المؤمنين لأنّهم خصوا بالرزق والفرح وغير ذلك. وقد وردت الأحاديث بصحة ذلك كلّه؛ خرّج مسلم أنه عليه الصلاة والسلام قال: «أرواح الشهداء في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل» الحديث، وفيه: «قالوا: يا ربنا نريد أن تردّ أرواحنا إلى أجسادنا، حتى نقاتل في سبيل الله مرة أخرى»[3].

---

(١) التخريج السابق.

(٢) أخرجه مالك في الجنائز، باب النهي عن البكاء على الميت؛ وأبو داود في الجنائز، باب فضل من مات بالطاعون؛ والنسائي في الجنائز، باب النهي عن البكاء على الميت. والمعنى: هي المرأة التي تموت عند الولادة وولدها في بطنها، لم تلده وقد تم خلقه.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة.

وفي الموطأ: «إنما نسمة المؤمن في جوف طائر يعلق في شجرة الجنة»[1]. قال بعض العلماء: معنى «في جوف طير» أي: في صور طير، كما تقول: رأيت ملكاً في صورة إنسان. فالشهيد في الجنة يأكل منها ويشرب ويسرح حيث شاء، ثم يأوي إلى القناديل، وغير الشهيد نسمة؛ أي: روحه طائر؛ لأنّ الروح جعل في جوف طائر ليأكل ويشرب، كما فعل بالشهيد، فالروح نفسها طائر تعلق ـ بفتح اللام ـ يتشبّث بها ويرى مقعده منها. ومن رواه بضم اللام فمعناه يصيب منها العلقة؛ أي: ينال منه ما دون نيل الشهيد. وإن كان أراد بـ«يعلق» الأكل نفسه، فهو مخصوص بالشهيد، ويكون رواية من رواه بالضم الشهيد، وبالفتح لمن دونه، والله أعلم. قال مجاهد: الشهداء يأكلون من ثمر الجنة وليسوا فيها، وإنما تدخل الجنة يوم القيامة. وأنكر هذا أبو عمر ورده. قال الشيخ أبو القاسم السهيلي: وليس بمنكر. وقد خرج عن ابن أبي شيبة[2] في مصنفه أنّ رسول الله ﷺ قال: «الشهداء بنهر أو على نهر يقال له بارق، عند باب الجنة في قباب خضر، يأتيهم رزقهم منها بكرة وعشياً»[3] فهذا يبين ما أراد مجاهد، والله أعلم. وجمهور العلماء على أنّهم في الجنة يأكلون ويشربون، وهو ظاهر الأحاديث. ويمكن الجمع في ذلك بأن تكون أحوالاً لطوائف، أو للجميع في أوقات مختلفة، والله سبحانه أعلم.

[حقيقة الروح ومصيرها بعد الموت]

وقوله: (وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يبعثون، وأرواح أهل الشقاوة معذّبة إلى يوم الدين).

---

(١) أخرجه مالك في الجنائز، باب جامع الجنائز؛ والنسائي في الجنائز، باب أرواح المؤمنين؛ وابن ماجه في الزهد، باب ذكر القبر والبلى.

(٢) عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي، أبو بكر، المحدث الحافظ، له في الحديث كتب منها «المسند» و«المصنف في الأحاديث والآثار»، توفي سنة: ٢٣٥هـ (الأعلام: ٤/١١٧).

(٣) وأيضاً أخرجه أحمد في مسند عبد الله بن عباس؛ والحاكم في الجهاد، باب مقام الشهداء، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

الروح لفظ مشترك بين معانٍ؛ فمرة يراد به الملك جبريل ﷺ، ومرة يراد به النبي عيسى ﷺ، ومرة يراد به القرآن، ومرة يراد به روح الإنسان المختص به وهو مراده هنا.

وهو مشتق من الريح، وهو جسم هوائي لطيف، به تكون حياة الجسد عادة، أجراها الله تعالى. بهذا فسّره الإمام أبو المعالي والأستاذ أبو بكر بن فورك وغيرهما. قال القاضي أبو بكر والأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني: إنه عرض، وهو اسم للحياة القائمة في الجسم. وللناس فيه أقاويل كثيرة لا تكاد تنضبط، وأقربها هذان القولان المذكوران. والظواهر الشرعية مقتضية للقول الأول منها، وهو اختيار الشيخ أبي الحسن رحمه الله، وعليه عوّل أكثر المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين، قال بعض أئمتنا: ويمكن الجمع بين هذين القولين؛ فإن الذي يقول إنّه جسم هوائي لطيف، لا بدّ وأن يقول إنه موصوف بصفة الحياة إذ الجواهر كلّها متساوية في حدّها وحقيقتها باختصاص هذا الجسم بتسميته روحاً ليس ذلك للطافة أجزائه ولا لكونه على شكل خاص، لما قام به من الصفات؛ والذي قال إنه عرض لا بدّ وأن يقول باستحالة قيام العرض بنفسه، فلا بدّ له من محلّ يقوم به، قال: فهو خلاف في حال وتسميته.

وهذا القدر كاف في التعريف لحقيقة الروح؛ لأنه يعلم على التجميل وليس يعلم على التفصيل؛ لأنه من علم الغيب. قال الإمام أبو المعالي: جعل الله فيه آية عظيمة في الدلالة على توحيده؛ وذلك أن [جعل] بين جنبيه موجوداً موصوفاً بما هو عليه من الصفات ولم نقدر أن نصل إلى كنه حقيقته، فأحرى الاتصال إلى حقيقة خالقه ﷻ.

والذي يجب القطع به أن الروح موجود مخلوق الله ﷻ من جنس مخلوقاته، ابتدأه الله ﷻ، وبرأه من العدم إلى الوجود، وأسكنه هذا الجسد، فحيا الجسد عند ذلك؛ أي: خلق الله تعالى الحياة في كل جزء من أجزاء الجسد عند مجاورة الروح، ثم يخرجه من هذا الجسد، فيموت الجسد عند مفارقته، عادة أجراها الله سبحانه؛ أي: أنه تعالى يخلق الموت؛ أي: صفة

مضادة للحياة في كل جزء كانت الحياة فيه، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] ولأنّ المحل القابل للشيء يستحيل عروّه عن الشيء ونقيضه. ثم تنقل الروح إن كانت سعيدة إلى علّيين، وإن كانت شقية إلى سجّين، فتبقى هذه منعمة وهذه معذبة. حتى إذا كان يوم القيامة أعاد الله الجسد كما كان أول مرة، فترجع الروح إليه، فلا يخرج منه أبداً، ثم يقع الحساب، وتتطاير الصحف، وينصب الميزان، ويمد الصراط؛ فهؤلاء إلى النعيم، الذي لا آخر له ولا انقضاء في حضرة قدسه؛ وهؤلاء إلى العذاب، الذي لا فراغ له ولا زوال في جهنم خالدون، لا يموتون فيها فيستريحون، ولا يحيون حياة بها ينتفعون ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] فسبحان من هذا حكمه وأمره.

وقيل: مستقر الأرواح القبور، فهي في أفنية قبورها، ولها اتصال وإدراك لما أعدّ لها، فتتنعم بذلك وتعذب.

وقيل: مستقرها الصور.

وكيف ما كان فهي باقية لا تفنى، في نعيم أو عذاب، حتى تعاد أجسادها يوم الحساب. خرّج البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، فإن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار»[1] وقال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

مسألة: والنفس والروح اسمان لمسمّى واحد، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] وقال ﷺ: «إن الله قبض أرواحها ولو شاء لردها إلينا في حين غير هذا»[2] وقال بلال

---

(١) أخرجه مالك في الجنائز، باب جامع الجنائز؛ والبخاري في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة؛ ومسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار.

(٢) أخرجه مالك في وقوت الصلاة، باب النوم عن الصلاة. وهو مرسل باتفاق رواة الموطأ.

بمحضر النبي ﷺ: أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك[1]. وهذا كله على أنّ النفس والروح اسمان لمسمّى واحد.

وقيل: ليس هما مترادفين، وإنما ذلك بوجه واعتبار، كما يقول في السيف الصارم والمهند وغير ذلك. ولولا أنّ بينهما فرقاً لصحّ أن يقال: رأيت ثلاثة أرواح، ومررت بثلاثة أرواح؛ مثل ما يقال: رأيت ثلاثة أنفس، ومررت بثلاثة أنفس.

والأمر في هذا قريب إذا فهم المعنى. وتنقيح الأقوال وترجيحها يخرج عن القصد، وقد تقدم من ذلك ما تدعو الضرورة إليه، والله الموفق.

[الإيمان بفتنة القبر والثبات عند سؤال الملكين]

وقوله: (وأن المؤمنين يفتنون في قبورهم، ويسألون).

الفتنة ها هنا المراد بها الاختبار وفتنة القبر بسؤال الملكين، وهما منكر ونكير، وهما فتّانا القبور. وقد بلغت الأخبار بفتنة القبر وعذابه مبلغ التواتر، وكان عليه السلام يعلّم أصحابه الدعاء على الجنازة، وفيه: «وقِهِ من فتنة القبر وعذاب جهنم»[2] وقد استعاذ عليه السلام من فتنة القبر[3]. والاستعاذة منه ومن فتنته مستفيضة في السلف الصالح قبل ظهور المبتدعة. وحديث أسماء بيّن في ذلك كله، وقد خرّجه أهل الصحة مالك والبخاري ومسلم[4] وغيرهم. وما هذت به المعتزلة والملحدة من استبعادهم إعادة الحياة للمصلوب مع شهادتنا له، أو المقطّع الأعضاء، وشبهه. وقولهم: إنا نرى الميت بعد دفنه بأيام لم يزل على حالته التي كان عليها، حتى إن حبة السمسم إذا وضعت عليه لم تزل على ما

---

(١) أخرجه مالك في وقوت الصلاة، باب النوم عن الصلاة. وهو مرسل، ووصله مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة.

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز، باب الدعاء للميت في الصلاة.

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات، باب الاستعاذة من فتنة الغنى.

(٤) حديث أسماء أخرجه مالك في صلاة الكسوف، باب ما جاء في صلاة الكسوف؛ والبخاري في الجمعة، باب من قال في الخطبة بعد الثناء: أما بعد؛ ومسلم في الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار.

كانت عليه؛ فكل ذلك حماقة وجهل بأحكام الله تعالى، ووقوف مع المعتاد ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٣]، والله تعالى قادر على إعادة الروح للمصلوب بحيث لا نشعر بذلك، وكذلك للمقطع أو لجزء منه حتى يسأل، وليس في هذا كلّه ما يلزم منه محال، والخبر الصدق قد ورد به فوجب الإيمان. وليس عدم رؤيتنا للشيء بدليل على فقدان ذلك؛ فقد أخبر تعالى أن الشيطان يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم. وقال ﷺ: «إن الشيطان يجري من بني آدم مجرى الدم»[1] إلى غير ذلك.

فإن قلت: تخصيص المصنف المؤمنين بالذكر يدلّ على أنّ الكافرين لا يسألون، وقد قال ﷺ في حديث أسماء: «وأما المنافق والمرتاب فيقول: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته»[2] وهذا في سؤال الكافرين.

قلت، قال أبو عمر ابن عبد البر: الأخبار تدلّ على أنّ الكافرين لا يسألون، وإنما يسأل من حقن دمه وماله. فظاهره دخل في حزب المؤمنين، فالسؤال لتمييز المؤمنين حقاً ممن دخل في حزبهم وليس منهم ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال: ٣٧] فأما من لم يتحلّ بحلية الإيمان ولم يدخل في حزبهم فهو متميّز بظاهره عنهم، فلا يسأل لتساوي ظاهره وباطنه، والله أعلم.

فإن قلت؛ قوله: «يفتنون في قبورهم ويسألون» يقتضي أن السؤال غير الاختبار، وليس كذلك؛ لأن السؤال بعينه هو الاختبار؟

فالجواب، أنّ الواو في قوله تكون للحال، فتقدر بمعنى «إذ»، والله أعلم.

وقوله: (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة).

قيل: القول الثابت «لا إله إلّا الله».

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتكاف، باب هل يدرأ المعتكف عن نفسه؛ ومسلم في السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رئي خالياً.

(٢) حديث أسماء سبق تخريجه.

و«الحياة الدنيا» عند الموت.

و«في الآخرة» عند سؤال الملكين. والقبر أوّل منزلة من منازل الآخرة.

[الإيمان بالملائكة الحفظة]

وقوله: (وأن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم).

الحفظة الملائكة الكرام الموكلون بكتاب أعمال العبد وحفظها، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝﴾ [الانفطار: ١٠، ١١] وقال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝﴾ [ق: ١٨] ومعنى «رقيب»؛ أي: يرقب عمله؛ «عتيد»؛ أي: حاضر، يكتبان كلّ شيء حتى أنينه في مرضه، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «يقعد ملكيك على ثنيتيك، ولسانك قلمهما، وريقك مدادهما، وأنت تجري فيما لا يعنيك لا تستحي من الله ولا منهما»[1] قال سفيان: بلغني أن كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات، فإذا أذنب العبد قال له: لا تعجل لعله يستغفر الله.

واختلف هل هما اثنان بالليل واثنان بالنّهار، أو هما اثنان لا يفارقان الشخص؛ والأكثر على الأول، بدليل قوله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار» الحديث[2]. وقال آخرون: يحتمل أن يكون المتعاقبون غير الحفظة، والله أعلم.

وقوله: (ولا يسقط شيء من ذلك من عِلْمِ ربّهم).

أي: لا يذهب؛ أي: إنّ حفظهم للأعمال وكتبهم لها ليس لخوف

---

(١) أخرج الديلمي عن معاذ ﷺ، قالَ النَّبِيّ: «إنَّ اللهَ لَطَّفَ الْمَلَكَيْنِ الْحَافِظَيْنِ حَتَّى أَجْلَسَهُمَا عَلَى النَّاجِذَيْنِ، وَجَعَلَ لِسَانَهُ قَلَمَهُمَا، وَرِيقَهُ مِدَادَهُمَا» (جامع الأحاديث والمراسيل: ٢/ ٢٦٤).

(٢) عن أبي هُريرةَ أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «يَتعاقَبونَ فِيكمْ مَلائِكَةٌ بالليلِ ومَلَائِكَةٌ بالنَّهارِ، ويجتمعونَ في صلاةِ الفَجرِ وصلاةِ العصر، ثمَّ يَعرُجُ الذينَ باتوا فِيكمْ، فَيَسْأَلُهُمْ ـ وهوَ أعلَمُ بهم ـ: كيفَ تَركتُمْ عِبادِي؟ فيَقُولونَ: تَرَكْنَاهمْ وهم يُصَلُّونَ، وأتيناهُمْ وهم يُصَلُّون». أخرجه مالك في الصلاة، باب جامع الصلاة؛ والبخاري في مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، ومسلم في المساجد، باب فضل صلاتي العصر والصبح.

سقوطها عن علم الله، تعالى عن ذلك. وإنما هو لإقامة الحجة عليهم، ولتستشعر النفوس الضعيفة أنّ الشيء المقيد المحفوظ بالكتابة لا يسقط، ولهذا يقول الكافرون يوم القيامة ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩].

[الإيمان بملك الموت]

وقوله: (وأنّ ملك الموت يقبض الأرواح بإذن ربّه).

قال الله تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ [السجدة: ١١] أي: وكّل بقبض أرواحكم؛ أي: يتناول بيده الروح من هذا الجسد إذا بلغت الروح الحلقوم، وأعوانه يعالجونها حتى تبلغ الحلقوم، بدليل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] ثم يمدّ ملك الموت يده يقبضها، بدليل قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ الآية [السجدة: ١١].

والله تعالى هو يتوفّى حقيقة؛ لأنه تعالى الذي يخلق الموت في الجسد عند مفارقة الروح له، بدليل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] وبهذا المعنى يحصل الجمع بين هذه الآي وتنزّل كلّ آية منزلها من البلاغة. قال القاضي أبو الوليد ابن رشد[1] في مقدماته: وكلّ حيوان آدمياً كان أو غير آدمي فملك الموت يقبض روحه، خلافاً للمعتزلة في ذلك حيث خصوه ببني آدم. قال: ولا خلاف في ذلك بين أهل السنة.

[فضل الصحابة رضوان الله عليهم]

وقوله: (وأنّ خير القرون القرن الذين رأوا رسول الله ﷺ، وآمنوا به، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم).

القرن يراد به الجماعة من الناس يجتمعون على ملّة واحدة أو ملك

---

(١) أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجدّ، القرطبي، قاضي الجماعة وصاحب الصلاة بجامع قرطبة، وزعيم فقهاء المالكية بالأندلس. كان عالماً بالأصول والفروع، مع الفضل والدين. له مصنفات تدل على إمامته، منها البيان والتحصيل، والمقدمات. توفي سنة: ٥٢٠هـ (الديباج: ٢/٢٤٨).

واحد أو زمان واحد. واختلفوا في مقدار ذلك الزمان اختلافاً كثيراً. وأكثر ما قيل فيه: مائة وعشرون سنة، وأقلّ ما قيل فيه: عشرة أعوام. واشتقاقه من الاقتران.

وفسرّ المصنّف القرن بمن رأى رسول الله ﷺ وآمن به، ثمّ من رآهم، ثم من رأى من رآهم، وبهذا فسرّه أكثر العلماء. وقال المغيرة[1]: أفضل القرون الصحابة، ثم أبناؤهم، ثم أبناؤهم.

واختلف فيما بعد ذلك من القرون، هل توقف عن التفضيل أم يمشي الحكم كذلك؛ فذهب ابن رشد إلى أنّ هذه القرون الثلاثة هي التي بانت بالتفضيل والتفاوت خاصة. وقال المغيرة وغيره: لا يزال التفاوت كذلك إلى قيام الساعة. والتحاكم في ذلك إلى قوله عليه السلام: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[2] هل خرج ذلك مخرج الحصر للتفضيل أم لا؟ وظاهره الاقتصار على التفضيل والله أعلم. وعلى ذلك اختلف في تفضيل القرن الرابع الذي شك فيه الراوي.

[تعريف الصحابي وترتيب الصحابة في الفضل]

قوله: (وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديون، أبو بكر، ثمّ عمر، ثمّ عثمان، ثمّ عليّ، رضي الله عنهم أجمعين).

هؤلاء هم القرن الأول. والصحابي اسم لمن رأى النبي ﷺ واتبعه فيصدق الاسم على من رآه ولو ساعة بشرط الاتباع. وإلى هذا ذهب البخاري وأحمد بن حنبل والقاضي أبو بكر. قال القاضي: ولكن لا يجب هذا الاسم عرفاً إلا لمن كثرت صحبته واتصل لقاؤه.

قال غير هؤلاء: لا يسمّى صحابياً من كان صغيراً في زمنه. قال ابن

---

(١) المغيرة بن عبد الرحمٰن المخزومي، الإمام الفقيه، أحد من دارت عليه الفتوى بالمدينة بعد مالك، الثقة الأمين. توفي سنة ١٨٨هـ (شجرة النور: ٥٦).

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور؛ ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة.

المسيّب[1]: ولا من كان كبيراً ورآه مرة أو مرتين أو شهراً، وإنما ذلك لمن كثرت صحبته كالسّنة ونحوها. قال أبو عمر: يصدق الاسم على من ولد في حياته، وإن لم يره. وهذا بعيد جداً.

واختلف العلماء في التفضيل بين الصحابة، فمنهم من وقف، ومنهم من فضّل. قال مالك رحمه الله: أدركت جماعة من أهل بلدنا لا يفضلّون أحداً من الصحابة على أحد، ويقولون: الكل فضلاء.

وأكثر الناس على القول بالتفضيل، فعلى هذا فأفضل الصحابة أهل الحديبية، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] قيل: نزلت في أهل الحديبية.

وأفضل أهل الحديبية أهل بدر. خرّج مسلم عن النبي ﷺ قال: «اطلع الله على أهل بدر، فقال: يا أهل بدر اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[2].

وأهل بدر أفضلهم العشرة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، وسعد، وسعيد، والزبير، وعبد الرحمٰن، وأبو عبيدة.

وأفضل العشرة الخلفاء الأربعة.

ثم هم في الفضل على ترتيبهم في الخلافة. وقيل: بالوقف على التفضيل فيما بين عثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين.

واعلم أن التفضيل إمّا باعتبار الباطن وكثرة الثواب ورفع الدرجات، ولا يتوصّل إلى ذلك إلّا بالخبر؛ وإمّا باعتبار الظاهر، ولا يحصل ذلك إلّا بالتفاوت في خصال الفضائل، فمن كثرت فيه فهو أفضل. وما منهم واحد رضي الله عنه

---

(١) سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، أبو محمد. سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعش من التجارة بالزيت، لا يأخذ عطاء. وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته، حتى سمي راوية عمر. توفي بالمدينة سنة ٩٤هـ (الأعلام: ٣/ ١٠٢).

(٢) أخرجه أبو داود في السنة، باب في الخلفاء.

إلّا وله فضائل ومناقب لا تحصى كثرة. وقد أخبر ﷺ عمّا أعدّ الله لهم في غير ما خبر، تارة مجملاً وتارة مفصلاً.

وعلى الجملة فلا مزية فوق مزية الصديق رضي الله عنه. وهو أفضل من وطئ الحصى بعد النبي ﷺ، وفيه قال ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربّي لاتخذت أبا بكر خليلاً»[(١)] وقال فيه: «ما فضلكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن فضلكم بشيء وقر في صدره»[(٢)] وقد قدّمه ﷺ يصلي بالناس. وقال السيد عمر رضي الله عنه في يوم السقيفة: «يا أبا بكر ارتضاك رسول الله ﷺ لديننا، فكيف لا نرضاك لدنيانا». وفضائله كثيرة مشهورة، ومناقبه عزيزة.

وكذلك فضائل السيد عمر رضي الله عنه، قال ﷺ: «لو لبثت فيكم ما لبث نوح في قومه ما استوفيت لكم فضل عمر»[(٣)].

وقال في السيد عثمان: «ألا أستحيي ممن استحيت منه ملائكة السمٰوات»[(٤)] وفيه أنزلت: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ﴾[(٥)] الآية [الزمر: ٩].

وقال في السيد علي رضي الله عنه: «علي منّي كهارون من موسى»[(٦)] وقال: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[(٧)] وعهد إليه «ألا يحبّه إلا مؤمن، ولا يبغضه

---

(١) أخرجه البخاري، في مناقب الأنصار، باب هجرة النبي وأصحابه؛ ومسلم في الفضائل، باب فضائل الصحابة.

(٢) إتحاف السادة المتقين: ١/ ٤٢٣.

(٣) لم نقف عليه، وهو ظاهر الوضع، وكان الشارح في غنى عنه أمام ما جاء في صحيح السنة في فضل عمر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في الفضائل، باب من فضائل عثمان.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (لباب النقول، للسيوطي: ص١٨٤).

(٦) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي، باب مناقب علي بن أبي طالب؛ ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب.

(٧) أخرجه بهذا اللفظ الحاكم في معرفة الصحابة، باب أنا مدينة العلم، وقال صحيح الإسناد، وتعقبه الذهبي فقال: بل موضوع. وأخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب بلفظ: «أنا دار الحكمة، وعلي بابها»، وقال: حديث =

إلّا منافق»[1].

وقد مدحهم الله أجمعين في كتابه الكريم فقال ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] فنسأل الله الباري الرحيم أن يميتنا على محبتهم ويحشرنا في زمرتهم، إنه سميع مجيد.

[النهي عن ذكر الصحابة إلّا بما هو أحسن]

وقوله: (وأن لا يذكر أحد من صحابة رسول الله ﷺ إلّا بأحسن ذكر).

أي: لا ينبغي لأحد أن يذكرهم إلّا بالذكر الحسن الطيب المبارك، فقد قال ﷺ: «الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبّهم فبحبّي أحبهم، ومن أبغضهم ببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»[2] وقال: «لا تسبوا أصحابي فلو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»[3] وقال ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[4] وقال ﷺ: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا»[5] وقال ﷺ: «من سبّ أصحابي فعليه لعنة الله

= غريب منكر. وقال السيوطي: هو حديث حسن.

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وحب علي من الإيمان، عَلِيٌّ: وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ إِنَّهُ لَعَهْدُ النبي الأمي إِلَيَّ: «أَنْ لَا يُحِبَّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضَنِي إِلَّا مُنَافِقٌ».

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب، باب فيمن سب أصحاب النبي ﷺ؛ وأحمد في مسند عبد الله بن مغفل المزني.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً»؛ ومسلم في فضائل اصحابة، باب تحريم سب الصحابة.

(٤) أخرجه الدارقطني في المؤتلف والمختلف (٤/ ١٧٧٨)؛ وابن عبد البر في «العلم» من طريقه، من حديث جابر، وقال: هذا إسناد لا يقوم به حجة، لأن الحارث بن غصين مجهول.

(٥) أخرجه الطبراني قال الهيثمي: فيه مسهر بن عبد الملك، وثقه ابن حبان، وفيه خلاف، وبقية رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد في الفتن، باب ما كان بين أصحاب رسول الله ﷺ).

والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً»[1] قال أيوب السختياني[2]: من أحبّ أبا بكر فقد أقام الدين، ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل، ومن أحب عثمان فقد استضاء بنور الله، ومن أحبّ عليًّا فقد استمسك بالعروة الوثقى، ومن أحسن الثناء على أصحاب رسول الله ﷺ فقد برئ من النفاق، ومن انتقص واحداً منهم فهو مبتدع، مخالف للسنة والسلف الصالح، وأخاف ألا يصعد له عمل إلى السماء حتى يحبّهم جميعاً، ويكون قلبه سليماً.

وقوله: (والإمساك عمّا شجر بينهم).

الإمساك الكفّ والسكوت. وشجر معناه وقع واختلط. ومنه الشجرة لاختلاط أغصانها. يريد ما وقع بين علي وبين معاوية رضي الله عنهما بصفين، وغير ذلك من وقائعهم. قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: تلك دماء لم يخضب الله فيها أيدينا، فلا نخضب فيها ألسنتنا. وروي أن أهل البصرة أرسلوا إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنه يسألونه عن أمر علي ومعاوية رضي الله عنهما، فقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ الآية [البقرة: ١٣٤]. قال بعضهم: ضابط هذا أنّهم عدول وعيون، اختارهم الله لصحبة نبيه عليه السلام، ولنصرة دينه، وأثنى عليهم في كتابه، فكلّ ما وقع في ذلك بينهم فليس عن هواء، ولا لتحصيل دنيا، وإنما هو عن اجتهاد ورأي. فالذي يجب على العامة اعتقاد عدالتهم، وأنهم مجتهدون لم يقصدوا الباطل في شيء من وقائعهم، وكلّ مجتهد في الأحكام مصيب. فمتى سمعوا شيئاً من أخبارهم في وقائعهم كفّوا عن الخوض فيه، وسكتوا عن التحدث فيما لا يعلمون. وروي عن النبي ﷺ: «من حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[3].

---

(١) أخرجه الطبراني (جامع الأحاديث والمراسيل: ٧/ ٣١).

(٢) أيوب بن أبي تميمة كيسان السختياني البصري، أبو بكر: سيد فقهاء عصره. تابعي، من النساك الزهاد، ومن حفاظ الحديث. كان ثبتاً ثقة، روى عنه سبعمائة حديث. (الأعلام: ٢/ ٣٨).

(٣) أخرجه مالك في حسن الخلق، باب ما جاء في حسن الخلق؛ والترمذي في الزهد، باب حدثنا سليمان. والحديث صحيح.

وقوله: (وأنهم أحقّ الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج، ويظن بهم أحسن المذاهب).

قال بعضهم: هذا يعارض ما تقدم من وجوب الكفّ؛ لأن الالتماس للمخرج لا يكون إلا مع الخوض في وقائعهم والكلام فيها. وأجاب عن ذلك بوجهين:

أحدهما: أن هذا خاص بالعلماء الذين يميّزون بين الصحيح والسقيم، ويفرقون بين الغث والسمين؛ والأول لجمهور الناس وعامتهم.

والوجه الثاني: أن الإمساك المراد به الكفّ عن تتبع وقائعهم في حروبهم والإعراض[١] عمّا نقله جماعة المؤرخين في ذلك من أحوالهم. وإنّ التماس المخرج الحسن يكون فيما نقل[٢] منها واشتهر.

[وجوب طاعة أئمة المسلمين من ولّاة الأمور والعلماء]

وقوله: (والطاعة لأئمة المسلمين من ولّاة أمورهم وعلمائهم).

الإمام هو القائم بأمور المسلمين. والوالي هو نائبه.

وطاعة الإمام واجبة، فكذلك طاعة نائبه، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩] وعنه ﷺ أنه قال: «من أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصاه فقد عصاني»[٣] فطاعتهم واجبة إذ بهم تقام الأحكام وتحفظ الفروج والأموال.

واعلم أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره، إلّا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[٤] وعنه ﷺ: «خيار أئمتكم

---

(١) في «أ»: (الأنقال)، والتصحيح من شرح القلشاني.

(٢) سقط من «أ»: (نقل)، والإضافة من شرح القلشاني.

(٣) أخرجه البخاري في الأحكام، باب قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾؛ ومسلم في الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء.

(٤) أخرجه البخاري في الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام؛ ومسلم في الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء.

الذين يحبّونكم وتحبّونهم ويصلّون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنوهم ويلعنوكم»، قلنا: يا سول الله أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال: «لا ما أقاموا فيكم الصلاة، إلا من ولي عليه والٍ فرآه يأتي شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعنّ يدا من طاعة»[١] وعنه ﷺ: «إنّها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها» قالوا: يا رسول الله كيف تأمر من أدرك شيئاً من ذلك؟ قال: «تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم»[٢].

[وجوب الاقتداء بالسلف الصالح]

وقوله: (واتباع السلف الصالح، واقتفاء آثارهم، والاستغفار لهم).

هم الصدر الأول والراسخون في العلم المهتدون بهدي النبي ﷺ، الحافظون لسنته، اختارهم الله تعالى لصحبة نبيّه، وانتخبهم لإقامة دينه، ورضيهم أئمة للأمة، فجاهدوا في الله حق جهاده، وأفرغوا في نصح الأئمة وسعهم، وبذلوا في مرضاة الله أنفسهم، أولئك الذين أثنى الله عليهم في كتابه، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ الآية [الفتح: ٢٩]، وقال ﷻ: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ الآيتان [الحشر: ٨]، فذكر الله فيهما المهاجرين والأنصار، ثم مدح التابعين بحسن اتباعهم، ورضي ذلك منهم ومن الذين جاءوا من بعدهم، وتوعد بالعقاب من خالفهم واتبع غير سبيلهم، فقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الآية [النساء: ١١٥] فيجب اتباعهم فيما نقلوه، واقتفاء آثارهم فيما عملوه، والاستغفار لهم، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ الآية [الحشر: ١٠].

[معنى المراء والجدال وحكمهما]

وقوله: (وترك المراء والجدال في الدين).

المراء مأخوذ من مريت الناقة والشاة إذا مسحت ضرعها لتدرّ. قال ابن

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم.
(٢) أخرجه مسلم في الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء.

الأنباري[1]: مري فلان فلاناً إذا استخرج ما عنده من الكلام. قال بعضهم: المراد به جحود الحق بعد ظهوره.

والجدال من المجادلة، وهو لغة الفتل، ومنه «الجديلة» اسم للحبل المحكم الفتل. والجدال على قسمين: ممدوح ومذموم.

فالممدوح منه ما كان لبيان الحق وإظهاره، قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٨]، وقال مخبراً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ الآية [مريم: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: ٣٢] إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى كثرة.

وأقام عليه السلام بمكة عشرين سنة يدعوهم إلى الله ويبيّن لهم بالبراهين الساطعة والآيات القاطعة، ويحتج عليهم، ويقرعهم، ويوبّخهم، ويتلو عليهم: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، ومضى على ذلك السلف ومن تبعهم من الخلف.

وأما الجدال المذموم، فكلّ ما خالف الحق ودفع في صدره، قال تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥]، وقال تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧] إلى غير ذلك. وذلك كجدال الخوارج والروافض وغيرهم من المبتدعة. ولهذا قال المصنف رحمه الله: «في الدين» أي: ما يكون فيه في الدين، فهو الممتنع. فأما ما يكون منه للدين

---

(١) محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري. من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة، ومن أكثر الناس حفظاً للشعر والأخبار. من كتبه «الزاهر» في اللغة، و«شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات»، و«عجائب علوم القرآن» وغيرها. توفي سنة ٣٢٨هـ (الأعلام: ٦/ ٣٣٤).

لإظهار كلمته، فهو الذي أتت به الشريعة وثبت نقله عن علماء الأمة.

قال بعض العلماء: والقول الجامع في ذلك، أن الجدال إن استلزم مفسدة، فهو المذموم الممنوع شرعاً. وإن لم يستلزم مفسدة؛ فإما أن يستلزم مصلحة أو لا يستلزم شيئاً، فإن لم يستلزم فهو مباح وتركه أولى؛ وإمّا أن يستلزم مصلحة فهو مندوب إليه، وتارة يجب في بعض الأحيان، وذلك في بعض الأشخاص والأزمان.

قال القاضي عبد الوهاب[1]: فوائد المناظرة خمسة:

- إيضاح الحق.
- وإبطال الشبهة.
- ورد المخطئ إلى الصواب.
- والغالي إلى الرشاد.
- والزائغ إلى صحة الاعتقاد.

مع الذهاب إلى التعليم وطلب التحقيق.

وللمناظرة آداب وأحكام، فمن أحكامها:

- أن يقصد بها وجه الله تعالى وإظهار كلمة الحق.
- وأن يجتنب فيه الرياء والسمعة والمباهاة واللجاج وغير ذلك ممّا يخالف تقوى الله تعالى.

ومن آدابها:

- أن يكون مناوبة لا مناهبة.
- وأن يعتدل في رفع صوته.
- ويحسن الإصغاء إلى كلام صاحبه.

---

(١) أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي، الفقيه المالكي، الحافظ الحجة، النظار المتفنن، الأديب الشاعر، من أعيان علماء الإسلام. له تأليف عديدة في الفقه وأصوله، وفي العقيدة، ومنها شرحه على عقيدة الرسالة. توفي بمصر سنة: ٤٢٢هـ (شجرة النور: ١٠٤).

ـ ويحترز من التعنت والتعصب والمداهنة. والله الهادي إلى سواء السبيل. ومن قدم في جميع أموره تقوى الله تعالى واستعمل ذلك في جميع أحواله فقد هدي إلى صراط مستقيم، وما أعز ذلك وما أندره في زماننا هذا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

[وجوب ترك الابتداع في الدين].

وقوله: (وترك كلّ ما أحدثه المحْدِثُون).

روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم ومحدثات الأمور، فإنّ كلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار»[١] قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهتدين من بعدي، عضّوا عليها بالنواجذ»[٢] وقد تقدم وجوب الاقتداء بالسلف الصالح، ويلزم من ذلك مخالفة غيرهم، فكلّ من اتبعهم واقتفى أثرهم، فهو على السنة؛ وكلّ من خالفهم وأتى بما لم يأتوا به ولم يرشدوا إليه، فهو على البدعة. والله سبحانه المسؤول أن يحفظنا من الخطأ والزلل في الاعتقاد والقول والعمل.

قوله: (وصلّى الله على سيدنا محمّد نبيّه، وعلى آله وأزواجه وذريّته، وسلّم تسليماً كثيراً).

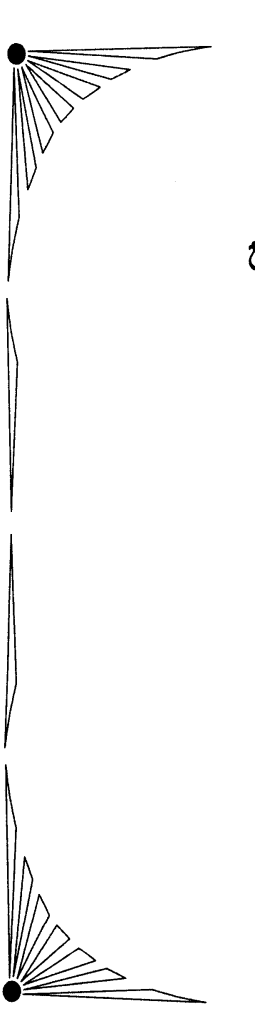
اللهمّ نوّر بالهداية أبصارنا وبصائرنا، وزين بالعلم ظواهرنا وبواطننا، وطهر بالتوبة قلوبنا وجوارحنا. اللهم استعملنا فيما يرضيك حتى لا نتقلب إلا

---

(١) أخرجه النسائي في صلاة العيدين، باب كيف الخطبة، ولفظه: «... إنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ». وأخرجه بدون جملة «وكل ضلالة في النار» في السنة، باب في لزوم السنة، ولفظه: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». وأصله في مسلم في الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، ولفظه: «أَمَّا بَعْدُ. فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ الله. وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ. وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا. وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

(٢) أخرجه الترمذي في العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة؛ وابن ماجه في كتاب النبي ﷺ، باب اتباع سنة الخلفاء. قال الترمذي: حسن صحيح.

في طاعتك، يا أرحم الراحمين. وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيّين، ورضي الله عن الصحابة أجمعين، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.





الفهارس

* فهرس الآيات القرآنية.
* فهرس الأحايث النبوية.
* فهرس الأعلام.
* فهرس المصادر والمراجع.
* فهرس الموضوعات.

فهرس الآيات القرآنية

طرف الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي﴾ إلى قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾	٢٦	٥٥
﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا﴾	٦٧	١١٥
﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾	١٣٣	١٣٢
﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ﴾	١٤٠	١٥٣
﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾	١٥٤	١٠٧
﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾	١٦٩	١٥٣

سورة النساء

طرف الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾	١٨	١٢٢
﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾	٣١	١٢٣، ١٢٤
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾	٤٨	٤٠، ١٢٦
﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾	٥٣	١٥٧
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾	٥٩	١٦٧
﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾	٨٢	١١٢
﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾	١١٣	١٠٩
﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾	١١٥	١٦٨
﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾	١٢٥	١١٥
﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾	١٤٥	٧٢
﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾	١٦٤	٩١
﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾	١٦٥	١١٠

سورة المائدة

طرف الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ﴾	١٩	٥٢، ١١٠

فهرس الأحاديث النبوية

طرف الحديث	الصفحة

حرف الألف

حرف التاء

حرف الحاء

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

فهرس الأعلام

فهرس المصادر والمراجع

- التنبكتي، أحمد بابا.

* **كفاية المحتاج**، مخطوط دار الكتب الوطنية، تونس، رقم ٩٣٠٠.

* نيل الابتهاج (**بهامش الديباج**)، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

- ابن الخوجة، محمد.

* **تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد**، تحقيق الجيلاني ابن الحاج يحيى وحمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٥م، بيروت ـ لبنان.

- ابن أبي زيد القيرواني، أبو محمد عبد الله.

* **كتاب الجامع في السنن والآداب والحكم والمغازي والتاريخ وغير ذلك**. تحقيق: عبد المجيد التركي. دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٩٠م، بيروت ـ لبنان.

* **الرسالة الفقهية، مع غرر المقالة في شرح غريب الرسالة**، تحقيق: الهادي حمّو ومحمد أبو الأجفان. دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، بيروت ـ لبنان.

- الشرنوبي الأزهري، عبد المجيد.

* **تقريب المعاني على متن الرسالة لابن أبي زيد القيرواني**. المكتبة الثقافية، بيروت ـ لبنان.

- الضرير، أبو الحجاج يوسف.

* **التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد**، مخطوط، المكتبة الوطنية، تونس، رقم ٨٣٥٧.

- ابن فرحون، إبراهيم.

* **الديباج**، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

- ابن القاضي المكناسي. أحمد.

* **لقط الفرائد** (ضمن ألف سنة من الوفيات) تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
- محفوظ، محمد.
* **تراجم المؤلفين التونسيين**، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٨٢م.
- مخلوف، محمد.
* **شجرة النور**. دار الفكر.
- مؤلف مجهول.
* **طبقات المالكية**. مكيروفيلم مخطوط، دار الكتب الوطنية بتونس.
- الوزير السراج، محمد.
* **الحلل السندسية**. تحقيق محمد الحبيب الهيلة. دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط١، ١٩٨٥م.
- الونشريسي، أحمد.
* **الوفيات**. (ضمن موسوعة أعلام المغرب). تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة